من بلاغة العرب

تأليف

عبد الغني إسماعيل
الأستاذ بكلية اللغة العربية

محمد عبد المنعم خفاجي
الأستاذ بكلية اللغة العربية

الطبعة الأولى

١٣٧٦ هـ — ١٩٥٦ م

المطبعة المنيرية

بسم الله الرحمن الرحيم

المُقَـدّمَة

هـذه ألوان وصور من بلاغة العرب ، ومعها دراسات عـدة ، عن الأدب العربى فى عصرين من أزهى عصوره : عصر بنى أميـة ، والعصر العباسى الأول ، تناولنا فيهـا علمين من أعلام الأدب ، هما : الـكميت ابن زيد الأسدى ، وعمرو بن بحر الجاحظ شيخ الأدب فى القرن الثالث .

وبجانب ذلك ، دراسات لـكثير من روائع النثر والشعر فى هـــذين العصرين ، دراسة نقد ، وموازنة ، وتحليل .

وصور البيان ، وأعلامه ، فى هذين العصرين ، كثيرة ، لا يتسع الجهد للإحاطة بها ، ولـكن كفى من القلادة ما أحاط بالجيـد .

والله ولى التوفيق ، ومنه نستمد الهداية والسداد ؟

المؤلفان

من أعلام الشعراء والادباء

وآثار أدبية مروية لهم

الكميت بن زيد الأسدى

٦٠ ـ ١٢٦ هـ

(أ)

ألوان من حياته :

الكميت شاعر فحل مشهور ، من شعراء الدولة الأموية ، وأحد البلغاء الخطباء الفصحاء ، وممن يضرب بهم المثل فى البلاغة والبيان ، ذلكم هو الكميت بن زيد الأسدى .

وموطن الكميت هو الكوفة ، والكوفة من أشهر البلاد الإسلامية ، وأذيعها صيتاً فى اللغة ، والأدب ، والشعر ، وهى مجال الصراع السياسى بين الشيعة وبنى أمية ، وكانت عاصمة على ، وبقربها قتل الحسين بكربلاء ، وأكثر أهلها شيعة يتعصبون لعلى وآل بيته .

ووالد الكميت هو زيد بن خنيس بن مجالد من أسد من مضر من نزار ، وقومه بنو أسد مشهورون بفصاحة اللغة وسلامة الملكات .

ولد سنة ٦٠ هـ ، ونشأ بالكوفة بين قومه بنى أسد إحدى قبائل العرب الفصحاء من مضر ، فلقن العربية ، وعرف الأدب والرواية ، وعلم أنساب العرب وأيامها ومثالبها ، بمدارسة العلم ، والأخذ عن الأعراب . وكان له جدتان أدركتا الجاهلية فكانتا تقصان عليه أخبارها وأشعار أهلها ، فتخرج أعلم أهل زمانه فى ذلك ، وأقر له حماد الراوية بالسبق عليه . وقال الكميت الشعر وهو صغير ، وكان لا يذيعه ولا يتكسب به ، ويكتفى بحرفته ـ تعليم صبيان الكوفة بالمسجد ـ ولما حصف شعره وقوى أسره ، ولاسيما فى قصائده التى أعلن فيها تشيعه لبنى هاشم وآل على ، أخذ يتصل بالولاة ، والهاشميين ، يمدحهم وينال جوائزهم .

الكميت شاعر بنى هاشم السياسى :

ولما قال الكميت[١] بن زيد الأسدى الهاشميات ، قدم البصرة ، فأتى الفرزدق ، فقال : يا أبا فراس إنك شيخ مضر وشاعرها ، وأنا ابن أخيك ! قال : ومن أنت ؟ فانتسب له . فقال : صدقت ! فما حاجتك ؟ قال : نفث على لسانى ، فقلت شعرا ، وأحببت أن أعرض عليك ما قلت ، فإن كان حسنا أمرتنى بإذاعته ، وإن كان غير ذلك أمرتنى بستره ، وسترته على . فقال : يابن أخى أحسب شعرك على قدر عقلك ، فهات ما قلت راشدا ، فأنشده :

طربت — وما شوقا إلى البيض[٢] أطرب
ولا لعبـا منى وذو الشيب يلعب

قال : بلى : فإنك فى أوان اللعب فالعب ، فقال :

ولم يلهنى دار ولا رسم[٣] منزل   ولم يتطربنى بنان مخضب

قال : فما يطربك يابن أخى ؟ فقال :

وما أنا ممن يزجر الطير همه   أصاح غراب أم تعرض ثعلب[٤]

قال : فما أنت ؟ ويحك ! وإلى من تسمو ؟ فقال :

ولا السانحات[٥] البارحات عشية   أمر سليم القرن أم مر أعضب

---

(١) خزانة الأدب ص ٢٣٧ ج ٤ ، المسعودى ص ١٩٠ ج ٢
(٢) البيض : جمع بيضاء يريد النساء
(٣) رسم : أثر ، يتطربنى : يحملنى على الطرب
(٤) الزجر للطير : هو التيمن والتشاؤم بها ، والغراب أعظم ما كانت العرب تتطير به . وهذا نوع من العيافة
(٥) السانح ما ولاك ميامنه ، والبارح : ما ولاك مياسره ، وكان أهل نجد يتيمنون بالأول ويتشاءمون بالثانى ، وأهل العامة بالعكس . والأعضب : الثور المكسور القرن ، وكانوا يتشاءمون به

قال : أما هذا فقد أحسنت فيه ، فقال :

ولكن إلى أهل الفضائل والنهى وخير بنى حواء والخير يطلب

قال : من هم ؟ ويحك ! قال :

إلى النفر البيض[١] الذين بحبهم إلى الله فيما نابنى أتقرب

قال : أرحنى ، ويحك ! من هؤلاء ؟ قال :

بنى هاشم رهط[٢] النبى فإننى بهم ولهم أرضى مرارا وأغضب

قال : لله در بنى أبيك ! أصبت وأحسنت ، إذ عدلت عن الزعانف والأوباش ، إذن لايصرد[٣] سهمك ، ولا يكذب قولك .

ثم مر فيها ، فقال له : أظهر ثم أظهر ، فأنت والله أشعر من مضى ، وأشعر من بقى .

فقدم المدينة فأتى أبا جعفر محمد بن على بن الحسين ، فأذن له ليلا ، وأنشده قصيدته « من لقلب متيم مستهام » ، فلما بلغ من الميمية قوله :

وقتيل بالطف[٤] غودر منهم بين غوغاء أمـــة وطغام

بكى أبو جعفر ، ثم قال : ياكميت ! لوكان عندنا مال لأعطيناك ، ولكن لك ماقال رسول الله لحسان بن ثابت : لا زلت مؤيدا بروح القدس ماذببت عنا أهل البيت !

فخرج من عنده فأتى عبدالله بن الحسن على فأنشده فقال له : إن لى ضيعة أعطيت فيها أربعة آلاف دينار ، وهذا كتابها ، وقد أشهدت لك بذلك شهودا ، وناوله إياه .

---

(١) البيض : المشهورون من الأشراف
(٢) الرهط : القوم والقبيلة
(٣) صرد السهم : أخطأ أو نفذ حده ، ضد .
(٤) الطف : موضع قرب الكوفة ، وقتيل الطف هو الحسين عليه السلام .

فقال : بأبى أنت وأمى ! إنى كنت أقول الشعر فى غيركم ، أريد بذلك الدنيا والمال ! ولكنى والله ما قلته فيكم إلا لله ! وما كنت لآخذ على شىء جعلته لله مالا ولا ثمنا ، فألح عبد الله عليه ، وأبى من إعفائه .

فأخذ الكميت الكتاب ومضى ، فمكث أياما ، ثم جاء إلى عبد الله فقال: بأبى أنت وأمى ، يابن رسول الله ، إن لى حاجة ، قال : وما هى ؟ وكل حاجة لك مقضية ، قال : كائنة ما كانت ؟ قال: نعم قال : هذا الكتاب تقبله ، وترتجع الضيعة ! ووضع الكتاب بين يديه ! فقبله عبد الله .

ونهض معه عبدالله بن معاوية بن عبدالله بن جعفر بن أبى طالب[١] فأخذ ثوبا ، فدفعه إلى أربعة من غلمانه ، ثم جعل يدخل دور بنى هاشم ، ويقول : يا بنى هاشم ، هذا الكميت قال فيكم الشعر حين صمت الناس عن فضلكم ، وعرض دمه لبنى أمية ، فأثيبوه بما قدرتم ! فيطرح الرجل فى الثوب ماقدر عليه من دراهم ودنانير ، وأعلم النساء بذلك ، فكانت المرأة تبعث ما أمكنها حتى إنها لتخلع الحلى عن جسدها . فاجتمع من الدنانير والدراهم ما قيمته مائة ألف درهم .

فجاء بها إلى الكميت فقال له : أتيناك بجهد المقل ، ونحن فى دولة عدونا ، وقد جمعنا هذا المال ، وفيه حلى النساء كما ترى ، فاستعن به على دهرك . فقال : بأبى أنت وأمى ! قد أكثرتم وأطيبتم ، وما أردت بمدحى إياكم إلا الله ورسوله ، ولم أك لآخذ لذلك ثمنا من الدنيا ، فاردده إلى أهله ، فجهد به عبد الله أن يقبله بكل حيلة فأبى ، فقال : إن أبيت أن تقبل فإنى رأيت أن تقول شيئا يغضب منه بعض الناس ، لعل فتنة تحدث فيخرج من بين أصابعها

---

(١) من زعماء آل البيت ومن رجالات قريش ، أقام بالكوفة ورشحه أهلها للملك وبويع بالولاية ، وحاربته بنى أمية ، فتوجه إلى خراسان ، ولكن أبا مسلم حبسه ، ثم أعمل تدبيره فى قتله (راجع ١٢٧ جـ ٢ أعلام الأدب فى عصر بنى أمية لخفاجى)

بعض ما نحب ، فنكافئك بما نحب . فابتدأ الكميت ، وقال قصيدته التى يذكر فيها مناقب قومه من مضر ، وربيعة وإياد وأنمار[١] ، ويكثر فيها من تفضيلهم ، ويطنب فى وصفهم ، وأنهم أفضل من قحطان .

فثارت العصبية فى البدو والحضر ، وانحرف أهل اليمن إلى الدعوة العباسية ، وأعقب ذلك انتقال الدولة عن بنى أمية ، إلى بنى هاشم .

ومن هذه القصيدة :

وجدت الله إذ سمى نزارا   وأسكنهم بمكة قاطنينا
لنا جعل المكارم خالصات   وللناس القفا ولنا الجبينا[٢]

وكان الكميت من شعراء مضر وألسنتها المتعصبين على القحطانية ، المقارعين ، العالمين بالمثالب .

الكميت يهجو اليمانية وآثار ذلك فى حياته :

وكان حكيم بن عياش الأعور الكلبى ولعاً بهجاء مضر ، فكانت شعراء مضر تهجوه ويجيبهم ، وكان الكميت يقول : هو والله أشعر منكم ، قالوا : فأجب الرجل : قال : إن خالد بن عبد الله القسرى[٣] محسن إلىّ ، فلا أقدر أن أرد عليه . قالوا : فاسمع بأذنك ما يقول فى بنات عمك وبنات خالك من الهجاء ، وأنشدوه ذلك ، فحمى الكميت لعشيرته ، وقال قصيدته المذهبة : ألا حييت عنا يامرينا ، وهى التى هجا فيها أهل اليمن ، وبلغ خالداً خبرها ،

---

(١) الأغانى ص ١١٠ ج ١٥

(٢) نقض دعبل هذه القصيدة على الكميت ، وذكر مناقب اليمن وفضائلها وملوكها ، وذلك فى قصيدته التى منها :

أفيقى من ملامك ياظعينا   كفاك اللوم مر الأربعينا
ألم تحزنك أحداث الليالى   يشيبن الذوائب والقرونا

(٣) هو والى الكوفة لهشام وقد وليها عام ١٠٥ هـ ، وعزل عنها عام ١٢٠ هـ ، وحبس وصودرت أمواله ، ثم قتل فى عهد الوليد بن عبد الملك عام ١٢٦ هـ .

فقال : لاأبالى مالم يجر لعشيرتى ذكر ، فأنشدوه القصيدة وفيها ذم لعشيرة خالد ، فأحفظته عليه ، ثم قال : فعلها ، والله لأقتلنه !

ثم اشترى ثلاثين جارية بأغلى ثمن ، وتخيرهن نهاية فى حسن الوجوه والكمال والأدب ، فرواهن الهاشميات ، ودسهن مع نخاس إلى هشام بن عبد الملك فاشتراهن جميعاً ، فلما أنس بهن استنطقهن ، فرأى فصاحة وأدباً ، فاستقرأهن القرآن فقرأن ، واستنشدهن الشعر فأنشدنه قصائد الكميت بن زيد الأسدى ، قال : وفى أى بلد هو ؟ قلن : فى العراق ، ثم بالكوفة .

فكتب إلى خالد ـ وهو عامله على العراق ـ : ابعث إلى براس الكميت ابن زيد ، فبعث خالد إلى الكميت فى الليل ، فأخذه وأودعه السجن ، ولما كان من الغد أقرأ من حضره من مضر كتاب هشام ، واعتذر إليهم من قتله ، وآذنهم فى إنفاذ الأمر فيه فى غد .

ثم قال لأبان بن الوليد البجلى ـ وكان صديقاً للكميت ـ أنظر ماورد فى صديقك . فقال : عز على والله ذلك .

ثم قام أبان فبعث إلى الكميت رسالة مع غلام له وأركب الغلام فرساً وقال له : أنت حر إن أدركت وأديت إليه الرسالة والفرس لك . وفى رسالته إلى الكميت : « قد بلغنى ماصرتَ إليه وهو القتل ، إلا أن يدفع الله عزوجل ، وأرى لك أن تبعث إلى حُبّى[1] ، فإذا دخلت إليك تنقبت بنقابها ، ولبست ثيابها وخرجت ، فإنى أرجو ألا يؤبه لك » .

فأرسل الكميت إلى أبى وضاح حبيب بن بديل وإلى فتيان من بنى عمه من أسد ، فدخل عليه حبيب فى حبسه ، فأخبره الخبر ، وشاوره فيه ، فسدد رأيه .

ثم بعث الكميت إلى حبى امرأته ، فقص عليها القصة وقال لها : أى ابنة عم ، إن الوالى لا يقدم عليك ، ولا يسلمك قومك ، ولو خفته عليك لما عرضتك

---

(١) هى زوج الكميت

له ، فألبسته ثيابها وإزارها ، وقالت له : أقبل وأدبر ، ففعل ، فقالت : ما أنكر منك شيئاً إلا يبساً فى كتفك ، فأخرج على اسم الله — وأخرجت معه جارية لها — فخرج ، ولم يلتفت إليه الحرس وسار حتى دخل منزل أبى الوضاح .

ولما مضى على السجان وقت نادى الكميت فلم يجبه ، فدخل ليعرف خبره ، فصاحت به المرأة : وراءك ! لا أم لك ! فشق ثوبه ومضى صارخاً إلى باب خالد ، فأخبره الخبر ، فأحضر حبى ، وقال لها : ياعدوة الله ، احتلت على أمير المؤمنين ، وأخرجت عدوه لأمثلن بك ، ولأصنعن ولأفعلن ! فاجتمعت بنو أسد وقالوا : ما سبيلك على امرأة منا خدعت ! فخافهم ، وخلى سبيلها !

وسقط غراب على الحائط فنعب ، فقال الكميت لأبى الوضاح : إنى لمأخوذ ، وإن حائطك لساقط ، فقال : سبحان الله ! هذا مالا يكون إن شاء الله ، فقال له : لابد من أن تحولنى ، فخرج به إلى بنى علقمة — وكانوا يتشيعون — فأقام فيهم ، ولم يصبح حتى سقط الحائط الذى سقط عليه الغراب .

وأقام الكميت مدة متوارياً حتى إذا أيقن أن الطلب قد خف عنه خرج ليلا فى جماعة من بنى أسد على خوف ووجل ، وكان عالماً بالنجوم متهدياً بها ، فلما صار سحيرا صاح بالفتيان : هوموا[1] ، وقام هو يصلى . ثم رأى واحد منهم شخصاً ، فتضعضع[2] له ، فقال الكميت : مالك ؟ قال : أرى شيئا مقبلا ، فنظر إليه ، فقال : هو ذئب قد جاء يستطعمكم ، فجاء الذئب فربض ناحية ، فأطعموه يد جزور فتعرقها[3] ، ثم أهووا له بإناء فيه ماء فشرب منه ، وارتحلوا ، فجعل الذئب يعوى ، فقال الكميت ماله ؟ ويله ! ألم نطعمه

(١) أصل التهويم والتهوم : هز الرأس من النعاس
(٢) تضعضع : خضع وذل
(٣) تعرق العظم : أكل ما عليه من اللحم .

ونسقيه ؟ وما عرفني بما يريد ، هو يعلمنا أنا لسنا على الطريق ، تيامنوا يافتيان ، فتيامنوا ، فسكن عواؤه !

الكميت فى الشام :

ولم يزل الكميت يسير حتى جاء الشام ، وتوارى فى بنى أسد وتميم ، ورحل إلى أشراف قريش ـ وكان سيدهم يومئذ عنبسة بن سعيد بن العاص ـ فمشت رجالات قريش بعضها إلى بعض ، وأتوا عنبسة ، فقالوا : يا أبا خالد، هذه مكرمة قد أتاك الله بها ، هذا الكميت بن زيد لسان مضر ، كتب أمير المؤمنين فى قتله ، فنجا حتى تخلص إليك وإلينا .

قال : فمروه أن يعوذ بقبر معاوية بن هشام ، فمضى الكميت ، فضرب فسطاطه عند قبره ، ومضى عنبسة ، فأتى مسلمة بن هشام فقال له : يا أبا شاكر مكرمة أتيتك بها تبلغ الثريا إن اعتقدتها ، فإن علمت أنك تفى بها وإلا كتمتها قال : وماهى ؟ فأخبره الخبر ، وقال : إنه قد مدحكم بما لم يسمع بمثله فقال : علىّ خلاصه .

ودخل على أبيه الخليفة هشام ـ فى غير وقت دخول ـ فقال له هشام : أجئت لحاجة ؟ قال : نعم ، قال : هى مقضية إلا أن يكون الكميت ، فقال : ما أحب أن تستثنى علىّ فى حاجتى ، وما أنا والكميت ؟ فقالت أمه : والله لتقضين حاجته كائنة ما كانت ، قال : قد قضيتها ولو أحاطت بما بين قطريها[1]، قال : هى الكميت يا أمير المؤمنين ، وهو آمن بأمان الله عز وجل وأمانى ، وهو شاعر مضر ، وقد قال فينا قولا لم يقل مثله ، قال : قد أمنته وأجزت أمانك له ، قال : فاجلس له مجلساً ينشدك فيه ماقال فينا .

---

(١) القطر : الجانب والناحية .

في مجلس هشام :

وعقد المجلس وارتجل الكميت في هذا المجلس خطبة ما سمع بمثلها قط . وامتدح بني أمية بقصيدته الرائية التي ارتجلها ارتجالا حتى إنه لم يجمع منها إلا تلك الأبيات التي حفظها الناس في هذا المجلس ، وقد سئل عنها الكميت فقال : ما أحفظ منها شيئاً إنما هو كلام ارتجلته .

وقد بدأ قوله في المجلس بحمد الله والثناء عليه والصلاة على رسوله ، ثم قال: « أما بعد ، فإني كنت أتدهدى في غمرة ، وأعوم في بحر غواية ، أخنى على خطلها ، واستنفرني وهلها ، فتحيرت في الضلالة ، وتسكعت في الجهالة ، مهرعا عن الحق ، جائراً عن القصد . أقول الباطل ضلالا . وأفوه بالبهتان وبالا ، وهذا مقام العائذ ، مبصر الهدى ، ورافض العماية . فاغسل عنى يا أمير المؤمنين الحوبة بالتوبة ، واصفح عن الزلة ، واعف عن الجرم » .

ثم أنشد قصيدته التي أولها :

قف بالديار وقوف زائر

وفيها يقول :

ماذا عليك من الوقو ف بها وأنك غير صاغر
درجت عليهـــا الغاديا ت الرائحات من الأعاصر[1]

وفيها يقول :

والآن صرت إلى أمية والأمور إلى المصاير

فجعل هشام يغمز مسلمة بقضيب في يده ، ويقول : اسمع اسمع .

وفيها يقول :

كم قال قائلكم لعاً لك عند عثرته لعاثر

---

(١) الأعاصر : جمع إعصار ، وهى الريح تثير السحاب ، أو التي تهب من الأرض كالعمود نحو السماء ، والأصل في الجمع الأعاصير ولكنه خفف بحذف الياء كالمفاتح في المفاتيح .

وغفرتمو لذوى الذنو ... ب من الأكابر والأصاغر
أبنى أميـــة إنــكم ... أهل الوسائل والأوامر
ثقتى بـكل ملمــــة ... وعشيرتى دون العشائر
أنتم معادن للخلا ... فة كابراً من بعد كابر
بالتســـعة المتتـابعين ... خلائفاً وبخـــير عاشر
وإلى القيـــامة لا تزا ... ل لشافع منـكم وواتر(١)

ثم قطع الإنشاد وأعاد خطبته ، فقال :

« إغضاء أمير المؤمنين سماحته وصباحته ، ومناط المنتجعين من لا تحل حبوته لإساءة المذنبين ، فضلا عن استشاطة غضبه بجهل الجاهلين .

فقال هشام : ويلك يا كميت ! « من زين لك الغواية ودلاك فى العماية » .
قال : « الذى أخرج أبانا من الجنة ، وأنساه العهد ، فلم يجد له عزما » .

قال له : فأنت القائل :

فيا موقداً ناراً لغيرك ضوؤُها ... ويا حاطباً فى غير حبلك تحطب

قال : بل أنا القائل :

وجدنا قريشاً قريش البطــاح ... على مابنى الأول الأول
بهم صلح النـــاس بعد الفساد ... وحيص من الفتق مارعبلوا(٢)

قال هشام : فأنت القائل :

لا كعبد المليك أو كوليد ... أو سليمان بعد أو كهشام
من يمت لايمت فقيداً ومن ... يحي فلاذو إل ولا ذو ذمام

---

(١) شافع وواتر : أى لمن يتتابع منـكم فيكون شفعاً فى العدد أو وترا .
(٢) حاص الرجل الثوب : خاطه . رعبل الثوب : مزقه .

ويلك يا كميت ! جعلتنا ممن لا يرقب فى مؤمنٍ إلا ولا ذمة : قال : بل أنا القائل:

فالآن صرت إلى أميـــة والأمور إلى المصـــائر
يا بن العقـــائل للعقـــا ئل والجحاجحة الأخاير
من عبد شمس والأكا بر من أمية فالأكابر
إن الخـــلافة والإلا ف برغم ذى حسد وواغر[1]
دلفا من الشرف التليـــد إليك بالرفـــد الموافر[2]
فحللت معتلج البطاح وحل غيرك بالظواهر[3]

قال له : فأنت القائل :

فقل لبنى أمية حيث حلوا وإن خفت المهند والقطيعا
أجاع الله من أشبعتموه وأشبع من بجوركمو أجيعا
بمرضى السياسة هاشمى يكون حياً لأمته ربيعا

قال : لا تثريب يا أمير المؤمنين إن رأيت أن تمحو قولى الكاذب . . . .
قال : بماذا ؟

قال : بقولى الصادق :

أورثتْهُ الحصان أمُّ هشام حسبا ثاقباً ووجها نضيرا
وتعاطى به ابنُ عائشة البد رَ فأمسى له رقيباً نظيرا
وكساهُ أبو الخلائفِ مروا نُ سنىَ المكارمِ المأثورا
لم تجهم له البطاحُ ولكن وجدتها له معاناً ودورا

---

(١) الواغر : الحاقد . الإلاف : هو الإيلاف ، ومعناه فى القرآن العهد .
(٢) الضمير فى دلفا يعود إلى الخلافة والإلاف ، ودلف : مشى فى تؤدة .
(٣) اعتلجت الأرض : طال نبتها . البطاح : جمع أبطح أو بطحاء وهو مسيل الماء فيه دقاق الحصى . الظواهر : أشراف الأرض أى ما ارتفع منها .

وكان هشام متكئا ، فاستوى جالساً وقال : هكذا فليكن الشعر . ثم قال : لقد رضيت عنك يا كميت ، فقبل يده ، وقال : يا أمير المؤمنين ، إن رأيت أن تزيد فى تشريفى فلا تجعل لخالد على إمارة قال : قد فعلت وكتب له .

الكميت بعد العفو عنه :

وقد أراد الكميت أن يبعد عنه نطاق المراقبة والشبهات ، فأخذ يمدح هشاما بعد عفوه عنه ، ويمدح الأمراء والولاة ورجالات الدولة ، وينال جوائزهم .

ورجع الشاعر إلى الكوفة بعد أن نال العفو ، ونال الأمن والأمان من أن تمتد إليه يد خالد والى الكوفة ، وقد مدح خالدا إبعادا لشره عنه .

ولما عزل خالد وولى الكوفة بعده يوسف بن عمر الثقفى عام ١٢٠ هـ ، صمت الكميت خوفا من بطش الوالى الجديد .

ومع أن الكميت مدح يوسف إلا أنه لم يسلم من مكره ، إذ قتله جند يوسف وهو فى مجلسه ينشده مدحه عام ١٢٦ هـ .

يروى أن الكميت لما مدح يوسف بن عمر والى العراق بعد خالد القسرى أشار فى مدحه إلى استطعام خالد الماء حين خرجت عليه الجعفرية[1] ، وهو على المنبر . قال الكميت :

خرجت لهم تمشى البراح ولم تكن كمن حصنه فيه الرتاج المضبب[2]

---

(١) أتباع أبى جعفر محمد بن على العلوى .

(٢) البراح : المتسع من الأرض . الرتاج : الباب العظيم ، وهو الباب المغلق وفيه باب صغير . ومضبب : عليه ضبة ، وأهل مكة يسمون المزلاج ضبة .

وما خالد يستطعم الماء فاغرا ... بعدلك والداعى إلى الموت ينعب[١]

وكان الجند الذين على رأس يوسف يمانية ، فتعصبوا لخالد ووضعوا ذباب سيوفهم فى بطن الكميت ، فلم يزل ينزف الدم حتى مات .

شعر الكميت وشاعريته

آراء النقاد فى الكميت :

كان حماد الراوية يصف شعره بأنه خطب ، يريد أنه يشتمل على الحجاج والمناظرة والجدل والإقناع والبرهان ، وهذا وإن كان حماد يريد به الذم إلا أنه أبلغ الجوانب فى شاعرية الكميت فى رأينا .

وسئل معاذ الهراء عن أشعر الناس ؟ فقال : من الجاهليين : امرؤ القيس ، وزهير ، وعبيد بن الأبرص ، ومن الاسلاميين : الفرزدق ، وجرير والأخطل . فقيل : يا أبا محمد ، ما رأيناك ذكرت الكميت ، قال ذلك أشعر الأولين والآخرين . . وفيه يقول أبو عكرمة الضبي : لولا شعر الكميت لم يكن للغة ترجمان ، ولا للبيان لسان . وقال أبو عبيدة : لو لم يكن لبنى أسد منقبة غير الكميت لكفاهم : حببهم إلى الناس وأبقى لهم ذكراً . وقيل : فى الكميت خصال لم تكن فى شاعر :

كان خطيب بنى أسد ، وفقيه الشيعة ، وحافظ القرآن ، وكان ثبت الجنان ، وكان كاتبا حسن الخط ، وكان نسابة ، وكان جدليا ، وهو أول من ناظر فى التشيع مجاهراً بذلك . وقال الفرزدق فيه : هو أشعر من مضى ومن بقى .

---

(٣) فاغرا : فاتحا فمه . العدل (بالكسر) النظير . ينعب : يرفع صوته كنعيب الغراب . والمعنى أن خالدا الذى استطعم الماء لا يساويك فى مقام القتال حين يرفع المنادى إلى الحرب صوته .

ألوان من شعر الكميت فى هاشمياته

١ — قال الكميت بن زيد الأسدى يمدح بنى هاشم وهى إحدى القصائد الست الهاشميات :

طربت وماشوقا إلى البيض أطرب ... ولا لعبا منى وذو الشوق يلعب
ولم تلهنى دار ولا رسم منزل ... ولم يتطربنى بنان مخضب
ولا أنا ممن يزجر الطير همه ... أطار غراب أم تعرض ثعلب[١] ؟
ولا السانحات البارحات عشية ... أمر سليم القرن أم مر أعضب[٢] ؟
ولكن إلى أهل الفضائل والتقى ... وخير بنى حواء والخير يطلب
إلى النفر البيض الذين بحبهم ... إلى الله فيما نالنى أتقرب
بنى هاشم — رهط النبى — فإننى ... بهم ولهم أرضى مرارا وأغضب
خفضت لهم منى جناحى مودة ... إلى كنف عطفاه أهل ومرحب
وكنت لهم من هؤلاء وهؤلا ... مجنا على أنى أذم وأقصب[٣]
وأرمى وأرمى بالعداوة أهلها ... وإنى لأوذى فيهم وأؤنب
فما ساءنى قول امرىء ذى عداوة ... بعوراء فيهم يجتدينى فيجدب[٤]
فقل للذى فى ظل عمياء جونة ... يرى الجور عدلا : أين لا أين يذهب؟
بأى كتاب أم بأية سنة ... ترى حبهم عارا على وتحسب

---

(١) زجر الطير وغيرها : طرقها بحصاة حتى تتحرك ، فان ولتك ميامنها ، فهى سانحة ، وإن ولتك مياسرها ، فهى بارحة . ومما كان العرب يتشاءمون به تعرض الثعلب فى الطريق .

(٢) الأعضب: المكسور أحد قرنيه ، والعرب يتشاءمون به .

(٣) يريد بهؤلاء وهؤلاء : أعداء بنى هاشم من الخوارج وبنى أمية . والمجن الترس . وأقصب : أشتم .

(٤) العوراء : الكلمة القبيحة . ويجدب : أى يعيب .

ومن غيرهم أرضى لنفسى شيعة
ومن بعدهم لا من أجل وأرجب(١)

إليكم ذوى آل النبى تطلعت نوازع من قلبى ظماء وألبب(٢)
وإنى عن الأمر الذى تكرهونه بقولى وفعلى ما استطعت لأجنب
يشيرون بالأيدى إلى وقولهم : ألا خاب هذا والمشيرون أخيب
فطائفة قد أكفرتنى بحبكم وطائفة قالوا : مسىء ومذنب
فما ساءنى تكفير هاتيك منهم ولا عيب هاتيك التى هى أعيب

وفيها يناجى رسول الله صلى الله عليه وسلم :

فدى لك موروثا أبى وأبو أبى ونفسى، ونفسى بعد بالناس أطيب
بك اجتمعت أنسابنا بعد فرقة فنحن بنو الإسلام ندعى وننسب
حياتك كانت مجدنا وسناءنا
وموتك جدع للعرانين مرعب(٣)
وأنت امين الله فى الناس كلهم
علينا ، وفيما احتاز شرق ومغرب(٤)
ونستخلف الأموات بعدك كلهم(٥)
ونحتب لو كنا على الحق نحتب
وبوركت مولودا وبوركت ناشئا
وبوركت عند الشيب إذ أنت أشيب

---

(١) أرجب : أى أهاب .
(٢) ألبب : جمع لب .
(٣) العرانين جمع عرنين : الأنف . والمراد بجدع العرنين : الذلة والمهانة .
(٤) وفيما احتاز شرق ومغرب : أى فيما ضمه شرق وغرب .
(٥) نستخلف الأموات : أى نلتمس منهم خلفا .

٢ — ومن هاشميات الكميت أيضا قوله :

ألا هل عم فى رأيه متأمل   وهل مدبر بعد الإساءة مقبل(١)
وهل أمة مستيقظون لرشدهم   فيكشف عنه النعسة المتزمل(٢)
فقد طال هذا النوم واستخرج الكرى   مساويهم لو كان ذا الميل يعدل
وعطلت الأحكام حتى كأننا   على ملة غير التى ننتحل
كلام النبيين الهداة كلامنا   وأفعال أهل الجاهلية نفعل
رضينا بدنيا لا نريد فراقها   على أننا فيها نموت ونقتل
ونحن بها مستمسكون كأنها   لنا جنة(٣) مما نخاف ومعقل(٤)
أرانا على حب الحياة وطولها   يجد بنا فى كل يوم ونهزل

٣ - ومن الهاشميات هذه القصيدة التى نذكر بعضا منها :

من لقلب متيم مستهام   غير ما صبوة ولا أحلام
طارقات ولا ادكار غوان   واضحات الخدود كالآرام(٥)
بل هواى الذى أجن وأبدى   لبنى هاشم فروع الأنام(٦)
للقريبين من ندى والبعيديـ   ـن من الجور فى عرى الأحكام
والمصيبين باب ما أخطأ النـ   ـاس ومرسى قواعد الإسلام(٧)

---

(١) أى أما آن للعاقل أن ينتبه وللنائم أن يستيقظ
(٢) الملتف   (٣) وقاية   (٤) ملجأ
(٥) طارقات : وصف الأحلام . والادكار : التذكر . غوان : جمع غانية ، وهى المرأة الجميلة .
(٦) أجن مضارع جن (كنصر) : أستر وأخفى ، ومثله أجن (كأكرم) . فروع : جمع فرع وهو أعلى الشىء .
(٧) مرسى قواعد الإسلام : من أرسى الشىء بمعنى ثبته وأقره .

والحماة الكفاة فى الحرب إن لف ضرام وقوده بضرام
والغيوث الذين إن محل النا س فمأوى حواضن الأيتام
والولاة الكفاة للأمر إن طرّ قَ يَتْناً بمجهض أو تمام(١)

ويقول فى وصف رسول الله منها :

أسرة الصادق الحديث أبى القا سم فرع القدامس القدام
خير حى وميت من بنى آ دم طرآ مأمومهم والإمام

وفيها يذكر الحسين ، فيقول :

وقتيل بالطف غودر منه بين غوغاء أمة وطغام(٢)
تركب الطير كالمجاسد منه مع هاب من التراب هيام(٣)
وتطيل المرزآت المقاليت عليه القعود بعد القيام(٤)

٤ — ومن هاشميات الكميت أيضا قوله :

نفى عن عينك الأرق الهجوعا وهم يمترى منها الدموعا
دخيل فى الفؤاد يهيج سقما وحزناً كان من جذل منوعا

---

(١) طرقت الحبلى : إذا خرج شىء من المولود وبقى شىء . اليتن : المولود الذى خرجت رجلاه قبل رأسه ويديه . المجهض : الذى ألقته أمه قبل تمامه .
(٢) الطف : موضع قرب الكوفة .
(٣) المجاسد الثياب المزعفرة . الهيام : الذى يتساقط من نفسه .
(٤) المقاليت : جمع مقلاة وهى المرأة لا يعيش لها ولد .

لفقدان الخضارم من قريش ... وخير الشافعين معا شفيعا(١)

لدى الرحمن يصدع بالتثاني ... وكان له أبو حسن قريعا(٢)

حطوطاً في مسرته ومولى ... إلى مرضاة خالقه سريعا

وأصفاه النبي على اختيار ... بما أعيا الرفوض له المذيعا

ويوم الدوح دوح غدير خم ... أبان له الولاية لو أطيعا(٣)

ولكن الرجال تبايعوها ... فلم أر مثلها خطراً مبيعا

فلم أبلغ بها لعناً ولكن ... أساء بذاك أولهم صنيعا

فصار بذاك أقربهم لعدل ... إلى جور وأحفظهم مضيعا

أضاعوا أمر قائدهم فضلوا ... وأقومهم لدى الحدثان ريعا(٤)

تناسوا حقه وبغوا عليه ... بلاترة وكان لهم قريعا(٥)

فقل لبني أمية حيث حلوا ... وإن خفت المهند والقطيعا(٦)

ألا أف لدهر كنت فيه ... هدانا طائعاً لكم مطيعا(٧)

أيمنع الله دين أشيعتموه ... وأشبع من بجوركم أجيعا

ويأتي فذ أمته جهاراً ... إذا ساس البرية والخليعا(٨)

---

(١) يعني بخير الشافعين النبي صلى الله عليه وسلم.

(٢) القريع : المختار.

(٣) الدوح : الشجر العظيم ، وغدير خم : موضع بين مكة والمدينة قال فيه النبي صلى الله عليه وسلم لعلي : « اللهم وال من والاه » الحديث.

(٤) الحدثان صروف الزمان ، والريع الطريق. ويحتمل أن يكون ريع فعل ماض بمعنى أفزع (٥) الترة الثأر ، والقريع : السيد.

(٦) المهند السيف ، والقطيع . السوط .

(٧) الهدان : الجبان .

(٨) الفذ : الفرد وهو أول القداح ، يعني به قاتل علي ، والخليع : الوليد بن عبد الملك .

بمرضىّ السياسة هاشمى   يكون حياً لأمته ربيعا(١)
وليثاً فى المشاهد غير نكس   لتقويم البرية مستطيعا(٢)
يقيم أمورها ويذب عنها   ويترك جدبها أبداً مريعا(٣)

٥ — وقال:

سل الهموم لقلب غير متبول   ولا رهين لدى بيضاء عطبول(٤)
ولا تقف بديار الحى تسألها   تبكى معارفها ضلا بتضليل(٥)
ماأنت والدار إذ صارت معارفها   للريح ملعبة ذات الغرابيل(٦)
نفسى فداء الذى لا الغدر شيمته   ولا المعاذير من بخل وتقليل
الحازم الرأى والمحمود سيرته   والمستضاء به والصادق القيل

٦ — وقال الكميت أيضاً:

أهوى علياً أمير المؤمنين ولا   ألوم يوماً أبا بكر ولا عمرا
ولا أقول وإن لم يعطيا فدكاً   بنت النبى ولا ميراثه كفرا(٧)
الله يعلم ماذا يأتيان به   يوم القيامة من عذر إذا اعتذرا

---

(١) الحيا: المطر والخصب، والربيع معروف وهو يعم الناس بالخير فيكون مثله (٢) النكس: الدنى المقصر.
(٣) المريع المخصب.
(٤) المتبول: الذى أفسد الحب قلبه، والعطبول الحسنة العنق.
(٥) الضل والضلال والتضليل: واحد.
(٦) معارف الدار: معالمها، وذات الغرابيل: التى تنخل التراب وتسفيه.
(٧) فدك: قرية على ثلاث مراحل من المدينة، وكانت فاطمة طلبتها من أبى بكر فلم يعطها لها، وتبعه عمر فى ذلك، لأنهما كانا يريان أن النبى صلى الله عليه وسلم لا يورث.

إن الرسول رسول الله قال لنا إن الإمام على غير ماهجر(١)
فى موقف أوقف الله الرسول به لم يعطه قبله من خلقه بشرا
من كان يرغمه رغماً فدام له حتى يرى أنفه بالترب منعفرا

٧ — وقال فى مقتل زيد بن على :

يعز على أحمد بالذى أصاب ابنه أمس من يوسف(٢)
خبيث من العصبة الأخبثين وإن قلت زانين لم أقذف

٨ — وقال أيضا :

دعانى ابن الرسول فلم أجبه ألهفى لهف للقلب الفروق(٣)
حذار منية لا بد منهـا وهل دون المنية من طريق

ألوان من شعر الكميت فى غير الهاشميات

١ — وقال الكميت يمدح خالد بن عبد الله(٤) :

لو قيل للجود من حليفك(٥) ما إن كان إلا إليك ينتسب
أنت أخوه وأنت صورته والرأس منه وغيرك الذنب
أحرزت فضل النضال(٦) فى مهل فكل يوم بكفك القصب(٧)

---

(١) الهجر : القول القبيح وهو مضاف إليه ، وفى ذلك تغيير مجرى القافية بالإقواء .

(٢) يعنى بابنه زيد بن على بن الحسين ، ويعنى بيوسف يوسف بن عمر الثقفى عامل هشام على العراق .

(٣) اللهف الحسرة ، والفروق : الخائف .

(٤) هو أمير العراق المقتول سنة ١٢٦ ه

(٥) حليفك هو الذى يعاهدك على أن يكون أمركما واحدا فى النصر والحماية

(٦) المباراة فى الرمى

(٧) هو كل نبات ذى أنابيب والواحدة قصبة . وأحرز القصب أو قصب السبق غلب

لو أن كعبا(١) وحاتما(٢) نشرا كانا جميعا من بعض ما تهب
لا تخلف الوعد إن وعدت ولا أنت عن المعتفين(٣) تحتجب
ما دونك اليوم من نوال ولا خلفك للراغبين منقلب(٤)

٢ – وهذا مثال لغزل الكميت وهو غزل ضعيف متكلف ، يروى أن الكميت وفد على الخليفة يزيد بن عبد الملك(٥) فى دمشق ، ومدحه فقال له الخليفة : يا أبا المستهل ، هذه سلامة القس جارية حاذقة عرضت علينا ، أفترى أن نبتاعها ؟ قال الكميت : إى والله ياأمير المؤمنين ، فما أرى أن لها مثلا فى الدنيا فلا تفوتنك ، قال الخليفة فصفها فى شعر حتى أقبل رأيك ؛ فقال الكميت :

هى شمس النهار فى الحسن إلا أنها فضلت بقتل الظراف
زانها دلهـــا وثغر نقى وحديث مرتل غير جاف
خلقت فوق منية المتمنى فاقبل النصح يابن عبد مناف

فضحك يزيد ، وقال : قد قبلنا نصحك يا أبا المستهل ، وأمر له بجائزة .

ولما سمع خالد هذه الأبيات أمر للكميت بمائة ألف درهم ؛

٣ – ويروى صاحب الأغانى أن الخليفة هشاما وقعت له رقعة فيها أبيات تشتمل على هجاء خالد القسرى ، وهى :

---

(١) هو كعب بن مامة من إياد أحد أجواد العرب المضروب بهـــم المثل فى الكرم

(٢) هو حاتم بن عبد الله الطائى الجواد الطائر الصيت والشاعر الجيد ، مات قبيل الإسلام

(٣) طلاب المعروف والرزق .

(٤) دون بمعنى أمام : أى ليس بعد نوالك نوال ولا خلفك أحد يرجى .

(٥) تولى يزيد الخلافة بعد عمر بن عبد العزيز عام ١٠١ هـ ، ومات عام ١٠٥ هـ

تألق برق عنـــدنا وتقابلت أثافِ لقدر الحرب أخشى اقتبالها(١)
فدونك قدر الحرب وهى مقرة لـكفيك واجعل دون قدر جعالها(٢)
ولن تنتهى أو يبلغ الأمر حده فنلها برسل قبل ألا تنالهـا(٣)
فتجشم منهـا ماجشمت من التى بسور أهرت نحو حالك حالها
تلاف أمور الناس قبل تفـاقم بعقدة حزم لاتخاف انحلالها
فمـا أبرم الأقوام يوما لحيلة من الأمر إلا قلدوك احتيالها
وقد تخبر الحرب العوان بسرها ـ وإن لم تبح ـ من لا يريد سؤالها

فأمر هشام أن يجمع له من بحضرته من الرواة فجمعوا ، فأمر بالأبيات فقرئت عليهم ، فقال : شعر من تشبه هذه الأبيات ، فأجمعوا جميعاً من ساعتهم أنه كلام الكميت بن زيد الأسدى .

٤ — ملحمة الكميت :

ومن شعر الكميت ملحمة طويلة بائية رواها أبوزيد فى كتابه « الجمهرة » ، وجعلها إحدى الملحمات السبع التى رواها فى كتابه ، وهى من الشعر السياسى الذى كان ينظمه الكميت ليناضل به بنى أمية ويندد بحكمهم للعالم الإسلامى ، وتبلغ ستة وخمسين بيتا :

ألا لا أرى الأيام يقضى عجيبها بطول ولا الأحداث تفنى خطوبها
ولا عبر الأيام يعرف بعضها ببعض من الأقوام إلا لبيبها

---

(١) يقـال : « اقتبلت الأمر إذا استأنفته » ، يريد بتقـابل الأثافى للقـدر الاستعداد للحرب وإنمـا جعل الحرب قدرا لأنها تضطرب بمن فيهـا كما تضطرب القـدر عندالغليان .

(٢) الجعال : خرقة ينزل بها القـدر . ومعنى مقرة لـكفيك : أى خاضعة لهما ، يريد تمكنه من الأمر وقبضه على زمامه .

(٣) الرسل : الرفق والتؤدة .

ولم أر قول المرء إلا كنبله ... به وله محرومها ومصيبها
وما غبن الأقوام مثل عقولهم ... ولا مثلها كسباً أفاد كسوبها
وما غبن الأقوام عن مثل خطة ... تغيب عنها يوم قيلت أريبها
ولم أر باب الشر سهلا لأهله ... ولا طرق المعروف وعثاً كثيبها
وأكثر ماتى المرء من مطمأنه ... وأكثر أسباب الرجال ضروبها
ولم أجد العيدان أقذاء أعين ... ولكنها أقذاؤها ما ينوبها
من الضيم أو أن يركب القوم قومهم ... ردافاً مع الأعداء ، إلبـاً ألوبها

ومنها :

رمتني قريش عن قسي عداوة ... وحقد كأن لم تدر أني أريبها
توقع حولي تارة وتصيبني ... بنبل الأذى عفواً جزاها حسيبها
رمتني بالآفات من كل جانب ... وبالدربياء مرد فهر وشيبها
بلا ثبت إلا أقاويل كاذب ... يحرب أسد الغاب كفتاً وثوبها

إلى أن قال :

إذا نحن منكم لم ننل حق إخوة ... على إخوة لم يخش غشاً جيوبها
فأية أرحام يعاذ بفضلها ... وأية أرحام يؤدى نصيبها
جمعنا نفوساً صاديات إليكم ... وأفئدة منا طويلا وجيبها
وهل يعدون بين الحبيب فراقه ... نعم داء نفس أن يبين حبيبها
ولكن صبراً عن أخ لك ضائر ... عزاء إذا ما النفس حن طروبها
وإن لم يكن إلا الأسنة مركباً ... فلا رأى للمضطر إلا ركوبها
ستذكرنا منكم نفوس وأعين ... ذوارف لم تضنن بدمع غروبها
إذا وأدتنا الأرض إن هي وأدت ... وأفرخ من بين الأمور مقوبها
وأسكت در الفحل واسترعفت به ... حراجيج لم تلقح كشافاً سلوبها

وبادرها دفء الكنيف ولم يعن
على الضيف ذى الصحن المسن حلوبها

ويبدو أن الكميت قال هذه الملحمة فى عهده الأول ، قبل أن يقول هاشمياته ويأخذه بنو مروان بالشدة ، لأنه يتهدد فى هذه الملحمة ويتوعد ، ويخاطب بنى مروان بشىء من الشدة ، لا يبلغ شدته فى الهاشميات ، ولا يناسب حاله بعد أن عفا هشام عنه ، لأنه عاش بعد عفوه خائفا يلين ويدارى ، ويجتهد فى الإرضاء والبعد عما يوجب السخط ، كما يقول بعض الباحثين .

٥ — مدحه ليزيد بن المهلب :

وله غير ذلك أشعار أخرى ، منها قوله فى مدح يزيد بن المهلب :

قاد الجيوش لخمس عشرة حجة ولداته عن ذاك فى أشغال
قعدتْ بهم هِمَّاتُهم وَسَمَتْ به همُ الملوكِ وَسوْرَةُ الأبطال
فكأنما عاش المهلَّبُ بينهم بأغرَّ قاسَ مثاله بمثال
فى كفه قصبات كل مقلد يوم الرهان وقوت كل نضال
ومتى أزنك بمعشر وأزنهم بك ألف وزنك أرجح الأثقال

شاعرية الكميت وبواعثها

بواعثها :

كانت شاعرية الكميت قوية متأججة ، ومواهبه خصبة مشتعلة ، وكانت هناك أسباب وبواعث عديدة تقوى من شاعريته ، وتصقل من ملكته ، وتهذب من فطرته الشعرية :

١ - وأولى هذه الأسباب وراثته للبلاغة والشعر عن قومه بنى أسد المشهورين بالشعر من قديم ، ومن أشهر شعراء بنى أسد فى الجاهلية عبيد بن الأبرص ، وفى الاسلام الكميت .

٢ — وثانى هذه الأسباب استعداده الفطرى لقول الشعر والنبوغ فيه ، وميله إليه ، ورغبته فى نظمه .

٣ — وثالث هذه البواعث بيئةالكوفة الأدبية ، وكثرة من نبغ فيها من الأدباء والشعراء ، وكثرة عناية العلماء فيها بالشعر ، فوق ما لسوقها المشهور « كناسة الكوفة » من أثر فى نهضة الشعر وازدهاره فيها .

٤ — ورابع هذهالبواعث الظروف السياسية التى كان يعيش فيها الكميت مما جعل لكل حزب شاعرا أو شعراء يدافعون عنه ، وذلك مما شجع الكميت على قول الشعر والنبوغ فيه ، وعلى تجويده فى الجانب السياسى الأهم من بين موضوعات الشعر فى عصره .

٥ — وخامس هذه الأسباب هو عقيدة الكميت الشيعية التى دفعته للدفاع عن الشيعة ومدح زعمائهم ورثاء شهدائهم وقراع أعدائهم ، ونضال بنى أمية المعتدين عليهم .

٦ — وسادس هذه البواعث هو ثقافة الكميت الأدبية الواسعة ، التى جعلت منه شاعرا عالما نسابة جدليا مناظرا راوية ناقدا واسع العلم بالشعر وبأيام العرب وأخبارها وأشعارها ، وكان بيذ حمادا الراوية الكوفى فى هذه

المضمار ، ويروى أنهما كانا يتناظران فى الشعر وروايته ، فكان الكميت يبذ حمادا فى هذا المجال .

أهم أغراض الشعر عند الكميت :

١ — كان أهم أغراض الشعر عند شاعرنا الكميت هو الشعر السياسى الذى تجلى فى هاشمياته ، التى اشتملت على كل أغراض الشعر من فخر ومدح وهجاء ورثاء وحماسة .

والكميت فى هذا الجانب من شعره قوى الشاعرية ، مشتعل الخيال ، ثائر العاطفة ، محتدم الخيال ، متلاحم الأسلوب ، غزير المعانى ، كثير الإجادة ، كثير الحكمة وضرب المثل ، يدعو إلى العدالة فى الحكم ، وإلى الإنصاف فى السياسة ، وإلى الاستماع لصوت الشعوب ، ولقد كان الكميت شاعرا مخلصا لعقيدته الشيعية ، وما مدحه للأمويين إلا لون من ألوان التقية أو الدهاء السياسى ، وهذا مما يجيزه الشيعة ، ويفسر ذلك ماروى عن المستهل بن الكميت ، قال : قلت لأبى : ياأبت ! إنك هجوت الكلبى ، فنخرت ببنى أمية ، وأنت تشهد عليهم بالكفر ، فألا فخرت بعلى وبنى هاشم الذين تتولاهم . قال يابنى ، أنت تعلم انقطاع الكلبى إلى بنى أمية ، وهم أعداء على عليه السلام ، فلو ذكرته لترك ذكرى وأقبل على هجائه ، فأكون قد عرضت عليا له ، ولا أجد له ناصراً من بنى امية ، ففخرت عليه ببنى أمية وقلت : إن نقضها على قتلوه ، وإن أمسك عن ذكرهم قتلته غما وغلبته .

٢ — وللكميت شعر آخر غير الهاشميات ، ويشتمل على أغراض عديدة من وصف وغزل ومدح ، والشاعر فى هذا اللون من الشعر متوسط الشاعرية ، لايبذ غيره من الشعراء .

وقد مضت نماذج لشعر الكميت من هذا اللون .

وجملة الأمر أن الكميت كان شاعرا مطبوعاً على قول الشعر ، ونظمه ، فى كل وقت وكل غرض .

وكان سليم ملكة العربية ، وقد ضمن له ذلك استظلاله بهذا العصر الذى لم يتحيف الملكات فيه نقص ولا اعتدى عليها اختلاط ، وقد انضم إلى ذلك علمه الواسع بلغات العرب ومفاخرهم ومثالبهم ، وكان زمنه يتطلب ذلك ليرضى الشاعر سامعيه ، ويكفيهم حاجة نفوسهم لنهش الأعراض ، او تعداد المناقب .

فاجتمعت بذلك للكميت اسباب الكمال فى شعره : رصانة لفظ ، وطول نفس ، وبعد إشارة .

وكان لكثرة ما حفظ من شعر القدماء أثر عظيم فى جودة شعره حتى لقد تسبق إليه عبارات من كلام هؤلاء القدماء فتزين قوله ، ولكن بعض المتعصبين عليه كخلف الأحمر كان يعد ذلك من معايبه ، ويدعى ان الكميت يسرق كلام الشعراء .

وقد أحدث شعر الكميت آثاراً سياسية بعيدة المدى حتى لقد عد هذا الشعر من أقوى العوامل فى حياة دولة بنى أمية وفى نهايتها ، يقول صاحب الأغانى : «ولم تزل عصبيته للعدنانية ، ومهاجاته شعراء اليمن متصلة ، والمناقضة بينه وبينهم شائعة فى حياته ، وبعد وفاته ، حتى ناقض دعبل وابن أبى عيينة قصيدته المذهبة ، فأجابهما أبو الزلفاء البصرى مولى بنى هاشم عنها » ، ولقد كان ذلك فى النصف الأول من القرن الثالث الهجرى : أى بعد وفاة الكميت بنحو مائة سنة .

ويقول الجاحظ فى بيان المدى الذى بلغه شعر الكميت من التأثير فى سياسة الدولة : « ما فتح للشيعة الحجاج بالشعر إلا الكميت بقوله :

فإن هى لم تصلح لحى سواهم   فإن ذوى القربى أحق وأوجب
يقولون لم يورث ولولا تراثه   لقد شركت فيه بكيل وأرحب(١)

---

(١) هما حيان من همدان

(٢)

هاشميات الكميت

هى ست قصائد قالها الشاعر فى الدفاع عن الهاشميين ، ونضال خصومهم من بنى أمية ، وتبلغ نحو ٥٦٣ بيتاً ، ومعها بعض مقطعات تبلغ نحو العشرين بيتاً .

وأولى هذه القصائد قصيدته الميمية التى مطلعها :

من لقلب متيم مستهام غير ماصبوة ولا أحلام

وثانيتها قصيدة البائية :

طربت وما شوقا إلى البيض أطرب ولا لعبا منى وذو الشيب يلعب

وثالثتها قصيدته البائية أيضا التى مطلعها :

أنىّ ومن أين آبك الطرب من حيث لا صبوة ولا ريب

ورابعها قصيدته اللامية :

ألاهل عم فى رأيه متأمل وهل مدبر بعد الإساءة مقبل

وخامسها قصيدته البائية :

طربت وهل بك من مطرب ولم تتصاب ولم تلعب

وسادسها قصيدته العينية :

نفى عن عينيك الأرق الهجوعا وهم يمترى منها الدموعا

وللهاشميات منزلة كبرى فى الأدب والنقد والشعر وقد جعل الخوارزمى من جهلها ليس بمعدود من بين الشعراء .

ولا تتسع هذه الدراسة لعرض الهاشميات وتحليلها ونقدها ، وموعدنا فى ذلك إلى دراسة أخرى إن شاء الله .

وسمة الهاشميات الواضحة هى تمجيد آل البيت وذكر المظالم التى لحقت بهم فى عصر آل أمية والدفاع عنهم ، وذكر فضائلهم ، ومثالب خصومهم .

مصادر لدراسة الكميت

وقد تحدث عن الكميت كثير من الأدباء والنقاد منهم أبو الفرج الاصفهانى فى كتابه « الأغانى »( ) ، وابن قتيبة فى كتاب « الشعر والشعراء » ، وصاحب خزانة الأدب(٢) ، وصاحب الجمهرة(٣) . وللأستاذ الصعيدى كتاب « الكميت شاعر العصر المروانى » ، وقد نشر قصائده الهاشميات فى هذا الكتاب . ونشرها كذلك الأستاذ محمد شاكر الخياط ، والمستشرق هوروفتس .

وتحدث عن الهاشميات، شوقى ضيف فى كتابه « التطور والتجديد فى الشعر الأموى(٤) » .

وقد درس الأستاذ عبد الحسيب طه الأستاذ فى كلية اللغة العربية الكميت وشاعريته وشعره فى كتابه « أدب الشيعة » دراسة واسعة قيمة خصبة(٥) . .

وقد ترجم له محمد عبد المنعم خفاجى فى الجزء الثانى من كتابه « أعلام الأدب فى عصر بنى أمية » ، وكثيرون من مؤرخى الأدب فى هذا العصر : كالزيات ، ومحمود مصطفى ، وأصحاب الوسيط ، والمفصل ، وغيرهؤلاء .

---

(١) جـ ١٥ صـ ١١٣ . (٢) جـ ١ صـ ٦٩ . (٣) صـ ١٨٧ .

(٤) صـ ٢٣٣ ـ وما بعدها من المرجع المذكور .

(٥) راجع صـ ٢١١ ومابعدها من المرجع المذكور ـ طبعه ١٩٥٦ بمطبعة السعادة بمصر .

الجاحظ شيخ الأدب العربى

١٥٨ - ٢٥٥ هـ

(١)

عاش الجاحظ فى العصر العباسى الأول (١٣٢ — ٢٤٧ هـ) وأدرك سنوات من أوائل العصر العباسى الثانى ، والجاحظ هو عمرو بن بحر بن محبوب الكنانى ، ولقب بالجاحظ لجحوظ عينيه .

وقد نشأ بالبصرة فقيرا حائرا ، يعيش بكده وسعيه ، حتى لقد روى أنه كان يبيع الخبز والسمك بسيحان(١) ، ثم انصرف إلى العلم والأدب يطلبهما فى البصرة وبغداد ، يتلقف الفصاحة من العرب شفاها بالمربد ، ويسمع من الأصمعى وأبى زيد الأنصارى وأبى عبيدة ، ويأخذ النحو عن أبى الحسن الأخفش صديقه ، ويأخذ الكلام عن النظام . هذا مع إدمانه المطالعة ، حتى قيل إنه ما وقع بيده كتاب إلا استوفى قراءته ، وكان يكترى دكاكين الوراقين ليبيت فيها للمطالعة . وكذلك انقطع للعلم والتأليف حتى أصبح علما ذائع الشهرة فى هذا المجال ، وأقبل الناس على كتبه ، وعدوا التلمذة عليه شرفا ، ويصور ذلك ما روى عن سلام بن زيد أحد علماء الأندلس ، قال : « كان طالب العلم بالمشرق يشرف عند ملوكنا بلقاء الجاحظ ، فخرجت لا أعرج على شىء حتى قصدته وأقمت عليه عشرين سنة .

وقد انفرد الجاحظ بآراء فى التوحيد صارت مذهبا من مذاهب المعتزلة وألحقه المأمون بديوان الرسائل ولكنه استقال منه بعد ثلاثة أيام .

وقد اتصل الجاحظ بمحمد بن عبد الملك الزيات وزير المعتصم والواثق وأهدى إليه كتابه « الحيوان » ، ولما قتل ابن عبد الملك فى بدء خلافة

---

(١) هو نهر بالبصرة .

المتوكل هرب الجاحظ ثم قبض عليه ، وجيء به مقيدا إلى القاضي احمد بن أبي دؤاد بعد قتل ابن الزيات فلما نظر إليه قال : والله ما علمتك إلا متناسيا للنعمة ، كفورا للصنيعة معدنا للمساوىء . فقال له الجاحظ : خفض عليك أيدك الله ، فوالله لأن يكون لك الأمر عليّ خـير من أن يكون لي عليك ، ولأن أسيء وتحسن أحسن من أن أحسن فتسيء ، وأن تعفو عني في حال قدرتك أجمل من الانتقام مني . فقال له ابن أبي دؤاد : قبحك الله ماعلمتك الا كثير تزويق الكلام ، ثم قال جيئوا بحداد ، فقال اعز الله القاضي ، ليفك عني أو ليزيدني؟ فقال بل ليفك عنك ، فجيء بالحداد فغمزه بعض أهل المجلس أن يعنف بساق الجاحظ ، ويطيل أمره قليلا ، فلطمه الجاحظ وقال : اعمل عمل شهر في يوم وعمل يوم في ساعة وعمل ساعة في لحظة ، فإن الضرر على ساقي وليس بجذع ولاساجة(١) ، فضحك ابن أبي دؤاد وأهل المجلس منه ، وقال ابن أبي دؤاد لبعض الحاضرين : أنا أثق بظرفه ولا أثق بدينه ، ثم قال ياغلام سر به إلى الحمام وأمط عنه الأذى ، واحمل إليه تخت ثياب وطويلة وخفا ، فلبس ذلك ثم أتاه فتصدر في مجلسه ، ثم أقبل عليه وقال هات الآن حديثك يا أبا عثمان . واصطلحت الحال بينهما ، وأهدى إليه الجاحظ كتاب « البيان والتبيين » .

واتصل الجاحظ أيضا بالفتح بن خاقان وسافر معه إلى دمشق ووصف مسجدها في كتابه (البلدان) ، كما أنه دخل انطاكية .

وهكذا قضى الجاحظ أيامـه في العلم والأدب والتصنيف حتى أصيب بالفالج في أعقاب عمره وكان ذلك في أواخر خلافة المتوكل ، قيل إن المتوكل وجه من يحمل الجاحظ إليه من البصرة ، فقال لمن أراد حمله : وما يصنع أمير المؤمنين بامرىء ليس بطائل ، ذي شق مائل ، وعقل حائل .

وظل كذلك حتى توفي في آخره خلافة المعتز وذلك عام ٢٥٥ هـ . وقد

---

(١) الساجة : شجرة عظيمة خشبها صلب .

كان شعار الجاحظ فى طلب العلم قوله : «إذا سمعت الرجل يقول ماترك الأول للآخر شيئا فأعلم أنه ما يريد أن يفلح» ، وقوله أيضا : وكلام كثير قد جرى على ألسنة الناس وله مضرة شديدة وثمرة مرة ، فمن أضر ذلك قولهم لم يدع الأول للآخر شيئا ، فلو أن علماء كل عصر مذ جرت هذه الكلمة فى اسماعهم تركوا الاستنباط لما لم ينته إليهم عمن قبلهم لرأيت العلم مختلا » .

على هذه الطريقة طلب الجاحظ العلم فاطلع على علوم المتقدمين والمتأخرين واستنبط واجتهد وانتقد وزاد وألف فى الأدب والعلم والدين ، وكان إماماً فى كل منها .

(٢)

ويقول المرزبانى فيه رواية عن أبى بكر أحمد بن على : كان أبو عثمان الجاحظ من أصحاب النظام وكان واسع العلم بالكلام كثير التبحر فيه شديد الضبط لحدوده ومن أعلم الناس به وبغيره من علوم الدين والدنيا وله كتب كثيرة مشهورة جليلة فى نصرة الدين وفى حكاية مذهب المخالفين ، والآداب والاخلاق ، وفى ضروب من الجد والهزل وقد تداولها الناس وقرأوها وعرفوا فضلها وإذا تدبر العاقل المميز أمر كتبه علم أنه ليس فى تلقيح العقول وشحذ الأذهان ومعرفة أصول الكلام وجواهره وإيصال خلاف الإسلام ومذاهب الاعتزال إلى القلوب كتب تشبهها . والجاحظ عظيم القـــدرة فى المعتزلة وغير المعتزلة من العلماء الذين يعرفون الرجال ويميزون الأمور .

وقال ثابت بن قرة : ما أحسد هـذه الأمة العربية إلا على ثلاثة : أولهم عمر بن الخطاب فى سياسته ويقظته ، والثانى الحسن البصرى فلقد كان من دراري النجوم علما وتقوى ، والثالث أبو عثمان الجاحظ خطيب المسلمين ، وشيخ المتكلمين ، ومدره المتقدمين والمتأخرين ، إن تكلم حكى سبحان البلاغة ، وإن ناظر ضارع النظام فى الجدل ، وإن جد خرج فى مسك عامر ابن عبد قيس ، وإن هزل زاد على مزبد ؛ حبيب القلوب ، ومراح الأرواح ،

وشيخ الأدب ولسان العرب ، كتبه رياض زاهرة ، ورسائله أفنان مثمرة ، الخلفاء تعرفه ، والأمراء تصفه وتنادمه ، والعلماء تأخذ عنه ، والخاصة تسلم له ، والعامة تحبه ، جمع بين اللسان والقلم ، وبين الفطنة والعلم ، وبين الرأى والأدب ، وبين النثر والنظم ، والذكاء والفهم ، طال عمره وفشت حكمته وظهرت خلته ووطىء الرجال عقبه ، وتهادوا أربه ، وافتخروا بالانتساب إليه ، ونجحوا بالاقتداء به ، لقد أوتى الحكمة وفصل الخطاب .

ويقول فيه ابن العميد : ثلاثة علوم الناس كلها عيال فيها على ثلاثة ، أما الفقه فعلى أبى حنيفة ، وأما الكلام فعلى أبى الهذيل ، وأما البلاغة والفصاحة واللسن والعارضة فعلى أبى عثمان الجاحظ .

ولقد ألف أبو حيان التوحيدى كتاباً فى تقريظ الجاحظ . وقيل لأبى هفان : لم لا تهجو الجاحظ وقد ندد بك وأخذ بمخنقك ؟ فقال أمثلى يخدع عن عقله ؟ والله لو وضع رسالة فى أرنبة انفى لما أمست إلا بالصين شهرة ، ولو قلت فيه ألف بيت لما طن منها بيت فى ألف سنة .

وقد كان الجاحظ أستاذ الثقافة الإسلامية ، فى النصف الأول من القرن الثالث ، وكان مجده الأدبى الذائع يعصف بمجد كل أديب ، ويدوى فى كل أفق ، ويرن صداه فى سمع كل كاتب وشاعر وخطيب .

وقد عاش الناس فى عصره وبعد عصره عيالا عليه فى البلاغة والفصاحة واللسن والعارضة ، كما يقول ابن العميد ، وعدوا التلمذة عليه شرفا لا يعدله شرف ، ومجداً يدنيهم من بلاط الملوك ، وتعصب له كثير من رجالات الثقافة الإسلامية فى شتى عصورها ، فألفوا الكتب فى الإشادة به — كما فعل أبو حيان التوحيدى فى كتابه تقريظ الجاحظ — وبالغوا فى الإشادة به والثناء عليه حتى حسد ثابت بن قرة الأمة العربية عليه ، وحتى كان الخلفاء يهشون عند ذكره ، ونهج كبار الكتاب نهجه فى الثقافة والأدب والبيان ،

وكان فخر الرجل فى أن يلقب بلقبه ، وأقبلوا على كتبه وأدبه يتثقفون بثقافتها ، ويرونها تعلم العقل أولا والأدب ثانيا ، وبلغ من اهتمام خاصة رجال الفكر الإسلامى بها أن كانوا يسألون الناس عن المفقود منها فى البيت الحرام وعرفات ، وكان معاصروه يحذرون خصومته حتى لا يسمهم بميسم الخزى والهوان إلى الأبد ، ومن ساء جده منهم فكان هدفا لسخريته اللاذعة سار على الأجيال صورة مشوهة وإساءة لا يغفرها الزمن ، كما فعل الجاحظ مع أحمد بن عبد الوهاب بطل رسالته الساخرة المتهكمة « التربيع والتدوير » وحسبك أن المأمون كان يقرأ تآليف الجاحظ ويثنى عليها ويستجيدها[1] .

(٣)

ومجد الجاحظ الأدبى مجد خالص من شوائب العصبية وتمويه السياسة وهو مجد بوأه صرحه الخالد كفايته الممتازة وثقافته النادرة وآثاره الفكرية والأدبية الممتعة ، فقد عاش الجاحظ محروما من كل شىء إلا من مجد الأدب وشهرة العلم . ولم تبوئه مواهبه مقاعد الوزارة التى كان يصعد إليها فى عهده كثير من الكتاب ، ولم تنله كفايته الأدبية منزلة فى ديوان رسائل الدولة ، ولما صدر فيه أيام المأمون لم يبق فيه غير ثلاثة أيام استقال بعدها منه ، لتعرضه لخصومات كثيرة حذراً من أن يأفل به نجم الكتاب كما كان يرى سهل بن هارون ، وهذا الإخفاق فى الحياة العامة الذى منى به الجاحظ فى عصره كان مما نعاه ابن شهيد عليه فى رسالته « الزوابع والتوابع » ، ومما جعله يخطىء من يذهب إلى تقديم الجاحظ على سهل بن هرون ، وإن كان تحكيم التوفيق فى الحياة فى وزن الشخصيات وتقديرها ضلالا وغبنا .

ولكن ماسر هذا الإخفاق مع هذه الشهرة البعيدة والمجد الذائع ؟ رأى ابن شهيد من قبل أن حرمان الجاحظ من شرف المنزلة بشرف الصنعة مع تقدم ابن الزيات وابراهيم بن العباس إما لأنه كان مقصراً فى الكتاب وجمع أدواتها أو لأنه كان ساقط الهمة أو لأن دمامته وإفراط جحوظ عينيه ؛ ١١٠ به

---

(١) ٢١١ جـ ٢ البيان للجاحظ تبشر السندوبى — ط ١٩٢٧ .

عن الغايات المنشودة ، ورأى ان نقص أدوات الكتابة عند الجاحظ شيء قد يكون غريبا ولذلك أخذ يذهب إلى أن أول أدوات الكتابة العقل ، وقد تجد عالما غير عاقل .

أما أن الجاحظ ينقصه أداة — أياكانت هذه الأداة — من أدوات الكتابة فذلك ما ترده الحقيقة المقررة ، فعقل الجاحظ وفنه الأدبى وطبعه الموهوب أعظم من أن يتطرق إليه فيها شك وريب . وأما أن الجاحظ كان قريب الأمل غير بعيد الطموح لايتطلع إلى مجد ينشده أو جاه سلطان يناله ، فذلك بعيد عن الجاحظ وحياته وروحه الوثاب الطموح . وأما أن دمامة الجاحظ كان لها أثر فى هذا الاخفاق فذلك أحد ما نراه من أسبابه الكثيرة حتى إنه ذكر للمتوكل لتأديب بعض ولده فلما رآه واستبشع منظره صرفه وأمر له بعشرة آلاف درهم .

الحق أن الجاحظ كان عربيا فى روحه ودمه وحياته ، وكان يتعصب للعرب فى كل شيء حتى فى الثقافة والأدب فى عصر كان النفوذ والسلطان فى الدولة فيه للعناصر الأجنبية لاسيما الفرس ، وكثيرا ما كان ينسى أولو الثقافة والكفايات من العرب إلا من اتصل منهم بحبل وزير أو أمير ، والجاحظ مع صداقته الوثيقة لمحمد بن عبدالملك الزيات (المتوفى سنة ٢٣٣ هـ) والذى أهدى له كتاب « الحيوان » وكافأه عليه بخمسة آلاف دينار ، كان يتخلل هذه الصداقة الشك والجفاء ، ولم يستطع أو لم يتسنّ له ، أن يستفيد شيئا من وراء هذه الصداقة ، وقتل محمد بن عبد الملك وجاء بعده عدوه اللدود أحمد بن أبى دؤاد الذى سيق إليه الجاحظ مغلولا لأنه كان من أصحاب محمد بن عبد الملك ، ثم فك قيوده وطلب حديثه وبيانه وثوقا منه بظرفه وأدبه لا بإخلاصه وولائه .

ثم لاننس أن مواهب الجاحظ مواهب عالم وأديب لا مواهب رجل من رجال المجتمع والسياسة والحياة العامة ، وقد رفعته مواهبه العقلية والعلمية والأدبية مكانا عليا ما كان ينتظر أن ترفعه إليه السياسة مهما حلق فى أجوائها ،

وكان إخلاص الجاحظ للفكر والثقافة أعظم من إخلاصه للحياة نفسها ، وكان خوضه فى معامع الثقافة والعلم يشغله عن الخوض فى ميادين السياسة والاجتماع ، وكانت لذته فى الدراسة والبحث والتأليف أكثر من لذته فى مجد السياسة وسلطانها ، فالجاحظ أولا وقبل كل شىء هو رجل الثقافة والأدب ، وهو المعتزلى الذى تتلمذ على النظام ثم عاف تقليد غيره فى العقيدة فكان صاحب مذهب ورئيس فرقة من فرق المعتزليين ، وهو المتكلم الساحر والكاتب البليغ والخطيب المفوه والعالم الفذ والمؤلف النابه وشيخ العربية الذى وعى الثقافة العربية وماخالطها من الثقافات فى شتى علوم الدين والدنيا ، وهضمها وعاصرها زهاء قرن (١٥٨ — ٢٥٥ ﻫ) ، وكان له فى صدر شبابه نخر التلمذة على شيوخها فى اللغة والأدب وفى علوم الدين والكلام وفى التفكير والمنطق ، كما كان له نخر صداقة رجال الفكر والسياسة فى الدولة ، وقد استفاد من وراء هذا وذاك نضوجا كبيرا فى عقليته وثقافته هيأه لأن يكون محور الثقافة الإسلامية فى عصره لا بطلا من أبطال السياسة والدولة والاجتماع .

(٤)

وثقافة الجاحظ ثقافة واسعة منوعة تحيط بسائر ألوان الثقافات المختلفة التى مازجت الثقافة الإسلامية فى عصره ، فهو عالم من علماء الدين ، ومتكلم من الطراز الأول للمتكلمين وعالم يحيط باللغة وبيانها وآدابها إحاطة لاتقف عند غاية ، وقد خاض الجاحظ فى جداول الثقافات الأخرى التى سرت فى تيار الثقافة العربية منذ مشرق القرن الثانى الهجرى ؛ وعقلية الجاحظ البعيدة التفكير لانشك فى أنها أفادت ذلك من أستاذه النظام ومن علوم الفلسفة والمنطق التى شاعت فى البيئة الإسلامية فى عصر الجاحظ ، ولا شك أن عصر الجاحظ ، وعقليته ، وشغفه بالدراسة والبحث ، وعكوفه على القراءة ، ونشأته بالبصرة ، وتلقيه اللغة عن الأعراب فى المربد والعلماء فى حلقات البصرة ومجامعها العلمية ، وتلمذته على كثير من أساتذة الثقافة العربية فى شتى

مناحيها كأبى يوسف القاضى والنظام والأصمعى والأخفش وابن الأعرابى وأبى عبيدة وأبى زيد الأنصارى ، كان له أثره فى ثقافة الجاحظ الواسعة الجوانب المتعددة الألوان .

وقد اتصل الجاحظ باليونان وثقافتهم من كتبهم المترجمة وعن طريق المتكلمين وبمجالسته لكثير من المثقفين باليونانية(١) ، كما أنه حذق الثقافة الفارسية من كتب ابن المقفع وسواه ، وتوسع فى الثقافات كلها بما كان يقرؤه من الكتب(٢) وتأثر بخطابة أرسطو إلى حد ما ، ومن المشابهة بينه وبين أصحاب الخطابة فى الأسلوب استعماله القياس القياس المضمر (المذهب الكلامى عندالبديعيين(٣)) ، ونقد الجاحظ التراجم والمترجمين من اليونانية وخاصة كتاب المنطق الذى ذكر أنه خرج فى أسلوب سقيم ، فالجاحظ فيما يبدو قد تأثر « بالخطابة » لأرسطو (٤) ، وذلك ما أراه ، وأنكر باحث آخر أن يكون كتاب البيان متأثرا بخطابة أرسطو أو صدى له لأن الجاحظ لم يره (٥) . وذلك ما يؤيده الدكتور طه حسين(٦) .

ومن البدهى أن الجاحظ ألم بالثقافة الفارسية المترجمة إلماما واسعا ، ويبدو لى أنه كان يعرف اللغة الفارسية ، ففى البخلاء يحكى الجاحظ كلام بخيل من أهل مرو تجاهل رجلا زاره من أهل العراق : لو خرجت من

---

(١) ٤٠١ جـ ١ ضحى الاسلام (٢) ٣٨٧ جـ ١ المرجع

(٣) ٦٢٠ و ٦٢١ الرسالة عدد ١٩٦ من محاضرة للأستاذ حمودة فى أسبوع الجاحظ ، وإذا كان الجاحظ ينكر أن يكون لليونانيين خطابة (١٥ جـ ٣ البيان) فليس ذلك إلا فى مقام الرد على الشعوبيين ويحتمل أن يكون الجاحظ لم يطلع على نصوص خطابية لليونان .

(٥) راجع ٦٢٢ المرجع السابق .

(٤) راجع ٦٢١ الرسالة عدد ١٩٦

(٦) صـ ٣ مقدمة نقد النثر

جلدك ، لم أعرفك قال الجاحظ : وترجمة هذا الكلام بالفارسية «كراز بوستت بارون بيائى نشناسيم(١) .

وأثر ثقافته الفارسية واضح فى كتبه وفى « مؤلفه البيان » أما أثر ثقافته اليونانية فواضح أيضا فى الحيوان وفى كتابه البيان ، قرأ الجاحظ من كتب أرسطو المترجمة كتاب الحيوان واستدل برأى لأرسطو فيه(٢) وكان مصدرا كبيرا له فى كتابه « الحيوان » ، والجاحظ يذكر تعريف صاحب المنطق للإنسان كثيراً(٣) ، ويذكر صاحب المنطق وأنه كان بكيء اللسان مع علمه بتمييز الكلام وتفضيله ومعانيه وبخصائصه(٤) ، ويذكر تعاريف البلاغة عند الأمم المختلفة ومنها اليونان(٥) ويذكر كتب اليونان فى المنطق وأن الحكماء جعلتها معيارا للتفكير(٦) ، ويذكر نوادر ريسموس اليونانى(٧) ويرى أن لليونان فلسفة وصناعة منطق وليس لفلاسفتهم فى الخطابة ذكر(٨) ، وأقسام الدلالة عند الجاحظ(٩) هى من تفكير أرسطو ، ويذكر أن للفرس رسائلها وخطبها وألفاظها ومعانيها ولليونان رسائلها وخطبها وعللها وحكمها وكتبها فى المنطق وللهند حكمها وسيرها وعللها ويرى أنها لاتوازن بما للعرب من بيان وبلاغة وصناعة وخطابة(١٠) ، وللجاحظ رسالة فى نقد الكندى(١١) .

---

(١) ص ١٩ البخلاء ، ١٩ الجاحظ لمردم بك

(٢) ٦١ ج ١ البيان (٣) ٦٩ و ١٢٨ ج ١ البيان .

(٤) ١٥ ج ٣ البيان (٥) ٧٥ ج ١ البيان

(٦) ٧ ج ٣ البيان (٧) ١٦٥ ج ٢ البيان

(٨) ١٥ ج ٣ البيان ، والظاهر أن الجاحظ لم يطلع على شىء من خطاباتهم

(٩) ٦٩ ج ١ البيان ، وهى فى ٤٠ الرسالة العذراء ، ٩ نقد النثر

(١٠) ٧ ج ٣ البيان (١١) ٤٢ الجاحظ لمردم بك

ويذكر الجاحظ فى البيان «صناعة الكلام» ويعنى بها حينا علم الكلام(١)، وحينا آخر البيان(٢)، ويذكر اصطلاحات أخرى كصناعة المنطق(٣) وصناعة الخطابة ويذكر أحيانا «أصحاب الخطابة والبلاغة(٤)».

ومهما يكن فالجاحظ فيما ذكره من أصول البلاغة العربية قريب من روح أرسطو، فدعوته إلى ترك الوحشى والسوقى(٥) له نظير عند أرسطو الذى دعا إلى «هجر الألفاظ الخسيسة التى لا يستعملها إلا العامة(٦)»، وقال: ينبغى ألا تكون الألفاظ سفسافة ولا مجاوزة الحد فى المتانة مبلغ الأمر الذى يدل عليه فلا تبلغ درجة العامية ولا تحوج إلى الكلفة المشنوءة»، ودعوة الجاحظ إلى الوضوح(٧) لها نظير عند أرسطو حيث يذكر «حسن الدلالة ووضوح العبارة وأن الإغراب مستكره وأنه يجب ألا تمعن فى الاغرابات بل يجب أن تكون العبارة بحيث يفهمها الأماثل دون أسقاط الجمهور»، واللحن وخروجه عن حد البلاغة(٨) موجود فى خطابة أرسطو حيث يوجب أن «يكون اللفظ فصيحا لا لحن فيه»، ويذكر الجاحظ استعمال المبسوط فى مواضعه والمقصور (المحذوف الموجز) فى مواضعه(٩)

---

(١) ٦٩ ج ١ البيان

(٢) ١٠٨ ج ١ البيان . ويشيد الجاحظ بصناعة الكلام (٣ ج ٤ زهر)

(٣) ٧٩ ج ١ البيان (٤) ١٨٣ ج ١ البيان

(٥) ١٠٥ و ١١٠ و ١٧٦ ج ١ البيان

(٦) راجع الشفاء لابن سينا، وكل النصوص المنقولة هنا عن أرسطو فهى منقولة من الشفاء .

(٧) ٦٨ و ١١٠ و ١٧٦ ج ١ البيان (٨) ١٢١ ج ١ البيان

(٩) ٥١ ج ١ البيان ، ويشير إلى ذلك فى مواضع أخرى من كتابه (١٤١ و ١٤٧ و ١٦١ و ١٨٠ ج ١ البيان)

والايجاز يوم الإيجاز والاطناب يوم الاطناب(١) ، وأرسطو أول من أشار إلى ذلك كله فذكر الايجاز والإسهاب وأشار إلى أن لكل منهما مقاما . وعلى أى حال فمرجع هذا التشابه فى الأفكار أرجحه أن سببه نقل الجاحظ كثيرا عن الذين ألموا بثقافة اليونان وكتب أرسطو فى النقد وعلى الأخص الخطابة والشعر .

ومع ذلك فالجاحظ يجهل كثيراً من النظريات التى شرحها أرسطو فى كتابيه ، فأنواع البيان والأساليب البلاغية الأنيقة التى ألم بها أرسطو(٢) لايشير إليها الجاحظ فى بيانه ، وهو على العموم لم يطلع على نفس كتابى أرسطو ، وإنما أرجح إطلاعه على ترجمات لكثير من آرائه فى الكتابين ولا نشك فى أنه أفاد من أستاذه النظام ومن علوم الفلسفة والمنطق التى شاعت فى عصره كثيرا ، ونقل عمن اطلعوا على خطابة أرسطو .

(٥)

وللجاحظ فى البيان العربى آثار كثيرة : كرسالته فى تفضيل النطق على الصمت(٣) ، وكتابه البيان والتبيين .

والبيان ، أول كتاب ظهر فى الأدب جامعا لفنون كثيرة من ضروبه(٤) ،

---

(١) ١٢٠ رسائل الجاحظ ، وتبعه ابن قتيبة فذكر أن للايجاز مواضعه وللاطالة مواضعها (مقدمة أدب الكاتب)

(٢) كدراسته للاستعارة ، وللرباطات (حروف العطف) وأنها تجعل الكلام الكثير كالواحد ، وللجناس وسواه ، ونظرية أرسطو فى الوصل وهى التى يفيض عبدالقاهر فى شرحها فى الدلائل ، ونصيب فى نقده للكميت فى قوله وتكامل فيها الأنس والشنب ، لأن الشاعر باعد فى القول (١٣٤ ج ١ الأغانى ، ٣٣٥ ج ١ الكامل) ليس أمامنا مايدل على معرفة الجاحظ بأسرار هذه الدراسات البيانية .

(٣) تجدها فى (١٤٨ — ١٥٤ — رسائل الجاحظ)

(٤) ٨٠ العصر العباسى للاسكندرى

ويشيد به أبو هلال[١] ، ويعده ابن خلدون من أركان الأدب[٢] ، والكتاب يبحث فى فنون الأدب والبلاغة ويتناول النقد واللغة ويأتى على ذكر الخطباء والأدباء والشعراء والمنشئين وآثارهم الأدبية وهو من أجل وثائق الأدب فى الجاهلية والإسلام ، ويذكر ابن رشيق أنه لا يبلغ جودة وفضلا[٣] ، ويذكر أبو أحمد العسكرى مثلا من تصحيف الجاحظ فيه[٤] ، وينقد ابن شهيد الكتاب[٥] ، ورد عليه بعض المعاصرين[٦] . والكتاب يجمع بين دفتيه الكثير من بلاغة العرب وسحرهم فى البيان ، كما يجمع آراء كثيرة فى أصول النقد الأدبى وقوانين البلاغة العربية وأنواعها وعناصرها ومذاهبها واتجاهاتها وأثرها ، سواء كانت هذه الآراء من جمع الجاحظ وروايته أم من رأيه وتفكيره ، وحسبك أن تقرأ فيه البلاغة كما تتحدث عنها صحيفة هندية مكتوبة[٧] ، أو كما يصورها بشر بن المعتمر[٨] ، أو كما يراها ابن المقفع[٩] . ولهذه النصوص قيمة كبيرة ، وقد عد بعض الباحثين الجاحظ مؤسس البيان العربى لما جمعه من النصوص التى توضح لنا كيف كان العرب إلى منتصف القرن الثالث يتصورون البيان العربى وتعطينا صورة مجملة لنشأته[١٠] .

وفى الكتاب كثير من بحوث البلاغة ، فهو يعرف الاستعارة[١١] ، ويتكلم على السجع[١٢] ، ويشير إلى التفصيل والتقسيم[١٣] ، والاستطراد ،

---

(١) ٦ و ٧ الصناعتين

(٢) ٥٥٣ مقدمة ابن خلدون

(٣) ٢٢٧ ج ١ العمدة

(٤) ٥٣ و ٥٤ التصحيف والتحريف

(٥) ١٩٨ ج ١ ذخيرة

(٦) ٥٠ ج ٢ النثر الفنى

(٧) ٧٩ ج ١ البيان

(٨) ١٠٤ ج ١ وما بعدها البيان

(٩) ٩١ ج ١ البيان

(١٠) ٣ مقدمة نقد النثر

(١١) ١١٦ ج ١ البيان .

(١٢) ١٩٤ ج ١ البيان

(١٣) ١٧٠ ج ١ و ٩١ ج ٢ البيان ، وهو باب من أبواب البديع عند كثير من علماء البلاغة ، راجع ٧٨ نقد الشعر ، ٣٣٢ صناعتين .

والكناية(١) ، والأمثال(٢) ، والاحتراس(٣) والقلب(٤) ، والأسلوب الحكيم(٥) ، والجاحظ فوق ذلك هو أول من لقب المذهب الكلامى بهذا الاصطلاح(٦) ويرى الجاحظ أن البلاغة فى النظم لا فى المعانى قال : والمعانى مطروحة فى الطريق يعرفها العجمى والعربى والبدوى والقروى ، وإنما الشأن فى إقامة الوزن وتخير اللفظ وسهولة المخرج وفى صحة الطبع وجودة السبك(٧) وهو ما ذهب إليه ابن خلدون(٨) ، ويقول شيلر : فى الفن الشكل هو كل شىء ، والمعنى ليس شيئاً مذكوراً(٩) ، وفى البيان نصوص كثيرة استغلها علماء البيان والبديع فى اختيار شواهد أساليب البلاغة منها ، مما لا داعى إلى ذكره هنا خوفا من كثرة الاسهاب ، والجاحظ يشيد بالإيجاز ويدعو إليه كثيراً فى بيانه(١٠) ، وفى الحديث عن رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إذا قلت فأوجز وإذا بلغت حاجتك فلا تتكلف(١١) » ويحث على ترك الوحشى والسوقى وعلى الإفهام والوضوح ، وعلى ترك التعمق والتهذيب فى صناعة الكلام ، وعلى أى حال فالبيان والتبيين أثر أدبى وعلمى نفيس ، والجاحظ يده على البيان العربى لا تجحد ، ويعده ابن خلدون من السابقين فى التأليف فيه(١٢) .

---

(١) ١٨٠ جـ ١ و ١ و ٢٩ و ٣١ و ٨٥ جـ ٣ البيان
(٢) ٨٦ و ٨٨ و ١١٤ و ١٨٣ جـ ١ و ٢٢٤ جـ ٢ البيان
(٣) ١٦١ جـ ١ وما بعدها البيان (٤) ١٨٠ جـ ١ البيان
(٥) ٢٠١ و ٢٠٢ جـ ٢ البيان ، ويقرب من الأسلوب الحكيم ما يسميه الجاحظ « اللغز فى الجواب » (١١٦ جـ ٢ البيان)
(٦) ١٠١ البديع ، ٧٦ جـ ٢ العمدة (٧) ٤٠ جـ ٣ الحيوان
(٨) ٥٧٧ مقدمة ابن خلدون (٩) ١٠٥ مملكة الجمال
(١٠) ٨٠ و ٨٦ و ١١٤ و ١٥٢ و ١٨٧ و ١٩٨ جـ ٢ البيان
(١١) ٥ جـ ١ الكامل للمبرد (١٢) ٥٥٢ مقدمة ابن خلدون

ولا يضير الجاحظ أن كانت دراساته موجزة مفرقة كما يقول أبو هلال(١)، فهي على كل حال ذات أثر كبير في نشأة البيان وهي التي أوحت إلى كثير أن يعدوا الجاحظ الواضع الأول لعلم البيان(٢)، ومن الخطأ التهوين بأثر الجاحظ في البيان كما ذهب إليه بعض الباحثين .

وكتاب « البيان » يجمع بين دفتيه الكثير من بلاغة العرب وسحرهم في البيان كما يجمع آراء كثيرة في أصول النقد الأدبي وقوانين البلاغة العربية ، وقد نهج فيه الجاحظ منهجه الساحر ، وكتبه بأسلوبه العميق المحكم ، ورسم فيه صوراً صادقة لروح الأدب والبلاغة إلى عهده . والكتاب سجل للأدباء والشعراء والخطباء حتى عصر الجاحظ ، وهو ذو قيمة فذة في تاريخ الأدب والأدباء لاسيما المعاصرين للجاحظ ومن سبقوه بقليل، وقد عني فيه الجاحظ بتدوين المثل الساحرة من الأدب العربي : شعره ونثره ، وقاده الاستطراد إلى الإلمام بكثير من مسائل الأدب والنقد والبيان .

والكتاب ثمرة من ثمرات الرجولة المكتملة التي أحاطت بالجاحظ بعد أن ودع شبابه واستقبل عهد المشيب ، وهو لذلك آية من آيات الطبع المتمكن والذوق السليم والإحاطة التامة بالبيان وبلاغته ، وليس ذلك بكثير على الجاحظ شيخ العربية وبطلها .

وهو أصل من أصول الأدب ، وهو في أسلوبه وفي نهجه وفي رواياته وفي آرائه الأدبية خير معين لطلاب العربية والمتخصصين في آدابها .

وقيمته في البيان العربي خطيرة لما أودع فيه من شتى البحوث والآراء في البلاغة وعناصرها واتجاهاتها ومذاهبها وألوانها وغاياتها وأثرها، سواء

---

(١) ص ٦ و ٧ الصناعتين .

(٢) ومن هؤلاء طه حسين الذي يرى أن الجاحظ هو أول من اهتم بالبلاغة وأول مؤسس للبيان العربي حقا (راجع ص ٢ و ٣٠ و ٣١ مقدمة نقد النثر بقلم طه حسين) .

كانت هذه الآراء من جمع الجاحظ وروايته وتدوينه أم من ابتكاره ورأيه الشخصي واتجاهه الأدبي المستقل ، وفيما جمعه الجاحظ من ذلك الكثير مما لا يزال محل إعجاب الباحثين وتقديرهم ، وكفى أن تقرأ فيه : البلاغة كما تتحدث عنها صحيفة هندية مكتوبة ، أو كما رآها ابن المقفع أو كما تحدث عنها بشر بن المعتمر في صحيفة من تحبيره وتنميقه إلى غير ذلك من شتى الاراء التي كتبها الجاحظ مستقلا بالتفكير فيها .

وإذا كان للجاحظ فخر التلمذة والرواية — في كتابه — عن شيوخ العربية وادبائها كالأصمعي وأبي عبيدة وابن الأعرابي وابن سلام وابن العاصي وكإبراهيم بن السندي وعبد الكريم بن روح الغفاري ومحمد بن بشير الشاعر وكثمامة والنظام ، وسوى هؤلاء وهؤلاء فيجب أن لا ننسى أنه قد كان لعلماء الأدب والبيان الذين جاءوا بعد عصر الجاحظ هذا الفخر نفسه بالتلمذة عليه وعلى كتابه « البيـــان » : كابن قتيبة وقدامة وأبي هلال والقاضي الجرجاني وعبد القاهر الجرجاني وسواهم .

ولقد خدم الجاحظ البيان العربي في كتبه عامة ، وكتابه البيان والتبيين خاصة ، فهو أظهر من أفرده بالتأليف وأسبقهم ، فوق ماجمع من مختلف الآراء والمذاهب فيه ، والجمع والإحصاء أول خطوات البحث والابتكار والتجديد ، ومنزلة العالم في الجمع لا يمكن الغض منها أو الاستهانة بها ، وإذا قرأت كتب الجاحظ لا سيما « الحيوان » و « البيان » عرفت منزلة الجاحظ في هذا السبيل .

والجاحظ فوق أثره الكبير في جمع آراء رجال البيان والبلاغة في مذاهبهما وعناصرهما في كتابه « البيان » على الخصوص ، له وراء ذلك فضل خاص وجهد مستقل فيه ، فقد استقل ببحوث جديدة صبغها بشخصيته واستمدها من عقليته وثقافته . وعرفت له وحده دون سواه من الباحثين في البيان العربي وقواعده .

(٦)

ولقد عاش الجاحظ فى عصر ازدهر فيه الأدب ودراساته ، وحمل لواءه طوائف عدة :

١ — طبقة رواة الأدب العربى من البصريين والكوفيين والبغداديين ، الذين كانوا يروونه إشباعا لنهم قرائهم وأذواقهم الأدبية العربية الخالصة ، من أمثال : خلف والأصمعى وأبى عبيدة وأبى زيد ويحيى بن نجيم وعمرو بن كركرة وابن سلام ، وأستاذهم أبو عمرو بن العلاء أعلم الناس بالعرب والعربية(١) ومن عامة رواة الأدب والبيان الذين لا يقفون إلا على الألفاظ المتخيرة والمعانى المنتخبة ، وعلى الألفاظ العذبة والمخارج السهلة والديباجة الكريمة ، وعلى الطبع المتمكن والسبك الجيد ، وعلى كل كلام له ماء ورونق ، وعلى المعانى التى إذا صارت فى الصدور عمرتها وفتحت للسان باب البلاغة — كما يقول الجاحظ — دون النحويين الذين ليس لهم غاية إلا كل شعر فيه إعراب ، والأخباريين الذين لا يقفون إلا على كل شعر فيه الشاهد والمثل ، واللغويين الذين لا يروون إلا كل شعر فيه غريب(٢) .

٢ — وبجوار هذه الطبقة من الأدباء عاش الشعراء الذين طارت شهرتهم فى آفاق الأدب العربى أمثال ابن هرمة وبشار وصالح بن عبد القدوس وأبى نواس وأبى العتاهية والسيد الحميرى وأبان اللاحقى ومنصور النمرى وسلم الخاسر وابن أبى عيينة ويحيى بن نوفل وخلف بن خليفة ومحمد بن بشير والعتابى ومسلم وأبى تمام(٣) . وبجوار هؤلاء وهؤلاء وجدت جماعات كثيرة من الخطباء ورجال الأدب والبيان من بيت بنى هاشم وبنى العباس ومن رجال الفرق الأدبية والسياسية والدينية لاسيما المعتزلة وفرق المتكلمين الذين رآهم الجاحظ فوق أكثر الخطباء وأبلغ من كثير من البلغاء(٤) .

(١) ١٠٦ ج ١ البيان والتبيين
(٢) ٢٢٤ ج ٣ المرجع
(٣) ٥٤ ج ١ المرجع
(٤) ١٠٦ ج ١ البيان .

٣ — طبقة الكتاب الذين لم ير الجاحظ قوما قط أمثل طريقة فى البلاغة منهم ، والذين التمسوا من الألفاظ ما لم يكن متوعرا وحشيا ولا ساقطا سوقيا (١) ، ورأى الجاحظ البصر بهذا الجوهر من الكلام فيهم أعم(٢) ، وحكم مذهبهم فى نقد البيان(٣) ، وكان جلهم من عناصر أجنبية من الفرس والروم والسريان والقبط من الذين فهموا لغاتهم وبلاغتهم ثم قرأوا البيان والبلاغة العربية وآدابهما وأخذوا يحدثون فى اللغة العربية مذاهب جديدة فى الكتابة والأدب والبيان ويدعون إلى آراء خطيرة تمس الذوق الأدبى وترضى اتجاه الحضارة والترف العقلى والاجتماعى الذى داخل البيئة العربية منذ بدء القرن الثانى ، كما أخذوا يلقنون مذاهبهم الأدبية العامة لتلاميذهم والمشايعين لهم من شداة الأدب كما ترى فى محاضرة بشر بن المعتمر المعتزلى المتوفى سنة ٢٠٥ ﻫ فى أصول البلاغة التى يقول الجاحظ عنها : إن بشرا مر بإبراهيم ابن جبلة بن مخرمة وهو يعلم الفتيان الخطابة فوقف بشر ، فظن إبراهيم أنه إنما وقف ليستفيد أو ليكون رجلا من النظارة فقال بشر : اضربوا عما قال صفحا واطووا عنه كشحا ، ثم دفع إليهم صحيفة من تحبيره وتنميقه ، وهى فى أصول البلاغة وعناصر البيان(٤) ومن رجالات هذه الطبقة أبو العلاء سالم مولى هشام بن عبد الملك وعبد الحميد الكاتب أو الأكبر كما يقول الجاحظ(٥) وعبد الله بن المقفع وسهل بن هارون والحسن بن سهل والفضل بن سهل ويحيى بن خالد وجعفر بن يحيى وأيوب بن جعفر وأحمد بن يوسف ومحمد بن عبد الملك الزيات وعمرو بن مسعدة وسواهم من كتاب الدولة الذين صعدوا بأدبهم وبلاغتهم إلى أرقى المناصب فى الخلافة الإسلامية ، وكان لهذه الطبقة أثرها فى بحث عناصر البيان وبلاغة الكلام ورسم المذاهب الأدبية التى تواثم ذوق بيئتهم وعصرهم مما نراه مبثوثا فى كتاب البيان والتى لاتخرج عن أحكام

---

(١) ١٠٥ ج ١ البيان
(٢) ٢٢٥ ج ٣ المرجع
(٣) ٢٤٠ ج ١ المرجع
(٤) ١٠٦ ج ١ المرجع
(٥) ١٥١ ج ١ المرجع

الذوق الأدبي السليم ولا يتعمد أصحابها فيها مذاهب العلماء في الشرح والتحليل .

وللجاحظ مذهب أدبي كامل دعا إليه في كتابه البيان والتبيين في مواضع متفرقة منه لا سيما الجزء الأول من كتابه الكبير ، وهذا المذهب مستمد من عقليته وثقافته وبيئته ، وهو المظهر القوي من مظاهر شخصية الجاحظ الواضحة في كتابه البيان والتبيين . ويمكننا إرجاع هذا المذهب إلى عناصره الأولى من : سحر اللفظ وتلاؤم الحروف ، ووضوح المعنى ، وترك التكلف والتعقيد والإغراب والوحشية والسوقية ، ومراعاة المقام وإصابة الغاية ، مع الحذق والرفق والتخلص إلى حبات القلوب وإصابة عيون المعاني في سحر وإيجاز ، ومع البعد عما يكره من مظاهر مذمومة في البيان مما يتعلق بخلق البليغ وخلقه وطبعه أو زيه ، ومع الحرص على صبغ ذلك كله بصبغة الرجل وأسلوبه وظهور شخصيته وأثره فيه ، ومع مسايرة الأديب للحركة الفكرية العامة في بيئته ، ومع الحرص على إيثار نشاط السامعين والقراء والاحتيال على ذلك : بالفكاهة الجميلة ، والاستطراد الساحر ، وبراعة الأسلوب وسحره وقوته ، وبالرواية الكثيرة لأعلام الأدب والبيان التي تلقى في روع السامع والقارىء روح الهيبة والإعجاب بهم وبالمؤلف ، وبمناقشة الآراء التي تستحق المناقشة والنقد مما تجعل السامع والقارىء متطلعاً مسايراً للمؤلف في اتجاهاته الفكرية والأدبية ، إلى غير ذلك من عناصر هذا المذهب الأدبي التي ترجع إلى المعنى والأســـلوب دون حرص على ترف البيان أو طلب لشتى ألوان البديع إلا إذا طلبها الطبع واستدعاها المقام . ومن الجدير بالملاحظة أن كثرة الرواية في كتاب الجاحظ التي راها بعض الباحثين المعاصرين من أسباب ضعف شخصيته إنما هو غرض قصد إليه الجاحظ وأراده ، ليشعر القارىء بروحه ويؤمن بما يوجهه المؤلف إليه من آراء وأفكار . وليكتسب به رضاه وتقديره وإعجابه . ولا أحيلك في فهم مذهب الجاحظ ذلك على صفحة من كتابه ، فاقرأ أي صفحة منه وعلى الأخص الجزء الأول من هذا الكتاب ، فستؤمن معي بما ذكرت .

وقد ظهر الجاحظ فى عصر شاع فيه اتجاهان أدبيان مختلفان : اتجاه يرمى إلى الظهور بمظهر البدواة التقليدى فى الأداء والتعبير فيؤثر الغريب من الألفاظ والعنجهى من الأساليب متناسياً روح العصر وذوقه ، واتجاه آخر تأثر بالحياة السياسية والاجتماعية وبألوان الحضارة فى العيش والتفكير ، فمال إلى رقة الأسلوب وسهولته ، مع حرص على إرضاء الطبع والذوق ، وشاهد الجاحظ هذه التيارات الفكرية والأدبية المنوعة وعاصرها ولكنه مال بطبعه وذوقه إلى الاتجاه الأخير ، وكتابه البيان كله دعوة إلى هذا الرأى ، فهو حينا يشيد بأدب الكتاب ومذهبهم فى البيان ، وحينا يكرر الدعوة إلى الوضوح والإفهام ومسايرة الذوق والطبع ، وحينا ينقد مذاهب الصنعة فى الشعر ، وحينا يدعو إلى ترك التكليف والتعقيد والتقعير وإيثار الأساليب السمحة الكريمة الساحرة .

ومن أجل ذلك كان الجاحظ يلقب حقاً بشيخ الكتاب وعرف بهذا اللقب فى حياته وبعد حياته .

والجاحظ أديب وكاتب ومترســــل ومؤلف وناقد ، وليس شاعرا ، ولا يضيره ذلك ، نعم لا يضيره أن يكون كما قال بديع الزمانى الهمذانى فيه : « هو من أحد شقى البلاغة يقطف ، وفى الآخر يقف(١) » ؛ فقد يجيد الرجل فى باب من أبواب الأدب دون باب ولا يغض ذلك من إحسانه فيما أحسن فيه ولكن البديع يبدو أنه كان يتحامل على الجاحظ تحامل من يريد أن يزيح من طريقه كل من لهم قدم فى الأدب والبلاغة ليظل هو العلم فى هذا المجال على مر العصور ، ولذلك تجد البديع ينقد أدب الجاحظ بأنه « بعيد الإشارات ، قليل الاستعارات ، قريب العبارات ، وأن الجاحظ منقاد فيه لعريان الكلام يستعمله ، نفور من معتاصه يهمله ، وأنه ليس له لفظة مصنوعة ، أو كلمة غير مسموعة(٢) .

---

(١) ٨٢ المقامة الجاحظية - مقامات البديع . (٢) ٨٢ و٨٣ المرجع

وقد روى للجاحظ شعر قليل، هو أشبه بشعر العلماء ، وربما نذكر في آخر هذه الترجمة بعض نماذج من شعره .

وأدب الجاحظ كما يقول فيه بعض الباحثين[1] : أدب واقعي بل طبيعي ، يؤثر فيه التصريح على التاويح ، ويصور الحقيقة كما هي ، ويرى في ذلك السبيل الأقوم ، بل هو يدعو إلى هذا المذهب ، ويعيب من يرغب عنه .

وهو أدب حي ، مستمد من الدرس والتفكير والتجارب ، ولا تكاد تجد مؤلفاً يعطيك من هذه الثلاثة كما يعطيك الجاحظ ، فهو يشارك الرواة في سعة حفظه وروايته ، ويشارك الفلاسفة في تفكيره الحر واعتماده على المعقول ، ويبذ الجميع في ملابسته للناس على اختلاف طبقاتهم وفهمه لروح عصره . ولو قيض لمجموعة مصنفاته البقاء ، لكان لدينا صورة ناطقة عن عصر الجاحظ في كل مناحيه ، وعما وصل إليه العلم والأدب والاجتماع .

ويعتمد أدب الجاحظ على عناصر شتى ، أقواها بلاغة العرب في الجاهلية والإسـلام ، والكتاب والسنة ، وما نقل إلى العربية من آداب الفرس واليونان والهنود وفلسفتهم ، ولكن أظهر ما يكون فيه الرأي الشخصي والتفكير الحر .

لئن كان ابن المقفع إمام الكتاب في عصر الترجمة ، فالجاحظ إمامهم في عصر الوضع والتأليف والإبداع وتكوين الأدب الحضري المرتكز على أسس العلم والمدنية والتفكير من غير أن يفقد شيئاً من فصاحة البداوة وروعتها .

وهكذا فالجاحظ شرع طريقة التأليف في الأدب ، وكل من ألف بعده متأثر بطريقته شعر أم لم يشعر . قال ابن النديم في الفهرست : « ابن خلاد الرامهرمزي حسن التأليف مليح التصنيف يسلك طريقة الجاحظ » وقال أيضا : « الآمدي مليح التصنيف جيد التأليف يتعاطى مذهب الجاحظ فيما يعمله من الكتب » .

(١) راجع ص ٢٠ و ٢١ الجاحظ لخليل مردم بك

ولم يقف أثره عند هذا الحد بل تعداه إلى أن أصبحت الكتّاب تترسم خطاه فى الإنشاء بل تقتبس جمله ذات الجلبة فى السمع والروعة فى النفس . قال القاضى الفاضل : « وأما الجاحظ فما منا معشر الكتاب إلا من دخل داره ، أو شن على كلامه الغارة

(٧)

وشخصية الجاحظ فى مؤلفاته وأدبه تطالعك من كل جانب وناحية ، وهى شخصية رجل الفكر الواثق بنفسه وعقله وثقافته ومنزلته فى مجتمعه حتى ليخاطب الوزراء والعظماء ويراسلهم كأنه منهم ، فلم يفن شخصيته فى شخصياتهم ، بل رآهم إخوانه ، وله عليهم حق الصداقة ، ودالة الأخوة ، ولم يجبن عن توجيه العتاب واللوم إليهم فى أحيان كثيرة . وأنت حين تقرأ فى كتب الجاحظ تغيب فى جو بعيد عنك تطل عليك فيه شخصية الرجل ، بسعة ثقافتها وبعد مكانتها ، وبتوجيهها الساحر لعقل القارىء وفكره وشعوره حتى ليكاد ينسى أمامها نفسه ، ويشعر شعوراً صادقاً أنه قد نقل من جوه هو إلى جو آخر تشيع فيه روح قوية ساحرة تملك عليك عقلك وعاطفتك وتروعك بكثرة حفظها وروايتها ، كما تروعك بروعة فكرها وجلال بيانها ، وتتركك صريعا فى معارك فكرية ترى الجاحظ فارسها المعلم ، وترى قلمه البليغ فيها عصا الساحر المتحدى التى تسترعى السمع والبصر ، وتبهت الفكر والعقل وتلهب العاطفة والشعور .

والعجب أن سعة ثقافة الجاحظ وكثرة روايته فى تآليفه جعلت كثيراً ممن لا يفهمون الجاحظ يرونه « كاتباً لا شخصية له ، تطمس شخصيات من من يروى لهم وينقل عنهم كل أثر لشخصيته ، فتقرأ الجاحظ وأنت تقرأ لسواه وتبدو أمام عينيك صور شتى لرجال لا ترى الجاحظ فيهم ولا تلمس آثاره بينهم » .

ومنشأ ذلك أن الجاحظ رجل من الخاصة فى فكره وفى كتابته وأسلوبه

وفى بحثه وتأليفه ، فاذا فكر فبعقل الخاصة ، وإذا كتب أو ألف فبأسلوبهم ولمن يفكر فى مجال تفكيرهم ، وليس ذلك لأن الجاحظ يستمسك بفائدته ويضن بما عنده غيرة على العلم وشحا بثمرة الفهم ولذلك كان كتاب « البيان » موقوفا على أهله ومن كرع فى حوضه ، أما الجاهل والمبتدىء فلا نفع له من كتابه ، كما يقول ابن شهيد . إنما ذلك لأنه كما أرى لا يستطيع إلا أن يفكر تفكير الخاصة ، ويكتب بعقلهم وأسلوبهم ، ولأنه رجل يكتب لنفسه قبل كل شىء ويرضى شهوته فى تدوين عناصر الثقافة الأدبية والعلمية على طريقة كتاب الموسوعات(١) وما دام الجاحظ كذلك فلن يستطيع أن يفهمه إلا رجل مثله فى فكره واتجاهه وثقافته ، ولن يتسنى لكثير أن يفهموا الجاحظ وأن يؤمنوا بشخصيته فى كتبه ومؤلفاته ماداموا لا يستطيعون مجاراته فى نواحى ثقافته العقلية والأدبية . وحسب الجاحظ مجداً وخلود ذكر أن يكون له كتاب مثل كتاب البيان والتبيين .

(٨)

وللجاحظ مؤلفات كثيرة نذكر بعضها بإيجاز :

١ — كتاب « البيان » وقد أهداه إلى أحمد بن أبى داوود فأعطاه عليه خمسة آلاف دينار ، والجاحظ يشير فى مواضع متعددة من البيان إلى إلى كتاب الحيوان ، وكان لظهور « البيان والتبيين » ضجة كبيرة فى الأدب والبيان حتى إنه حمل إلى الأندلس فيما حمل إليها من نفائس المؤلفات .

وكتاب « البيان » ألفه الجاحظ على نمط طريف فى التأليف ، من كثرة الرواية التى قصد الجاحظ من ورائها أن ينال بكتابه الشهرة والإعجاب كما يقول الجاحظ نفسه فى كتابه ، وينال كتابه الذكر والذيوع ، ومن كثرة الاستطراد الذى يستدر به الجاحظ نشاط القارىء وإعجابه كما يقول الجاحظ

---

(١) راجع ٤٩ جـ ٢ النثر الفنى لزكى مبارك .

فى تعليله له ، والجاحظ حين يعلل عدم ترتيبه للخطباء الذين ذكرهم فى كتابه ترتيباً يتمشى مع التاريخ بعجزه عن تنسيق ذلك يجب أن يقـــابل بتحفظ فالجاحظ لو أراد لما أعجزه شىء ، إنمـا هو مذهبه فى الاستطراد والانتقال .

ويبدو من أسلوب الكتاب أن الجاحظ كان يكتب أصوله — أو كثيرا منها — محاضرات يلقيها على تلاميذه وطلابه وقد يسبغ عليها أحيانا روحا تو ائم بين هذه المحاضرات وبين ما يجب لمن أسدى إليه كتابه من تقدير وإجلال ، وأسلوب الجاحظ الاستطرادى جعل الجاحظ يعدنا فى كتابه بأنه سيذكر الشىء ثم لا يذكره ولا يفى بوعده ، وهـــذا الأسلوب الاستطرادى أيضاً جعل الجاحظ ينقد نفسه فى ترتيب فصول كتابه وجعله يرسم منهجه فى أجزاء كتابه فى آخر الجزء الأول منه ، وجعله يضع فى أماكن متعددة من كتابه عناوين مختلفة تقابل من القارىء بمزيد من الابتسام ، فهو يعنون فصولا بباب البيان وأخرى يسميها باب الصمت وأخرى باب اللحن أو باب الزهد إلى آخر هذه الألقاب التى نعلم أن الجاحظ لم يرد شيئاً منها ولم يضعها إلا للتغرير بالقارىء واكتساب نشاطه وامتحان ملكاته .

ويقول بعض العلماء : فخر أهل البصرة بأربعة كتب : كتاب البيان والتبيين للجاحظ ، وكتاب الحيوان له ، وكتاب سيبويه ، وكتاب العين للخليل .

٢ — كتاب الحيوان ، وقد ألفه الجاحظ قبل كتاب « البيان والتبيين » وأهداه إلى صديقه محمد بن عبد الملك الزيات ، فكافأه عليه بخمسة آلاف دينار ، وهو أول كتاب ألف فى موضوعه ، وقد طبع فى سبعة أجزاء ، ويبحث عن طبائع الحيوان وما ورد فيه من الأخبار والقصص والنوادر والخرافات والفكاهة والمجون وما قالته العرب فيه من الشعر فضلا عما اختبره المؤلف بنفسه .

وفى استطراد الجاحظ الكثير فى هذا الكتاب ، يقف القارىء فى أثناء ذلك على أخبار ممتعة وفوائد قيمة تمثل له المعارف الإسلامية وما بلغته فى

القرن الثالث . فهناك أشعار الجاهليين والمخضرين والإسلاميين والمحدثين ، وهناك تفسير كثير من آى القرآن والحديث ، وهناك آراء المتكلمين ومذاهب الفرق الاسلامية ، وهناك شبه الملحدين والزنادقة والرد عليهم ، أضف إلى ذلك معارف الهنود واليونان والفرس مما ترجمه العرب ومما تسوق إليه المناسبة فى ذلك الكتاب ، فضلا عن أنه يصور كثيراً من وجوه الحياة فى القرن الثالث .

٣ — كتاب البخلاء وهو كتاب طريف جمع فيه الجاحظ أخبار البخلاء ونوادر الأشحاء ، وصدره برسالة سهل بن هرون فى البخل وهى من أبلغ وأمتع وأنفس ما كتب فى هذا الموضوع . والكتاب ممتع جذاب لما فيه من فكاهات ساحرة .

ولقد أضاف إليه الجاحظ ما اتفق له من النوادر مع بعض البخلاء ، ولا يخلو من آرائه سديدة فى الاقتصاد والتدبير .

٤ — كتاب المحاسن والأضداد : وهو كتاب حسن جمع الجاحظ فيه نحو ثمانين موضوعا متقابلة ، فهو يعقد للموضوع فصلا يذكر فيه محاسنه ثم يعقبه بضده وهكذا إلى آخر الكتاب . وقد بدأه بذكر محاسن الكتابة وختمه بذكر شىء من محاسن الموت ، وجميع المواضيع التى عالجها ذات بال : كمحاسن الجواب والمشورة والعفو والوفاء وحب الوطن وأضدادها . وقد صرح الجاحظ فى المقدمة بأنه لم يسبق إلى هذا الكتاب بقوله : « وهذا كتاب وسمته بالمحاسن والأضداد لم أسبق إلى نحلته ولم يسألنى أحد صنعه » والكتاب من أكثر كتب الجاحظ تنسيقاً وترتيبا وأشدها مراعاة لحسن التبويب وضم كل معنى إلى مشاكله . وقد جرى على سننه البيهقى فألف كتاباً سماه «المحاسن والمساوى» .

٥ — كتاب التاج فى أخلاق الملوك : يبحث عما يتعلق بأمور الملوك فى السياسة والتدبير وفى حياتهم الخاصة وآداب مجالستهم ورسوم الدخول عليهم ومحادثتهم وما إلى ذلك من أحوالهم العامة والخاصة ، وفيه شواهد عن

ملوك الفرس وخلفاء العرب . والكتاب يدل على ما بلغه العرب من العزة والسلطان ورسوخ قدمهم فى الحضارة . وما يظن أن رسوم أعرق قصر بالمدنية فى الوقت الحاضر تفوق ما ورد فى ذلك الكتاب من الرسوم والآداب .

٦ — الفصول المختارة من كتب الجاحظ : وهو كتاب اختاره عبيدالله ابن حسان من عشرين كتاباً للجاحظ وهذه أسماؤها : كتاب الحاسد والمحسود ، كتاب المعلمين ، كتاب التربيع والتدوير ، كتاب مدح النبيذ ، كتاب طبقات المغنين ، كتاب النساء ، كتاب مناقب الترك ، كتاب حجج النبوة ، كتاب مسائل القرآن ، « وفيه بحث عن خلق القرآن » كتاب الرد على النصارى ، كتاب المودة والخلطة ، كتاب استحقاق الامامة ، كتاب استنجاز الوعد ، كتاب تفضيل النطق على الصمت ، كتاب صناعة الكلام ، كتاب مدح التجارة وذم عمل السلطان ، كتاب الشارب والمشروب ، كتاب الامامة ، كتاب مقالة الزيدية والرافضة .

٧ — ثلاث رسائل للجاحظ هى : الرد على النصارى التى مر ذكرها مع الفصول المختارة ، ذم أخلاق الكتاب ، رسالة القيان .

٨ — الحنين إلى الأوطان .

٩ — إحدى عشرة رسالة طبعت فى مصر ذكر أكثرها فى الفصول المختارة وما لم يذكر منها هو : فخر السودان على البيضان ، كتاب الوكلاء والموكلين .

١٠ — رسالة فى بنى أمية : وقد سماها بعضهم رسالة النابتة .

١١ — كتاب الدلائل والاعتبار على الخلق والتدبير : فيه كثير من الأدلة العقلية على وجود الخالق وحكمته وتدبيره وهو كتاب قيم وأسلوبه عال ولكنه بأسلوب الحكماء أشبه .

ومن كتبه المخطوطة التى لم تطبع بعد : كتاب المعرفة ، كتاب نظم القرآن كتاب التسوية بين العرب والعجم ، كتاب السلطان وأخلاق أهله ، كتاب البلدان ، كتاب الأخبار ، كتاب المغنيين والغناء والصنعة ، كتاب آى القرآن كتاب حانوت عطار ، كتاب التمثيل ، كتاب فضل العلم ، كتاب جمهرة الملوك ، كتاب عناصر الآداب ، كتاب الأمثال ، كتاب الرسالة اليتيمة ، رسالة فى القضاة والولاة ، كتاب الملوك والأمم السالفة والباقية ، كتاب العالم والجاهل .

صور من أدب الجاحظ

ألوان من نثره

الكلام البليغ :

ومتى شاكل — أبقاك الله — اللفظ معناه ، وكان لذلك الحال وفقا ، ولذلك القدر لفقاً ، وخرج من سماجة الاستكراه ، وسلم من فساد التكلف ، كان قنا بحسن الموقع ، وحقيقاً بانتفاع المستمع ، وجديراً أن يمنع صاحبه من تأويل الطاعنين ، ويحمى عرضه من اعتراض العائبين . ولا تزال القلوب به معمورة ، والصدور به مأهولة .

ومتى كان اللفظ أيضاً كريماً فى نفسه ، متخيراً من جنسه ، وكان سليما من الفضول ، بريئاً من التعقيد ، حبب إلى النفوس ، واتصل بالأذهان ، والتحم بالعقول ، وهشت له الأسماع ، وارتاحت له القلوب ، وخف على ألسن الرواة ، وشاع فى الآفاق ذكره ، وعظم فى الناس خطره ، وصار ذلك مادة للعالم الرئيس ، ورياضة للمتعلم الريض . ومن أعاره من معرفته نصيباً ، وأفرغ عليه من محبته ذنوبا ، خبت إليه المعانى ، وسلس له نظام اللفظ ، وكان قد أغنى المستمع عن كد التكلف ، وأراح قارىء الكتاب من علاج التفهم .

كلام النبي ﷺ :

عاب النبى صلى الله عليه وسلم التشديق ، وجانب أصحاب التقعير ، واستعمل المبسوط فى موضع البسط ، والمقصور فى موضع القصر ، وهجر الغريب الوحشى ، ورغب عن الهجين السوقى ، فلم ينطق إلا عن ميراث حكمة ، ولم يتكلم إلا بكلام قد حف بالعصمة ، وشيد بالتأييد ، ويسر بالتوفيق ، وألقى الله عليه من المحبة ، وغشاه بالقبول ، وجمع له بين المهابة

والحلاوة، وبين حسن الإفهام والإيجاز، ومع استغنائه عن إعادته، وقلة حاجة السامع إلى معاودته، لم تسقط له كلمة، ولا زلت به قدم، بل يبذ الخطب الطوال بالكلام القصير، ولا يلتمس اسكات الخصم إلا بما يعرفه الخصم، ولا يحتج إلا بالصدق، ولا يطلب الفلج إلا بالحق، ولا يستعين بالخلابة، ولا يستعمل المواربة، ولا يهمز ولا يلمز، ولا يبطىء ولا يعجل، ولا يسهب ولا يحصر.

وما سمع كلام قط أعم نفعا. ولا أصدق لفظا، ولا أعدل وزنا، ولا أجمل مذهبا، ولا اكرم مطلبا، ولا أحسن موقعا، ولا أسهل مخرجا من كلامه صلى الله عليه وسلم.

جوامع كلمه:

يجب للرجل أن يكون سخياً لا يبلغ التبذير، شجاعا لا يبلغ الهوج، محترساً لا يبلغ الجبن، ماضياً لا يبلغ القحة، قوالا لا يبلغ الهذر، صموتاً لا يبلغ العى، حليما لا يبلغ الذل، منتصراً لا يبلغ الظلم، وقوراً لا يبلغ الظلم، وقوراً لا يبلغ البلادة، ناقداً لا يبلغ الطيش. ثم وجدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم قد جمع ذلك فى كلمة واحدة وهى قوله: «خير الأمور أوساطها»، فعلمنا أنه صلى الله عليه وسلم قد أوتى جوامع الكلم وعلم فصل الخطاب.

سحر البيان:

قال بعض الربانيين وأهل المعرفة من البلغاء، ممن يكره التشادق والتعمق ويبغض الإغراق فى القول والتكلف والاجتلاب ويعرف أكثر أدواء الكلام ودوائه وما يعترى المتكلم من الفتنة بحسن ما يقول وما يعرض للسامع من الافتتان بحسن ما يسمع: أنذركم حسن الألفاظ وحلاوة مخارج الكلام، فإن المعنى إذا اكتسى لفظا حسنا وأعاره البليغ مخرجا سهلا ومنحه المتكلم قولا متعشقا، صار فى القلب أحلى، وللصدر املأ. والمعانى إذا

كسيت الألفاظ الكريمة ، وألبست الأوصاف الرفيعة ، تحولت فى العيون عن مقادير صورها ، وأربت على حقائق أقدارها ، بقدر ما زينت ، وعلى حسب ما زخرفت . والقلب ضعيف ، وسلطان الهوى قوى ، ومدخل خدع الشيطان خفى .

بلاغة العرب :

كل شيء للعرب فانما هو بديهة وارتجال وكأنه إلهام وليست هناك معاناة ولا مكابدة ولا إجالة فكر ولا استعانة وإنما هو أن يصرف وهمه إلى الكلام وإلى رجز يوم الخصام أوحين أن يمتح على رأس بئر أو يحدو ببعير أو عند المقارعة والمناقلة أوعند صراع أوفى حرب . فما هو إلا أن يصرف وهمه إلى جملة المذهب وإلى العمود الذى إليه يقصد ، فتأتيه المعانى أرسالا وتنثال عليه الألفاظ انثيالا ثم لا يقيده على نفسه ولا يدرسه أحدا من ولده . وكانوا أميين لا يكتبون ومطبوعين لا يتكلفون ، وكان الكلام الجيد عندهم أظهر وأكثر وهم عليه اقدر وأقهر ، وكل واحد فى نفسه أنطق ومكانه فى البيان أرفع . وخطباؤهم أوجز والكلام عليهم أسهل ، وهو عليهم أيسر من أن يفتقروا إلى تحفظ اويحتاجوا إلى تدارس ، وليس هم كمن حفظ علم غيره واحتذى على كلام من كان قبله فلم يحفظوا إلا ماعلق بقلوبهم والتحم بصدورهم واتصل بعقولهم . من غير تكلف ولا قصد ولا تحفظ ولا طلب . وإن شيئا الذى فى أيدينا جزء منه ، لبالمقـــدار الذى لا يعلمه إلا من أحاط بقطر السحاب وعدد التراب وهو الذى يحيط بما كان والعالم بما سيكون .

ونحن — أبقاك الله — إذا ادعينا للعرب أصناف البلاغة من القصيد والارجاز ، ومن المنثور والأسجاع ومن المزدوج وما لا يزدوج ، فمعنا العلم على أن ذلك لهم شاهد صادق من الديباجة الكريمة ، والرونق العجيب ، والسبك والنحت الذى لا يستطيع أشعر الناس اليوم ولا ارفعهم فى البيان أن يقول فى مثل ذلك إلا فى اليسير والنبذ القليل ، ونحن لانستطيع أن نعلم

أن الرسائل التى فى أيدى الناس للفرس أنها صحيحة غير مصنوعة ، وقديمة غير مولدة ، إذ كان مثل ابن المقفع وسهل بن هرون وأبى عبيد الله وعبد الحميد وغيلان وفلان وفلان يستطيعون أن يولدوا مثل تلك الرسائل ، ويصنعوا مثل تلك السير .

وأخرى انك متى أخذت بيد الشعوبى فأدخلته بلاد الأعراب الخلص، ومعدن الفصاحة التامة ، ووقفته على شاعر مفلق ، أو خطيب مصقع ، علم أن الذى قلت هو الحق ، وابصر الشاهد عيانا .

فهذا فرق مابيننا وبينهم ، فتفهم عنى - فهمك الله — ما أنا قائل فى هذا واعلم أنك لم تر قوما قط اشقى من هؤلاء الشعوبية ، ولا أعدى على دينه ، ولا أشد استهلاكا لعرضه . ولا أطول نصبا ، ولا أقل غما من أهل هذه النحلة وقد شفى الصدور منهم طويل جثوم الحسد على اكبادهم ، وتوقد نار الشنآن فى قلوبهم ، وغليان تلك المراجل الفائرة ، وتسعر تلك النيران المضطرمة . ولو عرفوا أخلاق كل ملة ، وزى كل لغة ، وعللهم فى اختلاف إشاراتهم وآلاتهم وشمائلهم وهيآتهم ، وما علة كل شىء من ذلك ، ولم اختلقوه ولم تكلفوه ؟ ، لأراحوا أنفسهم ، وتخففت مؤنتهم على من خالطهم .

الكتاب :

الكتاب وعاء ملىء علما، وظرف حشى ظرفا ، وإناء شحن مزاحا وجدا ، إن شئت كان أبين من سحبان وائل ، وإن شئت كان أعى من باقل ، وإن شئت ضحكت من نوادره ، وإن شئت عجبت من غرائب فرائده ، وإن شئت ألهتك طرائفه ، وإن شئت أشجتك مواعظه . ومن لك بواعظ مله ، وبزاجر مغر ، وبناسك فاتك ، وبناطق أخرس .

ومتى رأيت بستاناً يحمل فى ردن ؟ وروضة تقلب فى حجر ، وناطقاً ينطق عن الموتى ويترجم عن الأحياء . ومن لك بمؤنس لا ينام إلا بنومك ،

ولا ينطق إلا بما تهوى ، آمن من الأرض ، وأكتم للسر من صاحب السر ، وأحفظ للوديعة من أرباب الوديعة .

ولا أعلم جاراً أبر ، ولا خليطاً أنصف ، ولا رفيقاً أطوع ، ولا معلماً أخضع ، ولا صاحباً أظهر كفاية ولا أقل إملالا وإبراما ولا أكثر أعجوبة وتصرفا ولا أقل تصلفا وتكلفا ولا أبعد من مراء من كتاب .

ولا أعلم نتاجاً في حداثة سنه ، وقرب ميلاده ورخص ثمنه وإمكان وجوده ، يجمع من التدابير العجيبة والعلوم الغريبة ومن آثار العقول الصحيحة وثمرة الأذهان اللطيفة ، ومن الحكم الرفيعة والمذاهب القديمة والتجارب الحكيمة ومن الأخبار عن القرون الماضية والبلاد المتنازحة والأمثال السائرة والأمم البائدة ، ما يجمع لك الكتاب .

صامت ما أسكته وبليغ ما استنطقته ، ومن لك بمسامر لا يبتديك في حال شغلك ويدعوك في أوقات نشاطك ولا يحوجك إلى التجمل له والتذمم منه .

والكتاب هو الذى إن نظرت فيه أطال إمتاعك ، وشحذ طباعك ، وبسط لسانك وجود بيانك وفخم ألفاظك ، ونجح نفسك وعمر صدرك ومنحك تعظيم العوام ، وصداقة الملوك . وعرفت به في شهر ، ما لا تعرفه من أفواه الرجال في دهر ، مع السلامة من الغرم ومن كد الطلب ومن الوقوف بباب المكتسب بالتعليم ومن الجلوس بين يدى من أنت أفضل منه خلقا وأكرم عرقا . ومع السلامة من مجالسة البغضاء ، ومقارنة الأغبياء ،

قال ابن الجهم : « إذا غشيني النعاس في غير وقت نوم — وبئس الشيء النوم الفاضل عن الحاجة — تناولت كتاباً من كتب الحكمة ، فأجد اهتزازى للفوائد ، والأريحية التى تعتريني عند الظفر ببعض الحاجة ، والذى يغشى قلبي من سرور الاستبانة أشد إيقاظاً من هدة الهدم . وإذا استحسنت

الكتاب واستجدته ورجوت منه الفائدة ورأيت ذلك فيه ، فلو ترانى وأنا ساعة بعد ساعة أنظر كم بقى من ورقه مخافة استنفاده وانقطاع المادة من قلبه . وإن كان المصحف عظيم الحجم كثير الورق كثير العدد ، فقد تم عيشى وكمل سرورى » .

فالإنسان لا يعلم حتى يكثر سماعه ، ولابد من أن تكون كتبه أكثر من سماعه ، ولا يعلم ولايجمع العلم حتى يكون الإنفاق عليه من ماله الذ عنده من الإنفاق من مال عدوه ، ومن لم تكن نفقته التى تخرج فى الكتب الذ عنده من عشق القيان لم يبلغ فى العلم مبلغاً رضياً ، وليس ينتفع بإنفاقه ، حتى يؤثر اتخاذ الكتب إيثار الأعرابى فرسه باللبن على عياله ، وحتى يؤمل فى العلم ما يؤمل الأعرابى فى فرسه .

سياسة الحزم :

من لم يعمل بإقامة جزاء السيئة والحسنة ، وقتل فى موضع القتل ، وأحيى فى موضع الإحياء ، وعفا فى موضع العفو وعاقب فى موضع العقوبة ، ومنع ساعة المنع ، وأعطى ساعة الإعطاء ، خالف الرب فى تدبيره ، وظن أن رحمته فوق رحمة ربه . وقد قالوا : بعض القتل إحياء للجميع ، وبعض العفو إغراء ، كما أن بعض المنع إعطاء . ولا خير فيمن كان خيره محضا ، وشر منه من كان شره صرفا ، ولكن أخلط الوعد بالوعيد ، والبشر بالعبوس ، والإعطاء بالمنع ، والحلم بالإيقاع ، فإن الناس لا يهابون ولا يصلحون إلا على الثواب والعقاب ، والأطماع والإخافة . ومن أخاف ولم يقع وعرف بذلك كان كمن أطمع ولم ينجز وعرف بذلك ، ومن عرف بذلك دخل عليه بحسب ما عرف منه ، فخير الخير ما كان ممزوجا ، وشر الشر ما كان صرفا .

ولو كان الناس يصلحون على الخير وحده ، لكان الله عز وجل أولى بذلك الحكم . وفى إطباق جميع الملوك وجميع الأئمة فى جميع الأقطار وفى جميع الأعصار على استعمال المكروه والمحبوب ، دليل على أن الصواب فيه دون غيره

وإذا كان الناس إنما يصطلحون على الشدة واللين ، وعلى العفو والانتقام ، وعلى البذل والمنع ، وعلى الخير والشر ، عاد ذلك الشر خيراً ، وذلك المنع إعطاء ، وذلك المكروه محبوبا . وإنما الشأن في العواقب وفيما يدوم ولا ينقطع وفيما هو أدوم ومن الانقطاع أبعد .

الصـــوت :

أمر الصوت عجيب ، وتصرفه في الوجوه عجب ، فمن ذلك أن منه مايقتل كصوت الصاعقة ، ومنه ما يسر النفوس حتى يفرط عليها السرور فتقلق حتى ترقص ، وحتى ربما رمى الرجل بنفسه من حالق وذلك مثل هذه الأغانى المطربة . ومن ذلك ما يكمد ، ومن ذلك مايزيل العقل حتى يخشى على صاحبه كنحو هذه الأصوات الشجية والقراءات الملحنة ، وليس يعتريهم ذلك من قبل المعانى لأنهم فى كثير من ذلك لا يفهمون وقد بكى ما سرجويه من قراءة أبى الخوخ ، فقيل له : كيف بكيت من كتاب الله ولا تصدق به ؟ قال : إنما أبكانى الشجا .

وبالأصوات ينومون الصبيان والأطفال والدواب تصر آذانها إذا غنى المكارى والإبل تصر آذانها إذا حدا فى آثارها الحادى وتزداد نشاطا وتزيد فى مشيها . ويجمع بها الصيادون السمك فى حظائرهم التى يتخذونها له ، وذلك أنهم يضربون بعصى معهم ويصطخبون فتقبل أجناس السمك شاخصة الأبصار ، متصغية إلى تلك الأصوات حتى تدخل فى الحظيرة . ويضرب بالطساس للطير وتصاد بها . ويضرب بالطساس للأسد وقد أقبلت فتروعها تلك الأصوات . وقال صاحب المنطق : الأيايل تصاد بالصفير والغناء ، والصفير تسقى به الدواب ، وتنفر به الطير عن البذور .

العـــرب :

لم يكونوا تجارا ولا صناعا ، ولا أطباء ولا حسابا ، ولا أصحاب فلاحة

فيكونوا مهنة ولا أصحاب زرع لخوفهم صغار الجزية . ولم يكونوا أصحاب جمع وكسب ولا أصحاب احتكار لما فى أيديهم وطلب لما عند غيرهم ولا طلبوا المعاش من ألسنة الموازين ورءوس المكاييل ولا عرفوا الدوانيق والقراريط ، ولم يفتقروا الفقر المدقع الذى يشغل عن المعرفة ، ولم يستغنوا الغنى الذى يورث البلادة ، والثروة التى تحدث الغرة . ولم يحتملوا ذلا قط فيميت قلوبهم ، ويصغر عندهم أنفسهم . وكانوا سكان فياف وتربية العراء ، لا يعرفون الغمق ولا اللثق[1] ، ولا البخار ولا الغلظ ؟ ولا العفن ولا التخم ، أذهان حديدة ، ونفوس منكرة ، فحين حملوا حدهم ووجهوا قواهم إلى قول الشعر وبلاغة المنطق وتثقيف اللغة وتصاريف الكلام ، وقيافة البشر بعد قيافة الأثر ، وحفظ النسب ، والاهتـــداء بالنجوم والاستدلال بالآثار وتعرف الأنواء ، والبصر بالخيل والسلاح وآلة الحرب والحفظ لكل مسموع ، والاعتبار بكل محسوس ، واحكام شأن المناقب والمثالب ، بلغوا فى ذلك الغاية ، وحازوا كل أمنية . وببعض هذه العلل صارت نفوسهم أكبر وهممهم أرفع وهم من جميع الأمم أفخر ولأيامهم أذكر .

ألوان من رسائل الجاحظ

رسالة له فى الاعتذار :

أما بعد فنعم البديل من الزلة الاعتذار ، وبئس العوض من التوبة الإصرار ، وإن أحق من عطفت عليه بحلمك ، من لم يستشفع إليك بغيرك . وإننى بمعرفتى بمبلغ حلمك وغاية عفوك ضمنت لنفسى العفو من زاتها عندك ، وقد مسنى من الألم مالم يشفه غير مواصلتك .

رسالة أخرى فى الاعتذار :

قال الجاحظ :

تشاغلت مع الحسن بن وهب بشرب النبيذ أياما فطلبنى محمد بن عبد الملك

(١) الغمق : الفساد من كثرة الانداء . واللثق : نحوه

الزيات لمؤانسته فأخبرته باتصال شغلى مع الحسن بن وهب فتنكر لى وتلون على فكتبت إليه رقعة نسختها :

أعاذك الله من سوء الغضب ، وعصمك من سرف الهوى ، وصرف ما أعارك من القوة إلى حب الانصاف ، وحبب فى قلبك إيثار الأناة ، فقد خفت أيدك الله أن أكون عندك من المنسوبين إلى نزق السفهاء ، ومجانبة سبل الحكماء . وبعد فقد قال عبد الرحمن بن حسان بن ثابت :

وإن امرءاً أمسى وأصبح سالماً   من الناس إلا ما جنى لسعيد

وقال الآخر :

ومن دعا الناس إلى ذمه   ذموه بالحق وبالباطل

فإن كنت اجترأت عليك — أصلحك الله — فلم أجترئ إلا لأن دوام تغافلك عنى شبيه بالإهمال الذى يورث الاغفال ، والعفو المتتابع يؤمن من المكافأة . ولذلك قال عيينة بن حصن بن حذيفة لعثمان رحمه الله : « عمر كان خيراً لى منك ، أرهبنى فأتقانى ، وأعطانى فأغنانى » .

فإن كنت لا تهب عقابى — أيدك الله — لخدمة ، فهبه لأياديك عندى ، فإن النعمة تشفع فى النقمة ، وإلا تفعل ذلك لذلك فعد إلى حسن العادة ، وإلا فأما ذاك [illegible] إلا أن ما أنت أهله من العفو دون ما أنا أهله [illegible] من العقاب ، وتتجافى عن عقاب [illegible] إلى من عنده له ذكر ، وذنبه نسيا ومن لا يعرف من الشكر إلا الذلّ والإدمام إلا منك ، هجمت عليه بالعقوبة . واعلم أيدك الله أن شين غضبك على كزين صفحك عنى ، وأن موت ذكرى مع انقطاع سببى منك كحياة ذكرك مع اتصال سببى بك . واعلم أن لك فطنة عليم ، وغفلة كريم ، والسلام .

رسالة فى الشوق :

ما أضاء لى نهار ولا دجا ليل مذ فارقتك إلا وجدت الشوق إليك قد حز

فى كبدى والأسف عليك قد أسقط فى يدى والنزاع نحوك قد خان جلدى . فأنا بين حشا خافقة ، ودمعة مهراقة ، ونفس قد ذبلت بما تجاهد ، وجوانح قد أبليت بما تكابد ، وذكرت وأنا على فراش الارتماض ، ممنوع من لذة الاغتماض ، قول بشار :

إذا هتف القمرى نازعنى الهوى	بشوق فلم أملك دموعى من الوجد
أبى الله إلا أن يفرق بيننا	وكنا كماء المزن شيب مع الشهد
لقد كان ما بينى زمانا وبينها	كما كان بين المسك والعنبر الورد

فانتظم وصف ما كنا نتعاشر عليه ونجرى فى مودتنا إليه ، فى شعره هــــذا . وذكرت أيضاً ما رمانى به الدهر من فرقة أعزائى من إخوانى الذين أنت أعزهم ويمتحنى بمن نأى من أحبائى وخلصائى الذين أنت أحبهم وأخلصهم ويجرعنيه من مرارة نأيهم وبعد لقائهم ، وسألت الله أن يقرن آيات سرورى بالقرب منك ، ولين عيشى بسرعة أوبتك وقلت أبياتاً تقصر عن صفة وجدى وكنه ما يتضمنه قلبى وهى :

بخدى من قطر الدموع ندوب	وبالقلب منى مذ نأيت وجيب
ولى نفس حتى الدجى يصدع الحشا	ورجع حنين للفؤاد مذيب
ولى شاهد من ضر نفسى وسقمها	يخبر عنى إننى لكئيب
كأنى لم أفجع بفرقة صاحب	ولا غاب عن عينى سواك حبيب

رســـــالة له إلى ابن الزيات :

لا والله ما عالج الناس داء قط أدوى من الغيظ ولا رأيت شيئا هو أنفذ من شماتة الأعداء ولا أعلم بابا أجمع لخصال المكروه من الذل . ولكن المظلوم مادام يجد من يرجوه والمبتلى ما دام يجد من يرثى له فهو على سبب درك وإن تطاولت به الأيام ، فكم من كربة فادحة وضيقة مصمتة قد فتحت أقفالها وفككت أغلالها ومهما قصرت فيه فلم أقصر فى المعرفة بفضلك وفى حسن النية بينى وبينك ، لا مشتت الهوى لامقسم الأمل على تقصير قد احتملته

وتفريطاً قد اغتفرته . ولعل ذلك أن يكون من ديون الإدلال وجرائم الإغفال ، ومهما كان من ذلك فإني أجمع بين الإساءة والإنكار ، وإن كنت كما تصف من التقصير وكما تعرف من التفريط ، فإني من شاكري أهل هذا الزمان وحسن الحال متوسط المذهب، وأنا أحمد الله على أن كانت مرتبتك من المنعمين فوق مرتبتي في الشاكرين .

ألوان من كلامه الذي يجري مجرى الأمثال

احذر من تأمن فإنك حذر ممن تخاف .

قليل الموعظة مع نشاط الموعوظ خير من كثير وافق من الأسماع نبوة ومن القلوب ملالة .

عقل المنشئ مشغول وعقل المتصفح فارغ .

ليس جهد البلاء مد الأعناق وانتظار وقع السيف لأن الوقت قصير والحين مغتنم ، ولكن جهد البلاء أن تظهر الخلة وتطول المدة وتعجز الحيلة ثم لا تعدم صديقاً مؤنباً وابن عم شامتاً وجاراً حاسداً ووالياً قد تحول عدواً وزوجة مختلعة وجارية مستبيعة وعبداً يحقرك وولداً ينتهرك .

خمس يقتلن : سراج لا يضيء ، ورسول بطيء ، وطعام ينتظر به ، وإبريق يسيل ، وبيت يكف .

فصل للجاحظ في الحسد(١)

الحسد ـ أبقاك الله ـ داء ينهك الجسد ، ويفسد الأود . علاجه عسِر ، وصاحبه ضَجِر ، وهو باب غامض ، وأمر متعذر ، وما ظهر منه فلا يداوى وما بطن منه فمداويه في عناء ، ولذلك قال النبي صلى الله عليه وسلم : « دب إليكم داء الأمم من قبلكم : الحسد والبغضاء » . وقال بعض الناس لجلسائه : « أي الناس اقل غفلة » فقال بعضهم : « صاحب ليل ، إنما همه أن يصبح » . فقال : « إنه لكذا ، وليس كذاك » فقالوا له : « فاخبرنا بأقل الناس غفلة » . فقال : « الحاسد ، إنما همه أن ينزع الله منك النعمة التي أعطاكها ، فلا يغفل أبداً » . ويروى عن الحسن أنه قال : « الحسد أسرع في الدين من النار في الحطب اليابس . وما أتى المحسود من حاسده إلا من قبل فضل الله عنده ونعمته عليه » . قال عز وجل : « أم يحسدون الناس على ما آتاهم الله من فضله فقد آتينا آل إبراهيم الكتاب والحكمة وآتيناهم ملكا عظيما » .

والحسد عقيد الكفر ، وحليف الباطل ، وضد الحق ، وحرب البيان ، فقد ذم الله الكتاب به فقال « ود كثير من أهل الكتاب لو يردونكم من بعد إيمانكم كفارا ، حسدا من عند أنفسهم .

فنه تتولد العداوة ، وهو سبب كل قطيعة ، ومنتج كل وحشة ، ومفرق كل جماعة ، وقاطع كل رحم من الأقرباء ، ومحدث التفرق بين القرناء ، وملقح الشر بين الحلفاء ، يكمن في الصدر كمون النار في الحجر .

ولو لم يدخل على الحاسد — بعد تراكم الغموم على قلبه ، واستكان الحزن في جوفه ، وكثرة مضضه ، ووسواس ضميره ، وتنغّص عمره ، وكدر نفسه ، ونكد عيشه — إلا استصغاره نعمة الله عنده ، وسخطه على سيده

---

(١) من رسالة الجاحظ في الحاسد والمحسود .

بما أفاد غيره ، وتمنيه عليه أن يرجع فى هبته إياه ، وألا يرزق أحداً سواه — لكان عند ذوى العقول مرحوما ، وكان لديهم فى القياس مظلوما . وقد قال بعض الأعراب : « ما رأيت ظالماً أشبه بمظلوم من الحاسد : نفس دائم ، وقلب هائم ، وحزن لازم . والحاسد مخذول وموزور ، والمحسود محبوب ومنصور . والحاسد مغموم ومهجور ، والمحسود مَغشىٌّ ومَزُور .

والحسد — رحمك الله — أول خطيئة ظهرت فى السموات وأول معصية حدثت فى الأرض . خص به أفضل الملائكة فعصى ربه ، وقايسه فى خلقه ، واستكبر عليه ، فقال : « خلقتنى من نار وخلقته من طين » . فلعنه وجعله إبليساً ، وأنزله من جواره بعد أن كان أنيساً ، وشوه خلقه تشويها ، وموّه على قلبه تمويهاً . نسى به عزم ربه فواقع الخطيئة ، فارتدع المحسود فتاب عليه وهدى ، ومضى اللعين الحاسد فى حسده فشقى وغوى . وأما فى الأرض فابنا أدم حسد أحدهما أخاه فعصى ربه وأثكل أباه . وبالحسد طوعت له نفسه قتل أخيه فقتله ، فأصبح من الخاسرين ، فقد حمله الحسد إلى غاية القسوة ، وبلغ به أقصى حدود العقوق ، إذ ألقى الحجر عليه شادخاً ، فأصبح عليه نادماً صارخاً .

ومن شأن الحاسد — إذا كان المحسود غنياً — أن يوبخه على المال ، فيقول : « جمعه حراما ، ومنعه أيتاما ، والسّبَ عليه محاويج أقاربه ، فتركهم له خصماء ، وأعانهم فى الباطن ، وحمل المحسود على قطيعتهم فى الظاهر ، فقال : « لقد كفروا معروفك ، وأظهروا فى الناس ذمك . ليس أمثالهم يوصلون ، فإنهم لا يشكرون ، وإن وجد له خصما أعانه عليهُ ظلماً . وإن كان ممن يعاشره فاستشاره غشه . أو تفضل عليه بمعروف كفره ، أو دعاه إلى نصره خذله ، أو حضر مدحه ذمه ، وإن سئل عنه همزه ، وإن كان عنده شهادة كتمها ، وإن كانت منه إليه زلة عظمها ، وقال إنه يحب أن يعاد ولا يعود ، ويرى عليه القعود .

وإن كان المحسود عالماً قال : « مبتدع لرأيه متبع ، حاطب ليل ، ومبتغى نيل ، لايدرى ماحمل ، قد ترك العمل ، فأقبل على الحيل . وإن كان المحسود ذا دين قال : متصنع يغزو ليوصى إليه ، ويحج ليثنى عليه ، ويصوم لتقبل شهادته ، ويظهر النسك ليودع المال بيته ، ويقرأ فى المسجد ليزوجه جاره ابنته ، ويحضر الجنائز لتعرف شهرته . ومالقيت حاسداً قط إلا تبين مكنونه بتغير لونه ، وتحويص عينـــه ، وإخفاء سلامه ، والإقبال على غيرك ، والإعراض عنك ، والاستثقال لحديثك ، والخلاف لرأيك .

وكان عبدالله بن أبىّ قبل نفاقه نسيج وحده ، لجودة رأيه ، وبعد همته ، ونبل شيمته ، وانقياد العشيرة له بالسيادة ، وإذعانهم له بالرياسة . وما استوجب ذلك إلا بعد ما استجمع له لبه ، وتبين لهم عقله ، وفقد بينهم جهله ، ورواه لذلك أهلا لما أطاق له حملا .

فلما بعث الله نبيه صلى الله عليه وسلم ، وقدم المدينة ، ورأى « عبد الله » عِزّ رسول الله ، شمخ بأنفه ، فهدم إسلامه لحسده ، وأظهر نفاقه . وما صار منافقا حتى صار حسوداً ، ولا صار حسوداً حتى صار حقوداً ، فحمق بعد اللب ، وجهل بعد العقل ، وتبوأ النار بعد الجنة . ولقد خطب النبى صلى الله عليه وسلم بالمدينة فشكاه إلى الأنصار ، فقالوا : « يارسول الله لا تلمه ، فإنا كنا قد عقدنا له الخرَزَ قبل قدومك لنتوجه » .

ولو سلم للمخذول قلبه من الحسد لكان من الإسلام بمكان ، ومن السؤدد فى ارتفاع ، فوضعه الله لحسده ، وأظهر نفاقه . ولذلك قال القائل :

طال على الحاسد أحزانُـه ... فاصفرّ من كثرة أحزانه
دعْـه فقد أشعل فى جوفه ... ما هاج فيه حَرّ نيرانه
العيب أشهى عنـده لذة ... من لذة المـال لخزّانه
فارم على غاربه حبـله ... تسلم من كثرة بهتانه

ألوان من شعر الجاحظ

من شعره قوله :

يطيب العيش إن تلقى حليما ... غذاه العلم والرأى المصيب
ليكشف عنك حيرة كل ريب ... وفضل العلم يعرفه الأريب
سقام الحرص ليس له شفاء ... وداء البخل ليس له طبيب

وأنشد المبرد للجاحظ :

إن حال لون الرأس عن لونه ... ففي خضاب الرأس مستمتع
هب من له شيب له حيلة ... فما الذى يحتاله الأصلع ؟

ومن شعره فى ابن أبى دؤاد :

وعويص من الأمور بهيم ... غامض الشخص مظلم مستور
قد تسنمت ما توعر منه ... بلسان يزينه التحبير
مثل وشى البرود هلله النسـ ... ـج وعند الحجاج در نثير
حسن الصمت والمقاطع أما ... نصت القوم والحديث يدور
ثم من بعد لحظة تورث اليسـ ... ـر وعروض مهذب موفور

وقال يهجو الجماز بأبيات منها :

نسب الجماز مقصو ... ر إليه منتهاه
تنتهى الأحساب بالنا ... س ولا تعدو قفاه

وقال فى المدح :

بدا حين أثرى بإخوانه ... ففلل عنهم شباة العدم
وذكره الدهر صرف الزمان ... فبادر قبل انتقال النعم
فتى خصه الله بالمكرمات ... فمازج منه الحيا بالكرم
ولا ينكث الأرض عند السؤال ... ليقطع زواره عن نعم

وكتب إلى أحمد بن أبى دؤاد :

لا ترانى وإن تطاولت عمداً … بين صفيهم وأنت تسير
كلهم فاضل على بمال … ولسانى يزينه التحبير
فإذا ضمنا الحديث وبيت … فكأنى على الجميع أمير
رب خصم أرق من كل روح … ولفرط الذكا يكاد يطير
فاذا رام غايتى فهو كاب … وعلى البعد كوكب مبهور

وله :

بخدى من قطر الدموع ندوب … وبالقلب منى مذ نأيت وجيب
ولى نفس حتى الدجى يصدع الحشا … ورجع حنين للفؤاد مذيب
ولى شاهد من ضر نفسى وسقمها … يخبر عنى إننى لكئيب
كأنى لم أفجع بفرقة صاحب … ولا غاب عن عينى سواك حبيب

وقال فى مدح إبراهيم بن رياح :

وعهدى به والله يصلح أمره … رحيب مجال الرأى منبلج الصدر
فلا جعل الله الولاية سبة … عليه فانى بالولاية ذو خبر
فقد جهدوه بالسؤال وقد أبى … به المجد إلا أن يلج ويستشرى

وكتب له من قصيدة :

أقام بدار الخفض راض بخفضه … وذو الحزم يسرى حين لا أحد يسرى
يظن الرضى شيئاً يسيراً مهوناً … ودون الرضى كأس أمر من الصبر
سواء على الأيام صاحب حنكة … وآخر كاب لا يريش ولا يبرى
خضعت لبعض القوم أرجو نواله … وقد كنت لا أعطى الدنية بالقسر
فلما رأيت القوم يبذل بشره … ويجعل حسن البشر واقية الوفر
ربعت على ضلعى وراجعت منزلى … فصرت حليفا للدراسة والفكر
وشاورت إخوانى فقال حليمهم … عليك الفتى المرى ذا الخلق الغمر

أعيذك بالرحمن من قول شامت ... أبو الفرج المأمول يزهد فى عمرو

ولو كان فيه راغبا لرايته ... كما كان دهراً فى الرخاء وفى اليسر

أخاف عليك العين من كل حاسد ... وذو الود منخوب الفؤاد من الذهر

فإن تدع ودى بالقبول فأهله ... ولا يعرف الأقدار غير ذوى القدر

ومن شعره :

لئن قدمت قبلى رجال فطالما ... مشيت على رسلى فكنت المقدما

ولكن هذا الدهر تأتى صروفه ... فتبرم منقوضا وتنقض مبرما

مصادر عن الجاحظ :

كتب عن الجاحظ الكثير من المؤلفات والبحوث والمقالات ، ومن بينها :

١ — الجاحظ معلم العقل والأدب لشفيق جبرى .
٢ — أدب الجاحظ للسندوبى .
٣ — أئمة الأدب الجاحظ لخليل مردم بك .
٤ — الجاحظ لفؤاد البستانى ـ الحلقة ١٨و١٩و٢٠ من سلسلة الروائع
٥ — رسائل الجاحظ ـ الحيوان ـ البخلاء البيان والتبيين ، وسواها من مؤلفات الجاحظ .
٦ — معجم الأدباء لياقوت ـ الجزء السادس ص ٥٦ .
٧ — نزهة الألباء للأنبارى ص ٢٥٤ .
٨ — وفيات الأعيان الجزء الأول ص ٤٩٠ .
٩ — الحياة الأدبية فى العصر العباسى لمحمد عبد المنعم خفاجى .
١٠ — شرح الإيضاح فى البلاغة « « «

وسوى ذلك من المراجع .

نقد وموازنات وتحليل

(١)

قال الكميت :

وَقِيلَ أَفْرَطْتَ ، بل قصدتُ ولو عَنَّفَنِي القائلونَ أو ثَلَبُوا
إليك يا خير من تضمنت الأ رضُ ، وإن عاب قَولىَ العُيَّبُ
لَجَّ بتفضيلك اللسان ، ولو أُكْثِرَ فيك الضَّجَاجُ واللَّجَبُ

يمدح الكميت بهذه الأبيات رسول الله محمدا صلوات الله وسلامه عليه :

وقد عاب الجاحظ هذه الأبيات ونقدها نقداً شديداً ، قال : « فمن رأى شاعراً مدح النبي صلى الله عليه فاعترض عليه واحد من جميع أصناف الناس ، حتى يزعم أن ناسا يعيبونه ويثلبونه ويعنفونه[١] .

ويدافع ابن رشيق[٢] ، والشريف المرتضى[٣] عن الكميت بأنه أراد مدح على بن أبى طالب كرم الله وجهه فورى عنه بذكر الرسول خوفا من بنى أمية ، وكذلك ذهب الآمدى إلى أنه أراد آل الرسول لا الرسول[٤] .

وهذا دفاع ضعيف لا يكاد ينهض بحجة ، والحق أن الكميت فى هذه الأبيات ضعيف الشاعرية ، مختل المعنى ، بعيد عن القصد ، ولأجل وقوعه فى هذا وماشابهه من أخطاء كان الأصمعى يعيب شعره ، ويقول إنه هو وذو الرمه[٥]

---

(١) البيان والتبين ١٧٢ ج ٢ ، وراجع فى ذلك ١٩٨ الموشح للمرزبانى
(٢) العمدة ١٥٢ و ١٦٣ ج ٢
(٣) ١٦٦ ج ٣ أمالى المرتضى
(٤) ص ٢٠ الموازنة .
(٥) شاعر أموى مجيد ، وخاصة فى الوصف والتشبيه ، توفى عام ١١٧ هـ .

كانا يستكرهان الشعر ، وكان ذو الرمة أحسن حالا عند الأصمعى من الكميت ، وكان الأصمعى يقول : كان الكميت من أهل الكوفة ، فتعلم الغريب وروى الشعر وكان معلما فلا يكون مثل أهل البدو ومن ليس من أهل الحضر ، وكان ذو الرمة مثله معلما بالبدو وكان يحضر اليمامة والبصرة كثيرا[١] ، وكان الأصمعى كذلك لا يعد الكميت حجة فى اللغة ويشرك معه فى ذلك الطرماح[٢] ، وكذلك كان رؤبة ينقدهما[٢] وقال أبو تمام فى الكميت : سألت خشافا عن الكميت وشعره فقال : لقد قال كلاما خبط فيه خبطا فهو لا يجوز عندنا ولا نستحسنه وهو جائز عندكم وهو على ذاك أشبه كلام الحاضرة بكلامنا وأعربه وأجوده . وكان خشاف من أهل البادية المتعصبين على الكميت .

ومهما كان فإن الكميت مخطىء فى هذا المدح أو الرثاء ، وكما قال المرزبانى فى الموشح : « انه لا يعيب قوله فى وصف النبى الله عليه وسلم إلا كافر بالله مشرك » .

(٢)

وقال الكميت :

وبُورِكَ قبرٌ أنتَ فيه وبُورِكَتْ به ولَهُ أهلٌ بذلك يثربُ
لقَدْ غَيَّبُوا بِرّاً وحَزْماً ونائلا عشيَّةَ واراه الصفيحُ[٣] المُنَصَّبُ

يرثى أو يمدح فى هذين البيتين محمدا صلى الله عليه وسلم ، فيدعو لقبره الشريف بالبركة ، ويدعو ليثرب مدينة الرسول بالخير كذلك ، ويذكر أن الصحابة غيبوا — حين غيبوا جثمانه صلوات الله عليه — البر والحزم والجود .

---

(١) ١٩١ و ١٩٢ الموشح للمرزبانى .
(٢) ١٩٢ المرجع نفسه .
(٣) هو حجارة عراض رقاق

ويرى الجاحظ أن هذا شعر يصلح فى عامة الناس(١) ، وهذا نقد مصيب ولا يشفع له أن الكميت أخذ البيت الثانى — الذى هو موضع النقد — من قول حسان بن ثابت :

لقد غَيَّبوا حِلْماً وعلماً ورحمةً عشيّةَ واروه الثرى لا يوسَّدُ

وما أهمية مدح الكميت للرسول بأن قبره قد غيب البر والحزم والنائل ، هلا وصفه بالنبوة والرسالة والوحى ، وبأنه نزل عليه القرآن وبأنه البشير النذير ، والداعى إلى الله بإذنه والسراج المنير .

(٣)

ويروى أن الكميت ونصيبا وذا الرمة اجتمعوا ، فاستنشد نصيب الكميت من شعره ، فأنشده الكميت قصيدته :

هل أنتَ عن طَلَبِ الأيفاعِ مُنْقلبُ أم هل يُحَسِّنُ من ذى الشيبة اللعب

حتى بلغ إلى قوله :

وقد رأينا بها حُوراً مُنَعَّمَةً بيضا تكامل فيها الدل والشَّنب

فعقد نصيب بيده واحداً ، فقال الكميت : ماهذا ؟ قال : أحصى خطأك ، باعدت فى قولك « الدل » و « الشنب(٢) » ألا قلت كما قال ذو الرمة :

لمياء فى شفتيها حُوَّةٌ لَعَس وفى اللثات وفى أنيابها شنب

وهذا النقد فى موضعه ، يريد نصيب أن الكميت اخطأ فى الجمع بين الدل والشنب إذ لا رابط يجمع بينهما فى الذهن أو الوهم أو الخيال . قال المبرد فى كتابه « الكامل » : والذى عابه نصيب من قوله : « الدل والشنب » قبيح جدا ، وذلك لأن الكلام لم يجر على نظم ، ولا وقع إلى جانب الكلمة ما يشاكلها ،

---

(١) ١٧٠ ج ٥ الحيوان والبيان ص ١٧٢ ج ٢

(٢) الدل : الدلال ، الشنب : ماء ورقة وبرد وعذوبة فى الأسنان .

وأول ما يحتاج إليه القول أن ينظم على نسق ، وأن يوضع على رسم المشاكلة(١) .

ويروى هذا النقد لذى الرمة لا لنصيب ، وأن ذا الرمة صاح فى الكميت : ما الدل من الشنب(١) ؟

(٤)

ويروى عن محمد بن سهل راوية الكميت قال : قدم ذو الرمة الكوفة فلقيه الكميت . فقال له : إنى قد عارضتك ـ ذا الرمة ـ فى قصيدتك ، قال ذو الرمة : وأى القصائد تقصد ؟ قال الكميت : قولك :

ما بالُ عينكَ منها الماء يَنْسكبُ كأنه مَنْ كُلَى مَفْرِيَّة سَرِبُ(٢)

قال : فأى شىء قلت ؟ قال : قلت :

هل أنت عن طلب الإيفاع(٣) منقلب أم هل يُحسِّنُ من ذى الشيبة اللعب

حتى أتى على هذه القصيدة ، فقال له ذو الرمة : ما أحسن ما قلت ، إلا أنك إذا شبهت الشىء لست تجىء به جيداً كما ينبغى ، ولكنك تقع قريباً ، فلا يقدر إنسان أن يقول أخطأت ولا أصبت ، تقع بين ذلك ولم تصف كما وصفتُ أنا ولا كما شبهتَ ، قال الكميت : أو تدرى لمذاك ؟ قال ذو الرمة : لا ، قال : لأنك تشبه شيئاً قد رأيته بعينك ، وأنا أشبه ما وصف لى ولم أره بعينى ، قال ذو الرمة : صدقت ، هو ذاك .

لقد كان ذو الرمة غيلان بن عقبة بن مسعود (٧٧ — ١١٧ هـ) شاعراً بدوياً جيداً فى وصف الصحراء والبادية والظباء والظليم والناقة وشتى مناظر البيداء ، إجادته فى وصف الأطلال والقفار والصخور والرمال والأعشاب والأشجار والحيوان وكل مشاهد الصحراء ، وكانت روعته فى وصفه تبدو

---

(١) راجع ١٩٤ الموشح للمرزبانى .

(٢) الكلى : الرقع تكون فى أصل عروة المزادة . المفرية : المقطوعة .

(٣) مصدر أيفع : إذا بلغ أو قارب سن الشباب

واضحة فى جودة تشبيهه ، وشـــدة إحساسه بما يصفه ، وإجادته فى رسم (لوحاته) الفنية الخصبة الممتعة ، مما ينم عن مقدرة فى التلوين والتظليل ونثر الأضواء ، مما لم يجاره فيه أحد من الشعراء المعاصرين له .

وذو الرمة هنا فى نقده للكميت يذكر أن الكميت لم يستطع أن يبلغ مابلغه هومن جودة فى هذا الباب ، باب الوصف والرسم والتظليل ، وذو الرمة هنا على حق فيما يقول ، وقد اعتذر الكميت اعتذاراً جميلا ، فذكر أنه يصف من مشاهد الصحراء ومناظرها ما لم يعاينه أو يره بعكس ذى الرمة الذى يصف مظاهر الحياة فى بيئته الصحراء ، ولا شك أن الإنسان حين يصف شيئاً أحس به من أعماق نفسه يكون أقدر على تصويره ووصفه ، فذو الرمة فى الحديث عن الصحراء وألوان الحياة فيها يعبر عن عاطفته وإحساسه وتأثره النفسى العميق بعكس الكميت فى هذا المجال .

وكذلك لا يبلغ ذو الرمة مبلغ الكميت فى الشعر السياسى ، والجدل الحزبى ، الذين يتفوق فيهما الكميت تفوقا كاملا .

(٥)

وعاب الجاحظ الكميت لقوله :

أرعـــد وأبرق يا يز   يد فما وعيدك لى بضائر

إذ ليس فى اللغة « أرعد وأبرق » ، وكان الأصمعى لا يقول فى الوعيد : « أرعد وأبرق » بل يقول : « رعد وبرق » ، ولم يقل فصيح قط ذلك ، فأرعد خطأ إذ لا يقال إلا : « رعد وبرق » .

وإن كان بعض اللغويين غير الأصمعى روى « أرعد وأبرق » على ضعف .

وهذا النقد اللغوى يكاد يكون على الصواب فيما قاله النقاد .

(٦)

وسمع الكميت قول ذى الرمة :

أعاذل قد أكثرت من قول قائل وعيب على ذى الود لوم العواذل

فصاح الكميت : هذا والله ملهم ، وما علمُ بدوى بدقائق الفطنة ، وذخائر كنز العقل المعد لذوى الألباب ، أحسن والله ، ثم أحسن .

ثم أنشده ذو الرمة قوله :

دعانى وما داعى الهوى من بلادها ـ إذا ما نأت خرقاء ـ عنى بغافل

وخرقاء : هى محبوبة ذى الرمة ، فقال الكميت : لله بلاء هذا الغلام ، ما أحسن قوله ، وما أجود وصفه ، ولقد شفع البيت الأول بمثله فى جودة الفهم والفطنة ، وقال قول مستسلم .

وهذا يدل على إنصاف الكميت فى النقد وتمييز الجيد من الردىء من الشعر ، ولا بدع أن يكون الكميت على مثل ذلك ، وهو الذى ألم بالكثير من آداب العرب وأشعارها ، حتى ليروى أنه جلس هو وحماد الراوية فى مسجد الكوفة ، يتذاكران أشعار العرب وأيامها ، فخالفه حماد فى شىء ونازعه ، فقال له الكميت : أتظن أنك أعلم منى بأشعار العرب وأخبارها ؟ قال : وماهو الظن ، هذا والله هو اليقين ، فغضب الكميت ، ثم قال له : لكم شاعر بصير يقال له عمرو بن فلان تروى ؟ فقال حماد قولا فيه تهكم ، فجعل الكميت يذكرهم رجلا رجلا من صنف صنف . ويسأل حماداً : هل يعرفه ؟ فإذا قال: «لا» أنشده جزءاً جزءاً حتى ضجر الناس الذين فى المجلس . وأفحم حماد .

(٧)

وقال يموت بن المزرع بن يموت :

حدثنى أبى قال :

إنى لفى يوم من أيامى بالمربد ، إذ أقبل رجل على راحلة ، فتشوف له

الناس ، فقلت : من هذا ؟ قالوا : محمد بن مناذر ، فعدلت إليـــه فقلت :
سلام عليك يا أبا عبد الله ، قال : ومن أنت ؟ قلت : أنا ابن يموت العبدى ،
قال : كيف حالك ؟ قلت : بخير ، قال : من شاعر العراق اليوم ؟ قلت :
الحسن بن هانىء ، قال : أف لك وهو الذى يقول :

فلو قد زرتنا بين سمـــاع وقواقيز
شربنا أبدا صرفا على وجهك بالكوز

أف لكم ، قلت : أبا عبدالله ، إن فى الحسن دعابة ، وهو الذى يقول :

ذرينى أكثر حاسديك برحـــلة
إلى بلد فيـــه الخصيب أمـــير

فقال لى : خير هذا بشر ذاك .

صور من الشعر الأموي والعباسي

ألوان من الغزل الأموي

(١)

ابن الدمينة في داليته المشهورة

قال ابن الدمينة عبد الله بن عبيد الله العامري التيمي الشاعر الأموي المشهور[١] يحن إلى نجد :

ألا يا صبا نجد متى هجت من نجد؟ ... لقد زادني مسراك وجدا على وجد[٢]
أأن هتفت ورقاء في رونق الضحى ... على فنن غض النبات من الرند
بكيت كما يبكي الوليد ولم تكن ... جزوعا وأبديت الذي لم تكن تبدي[٣]

---

(١) شاعر من شعراء بني أمية رقيق النسيب ، مجيد في الغزل ، مشهور في روائع قصائده الغزلية . والدمينة أمه .

(٢) الصبا : القبول . وهي تهب من قبل الشرق ، وهجت: ثرت. ومسراك: سيرك . يقول : متى هببت أيتها الريح فقد زادني سيرك شوقا وجددلي هبوبك ما كنت أقاسيه من تباريح الغرام والوجد .

(٣) يخاطب نفسه لائما لها ومنكراً عليها فيقول : أتبكين بكاء الصبي وتظهرين الجزع ، لأن حمامة سجعت على غصن ضحى وعهد الناس بك أنك جلد دائم الصبر . وهتفت : صاحت . وورقاء حمامة في بياضها سواد ، ورونق الضحى حسنه . والفنن الغصن الغض الناضر الطري ، والرند ضرب من الشجر . ومعنى البيتين : أتبكي كما يبكي الحزين أو الطفل الوليد لأنك سمعت ورقاء تهتف في الضحى على أليفها الحبيب ، وقد كنت ليس من عادتك البكاء أو الحزن .

وقد زعموا أن المحب إذا دنا   يمل ، وأن النأى يشفى من الوجد(٥)
بكل تداوينا فلم يشف مابنا   على أن قرب الدار خير من البعد
على أن قرب الدار ليس بنافع   إذا كان من تهواه ليس بذى ود

تحليل ودراسة :

فى هذه الأبيات تبدو خصائص الغزل الأموى واضحة من الرقة والعذوبة والجمال ، وفرط الصبابة ، ولوعة الهيام ، وكثرة إرسال العبرات .

والغزل يتطلب الرقة والعذوبة ، وقد كان ابن الدمينة هنا موفقاً فى اختيار ألفاظه وأساليبه ، التى تمثل قلباً آده الحب ، وصدراً انطوى على أنبل العواطف الإنسانية وأكرمها ، وكأنما كان ابن الدمينة فى هذه الأبيات ممثلا لتأثير الإسلام والقرآن فى الأدب ، فإن هذه الروحية الصادقة ، وتلك العاطفة المشتعلة ، وهذه المشاعر المؤثرة ، كل ذلك أثر من آثار روحية الإسلام وتأثيره الشديد فى نفوس الشعراء .

يحن الشاعر إلى نجد ، ويبكى لفراق أحبابه ، ويصبو إليهن فيه ، ومن ثم استقبل صبا نجد ، وسألها عن وقت هبوبها من هذا الوطن الحبيب ، وبثها ما حملته نفسه من وجد على وجد ؛ ومن شأن المحب المفارق أن يقف على السبل ، يتنسم الريح ، ويستنشى بها عند ما تهب عليه قادمة من ديار أحبابه ؛ يؤثر مسراها فى نفسه وأعماق وجدانه .

---

(٥) أى زعم الناس أن الدنو من المحبوب وطول الإقامة معه يورث المحب ملالا وأن النأى عنه يحدث فى النفس سلوا ، وقد تداوينا بكل واحد من ذلك فلم ينجع الدواء وتفاقم الداء إلا أنى وجدت القرب خيراً من البعد لأن فيه إحياء للأمل ، على أن تقارب الدار لايجدى شيئا إذا كان المحبوب لايرعى ودا ولايحفظ عهداً .

ولولا سذاجة الخيال فى شعر ابن الدمينة لظننا أنه شاعر مترف متحضر ؛ ومن مظاهر هذه السذاجة قوله : « بكيت كما يبكى الوليد » . ومن مظاهر الترف والجمال فى الألفاظ قوله : هتفت ورقاء — رونق الضحى — فنن غض النبات ؛ إلى غير ذلك كله .

ومن مظاهر هذه السذاجة كذلك وصفه لحيرته ، حيرة هذا المحب المحروم ممن يحب ، على البعد والقرب على السواء ، وذلك فى بيته : « وقد زعموا » والبيت الذى يليه .

(٢)

الصمة بن عبد الله القشيرى

الصمة بن عبد الله القشيرى شاعر غزل عفيف مقل نشأ بالبادية فتربى على الشجاعة والمروءة وعزة النفس ودرج فى معاهد الصبا مع ابنة عمه ريا فأحبها وكلف بها ، ثم خطبها إلى أبيها فاشتط فى المهر ، وركب أبوه رأسه فأبى أن يدفع المهر كاملا ، وتمادى الشيخان فيما ذهبا إليه ، فرأى الشاعر المتيم أن الإقامة بينهما لؤم ، وعزم أن يرحل إلى الشام لعل النأى عن دار الأحبة يسليه عنهم ويشفيه من جوى الحب ، فلما كان فى بعض الطريق ووجد دارها قد غابت واعترضت الجبال بينهما وتحركت بنات الشوق وهتفت دواعى الصبابة كاد قلبه يطير وكبده من شدة الوجد تذوب ، وقال هذه الأبيات التى تعبر عن الحزن العميق والداء الدفين . وسنعرض هذه الأبيات أولا ثم نعود إلى دراستها وتحليلها .

قال الصمة بن عبد الله القشيرى :

حننت إلى ريا ونفسك باعدت ... مزارك من ريا وشعبا كما معا
فما حسن أن تأتى الأمر طائعاً ... وتجزع أن داعى الصبابة أسمعا(١)
قفا ودعا نجدا ومن حل بالحمى ... وقل لنجد عندنا أن يودعا(٢)

---

(١) الحنين : ألم الشوق . المزار مكان الزيارة . والشعب : القبيلة .. وحسن مبتدأ . أن تأتى فاعل سد مسد الخبر ويجوز أن يكون مبتدأ وحسن خبره . وقوله أن داعى الصبابة : أن مخففة من الثقيلة واسمها ضمير الشأن وداعى الصبابة أسمع خبره . ومعنى البيتين : حننت إلى ريا وأنت آثرت البعد عنها وليس بجميل أن تختار الفراق طائعاً ثم تجزع لأن داعى الشوق أسمعك وحرك منك مشاعرك .

(٢) يخاطب رفيقيه فى السفر ويسألهما أن يقفا لتوديع نجد وساكنى الحمى منه ، ثم قال : قليل لنجد وساكنيه التوديع لأن حقهما أعظم من ذلك . والحمى :

بنفسي تلك الأرض ما أطيب الربا ... وما أحسن المصطاف والمتربعا
وليست عشيات الحمى برواجع ... عليك ولكن خل عينيك تدمعا
ولما رأيت البشر أعرض دوننا ... وجالت بنات الشوق يحنن نزعا[١]
بكت عيني اليسرى فلما زجرتها ... عن الجهل بعد الحلم أسبلتا معا
تلفت نحو الحي حتى وجدتني ... وجعت من الإصغاء ليتاً وأخدعا[٢]
وأذكر أيام الحمى ثم أنثني ... على كبدي من خشية أن تصدعا

دراسة وتحليل للقصيدة :

هي من اختيارات أبي تمام ، صدر بها باب النسيب ، وهي جديرة بالمكان الأول من هذا الباب ، وهي على قلة أبياتها تصور لك الحنين إلى الإلف وحيرة نفوس المحبين وتمثل العادات العربية التي تثني على الصبابة وتتحكم فيها الخيلاء الكاذبة وتعبر عن شعور المرء بالكرامة وتحمله في سبيل هذه الكرامة مالا يطيق من الآلام .

موضع فيه ماء وكلأ يمنع منه الناس . والمعنى : « وليست عشيات الحمى برواجع عليك ، إنك وإن أفرطت في الجزع فان أيام وصلك لا تكاد تعود فتوجع لها وابك في آثارها تجد في البكاء راحة مما تعاني من الوجد ومن حرقة الحب .

(١) البشر جبل . وأعرض : أبدى عرضه . وجالت تحركت ، وبنات الشوق مسبباته ، والمعنى لما تباعدنا عن نجد وحجز بيننا وبينه هذا الجبل وتحركت بنات الشوق نوازع كثيرة الحنين ، بكت عيني الصحيحة وهي اليسرى ، فلما سألتها أن تكف شاركتها أختها في البكاء وأشار بهذا إلى عصيان نفسه عليه وأن اللوم يزيدها تماديا .

(٢) الليت صفحة العنق . والأخدع عرق فيها . يقول مازلت ألتفت نحوهم حتى وجدتني وجع العنق ، وانتصب ليتاً على التمييز ، ثم قال : وأتذكر أوقاتي بالحمى حين كان الدهر مسعدا والحبيب مسعفا مقاربا ثم أنثني على كبدي واضعا يدي عليها مخافة تصدعها ، شوقا إلى وصالها وحسرة على مافاتني منها .

يجتمع فى هذه المقطوعة من العواطف النبيلة والمشاعر الكريمة مالا يجتمع فى قصائد طويلة فليس هنا بيت من أبياتها إلا وهو يعبر عن الأسى والوفاء والحنين والرجاء والطمع واليأس إلى غير ذلك مما يستوجب إعجابك ويستثير رحمتك ويلين ما قسى من قلبك ، فتعجب لهذه النفوس الأبية التى تقسو على قلوبها وتملك ماجمح من عواطفها وتتحمل الألم ، لاترجع باللائمة على سواها ، وتترك البلد الطيب والحبيب الموافى من أجل آباء غلاظ الأكباد يتحكمون فى مصائر أبنائهم من غير تقدير للظروف التى تمر بهم ويبلغ من قسوتهم أنهم لاينظرون إلى أخطائهم فيعالجوها وإلى ماضيهم أنفسهم فيحكموه فيما شجر بينهم وبين هؤلاء الأبناء من خلاف .

تمثل هذه الأبيات لك نفوساً كريمة حكم عليها القضاء ولعبت بها الأهواء فخرجت من ديارها ونزحت عن أوطانها وغلبها حنين لايدفع ولوعة من أثر الفراق لاتغالب وأصحابها لايملكون إلا أن يرســـلوا عبرات تخفف عن نفوسهم ألم الحب وتطفىء ما يتقد بين جوانحهم من نار الفراق .

والشاعر فى هذه الأبيات لايلجأ إلى الخيال ليؤثر عليك بل يندر أن تجد فيها صورة خيالية ، إنما اتخذ الحقيقة وسيلة للتعبير عن معانيه وهى مع ذلك تؤثر فينا تأثيراً قويا لصدقها فى التعبير عن شعور صاحبها وقرب معانيها من نفوسنا وعذوبة ألفاظها على ألسنتنا وحسن نغمها وجمال جرسها فى مسامعنا ولتصويرها نفسا معذبة صهرتها الآلام ومحصتها تباريح الغرام ، فسمت بها عن أوضار المـادة وكتبت لهـا الخلود فى دنيا الفضائل والآداب .

(٣)
نصيب فى قصيدة مشهورة

قال نصيب :

كأن القلب ليلة قيل يغدى	بليلى العامرية أو يراح
قطاة عزها شرك فباتت	تجاذبه وقد علق الجناح
لها فرخان قد تركا بوكر	فعشهما تصفقه الرياح
إذا سمعا هبوب الريح نصاً	وقد أودى به القدر المتاح
فلا فى الليل نالت ما ترجى	ولا فى الصبح كان لها براح

تحليل قصيدة نصيب :

هذه قطعة تصور لك قلب المحب وقد راعه ما بلغه من ان المحبوب سيرحل فى وقت الغداة أو وقت العشى ، فقلبه فى نهاية الاضطراب، فهو كقطاة أصارها الدهر على حكمه من طلاقة وأمن إلى أسر وخوف يقطع أحشاءها ويمنعها نومها ، ومن حرية كانت تلهو بسربالها وتنعم بالعيش فى ظلالها وتطير فى جو السماء لايمسك لها ولا سلطان عليها ، إلى رق وهوان ينغص العيش ويكدر صفو الحياة ويدنى من أسباب الممات ، نعم إلى شرك غلبها وأمكنه منها قدر متاح فباتت تكابده وتسعى جهدها فى الخلاص وقد عز الخلاص حين حم القضاء فعلق الجناح . ومما زاد فى حزنها وأهاب بهمومها تركها فرخين بمهب الرياح ، قد افتقدا الكاسب وعجزا عن النهوض ، فان غفلت أمسكت وإن ادكرت عادت إلى المعالجة وعاودت الجذب والرجاء ولكن الأقدار غالبة على أمرها :

فلا فى الليل نالت ماترجى ولا فى الصبح كان لها براح

تعرف الآن الأشباه والنظائر ، وقسها بعضها ببعض ، وعليك الفهم فيما يعرض عليك .. ولنبدأ بقول عروة بن حزام :

إذا كبدانا خافتا وشك نية | وعاجل بين ظلتا تجبان
فيا كبدينا أجملا قد وجدتما | بأهل الحمى مالم تجد كبدان
كأن قطاة علقت بجناحها | على كبدى من شدة الخفقان

ابدأ بها واجمع لها فكرك ثم أردفها بهذين البيتين :

أسد على وفى الحرب نعامة | ربداء تجفل من صفير الصفافر
هلا برزت إلى غزالة فى الوغى | بل كان قلبك فى جناحى طائر

كلهم أراد اضطراب القلب خوفا ، وكلهم اعتور المعنى فأجاد ، وسلك الشاعران الغزلان فى تصوير المعنى طريقة التشبيه فبلغ كلاهما ماأراد ، إلا أن عروة قصر عن صاحبه ، فكلاهما شبه قلبه بقطاة علق منها جناح ونجا من العلق جناح ، فهى تكثر الحركة للطليق لأن همها أن تعتق من ربقة الأسر إلا أنها قد يدركها اليأس فتذعن للأسر وتوطن النفس عليه ، لكن قطاة قيس يأبى لها اليأس والإذعان قلب غادرته رهيناً بأوكار وأفلاذ كبد خلفتها عرض الأرواح وهدف الخطوب ، فحركتها مستمرة وأتراحها مهيجة .

(٤)

مجنون ليلى فى رائية له فى الغزل

قال المجنون :

سلبتِ عظامى لحمها فتركتِها | مجردةً تضحى إليكِ وتخصرُ
وأخليتِها من مخها فتركتِها | قواريرَ فى أجوافها الريحُ تصفرُ
إذا سمعت باسم الفراق تقعقعت | مفاصلها من هول ما تتنظرُ
خذى بيدى ثم ارفعى الثوب فانظرى | بى الضر إلا أننى أتستر
فما حيلتى إن لم تكن لك رحمة | على ولالى عنك صبر فأصبر
فوالله ما قصرتُ فى ما أظنه | رضاكِ ولكنىّ محب مكفر

دراسة هذه القطعة :

وصف المجنون ما فعل الهوى به وما صار إليه من الهزال وسوء الحال فقال : أذبت الشحم وأذهبت اللحم وتركت عظامى مجردة من وقاء يدفع أذى البرد ، وكنت لا أبالى بالريح فى تصرفها ، وأخليتها من مخها الذى يحفظ عليها حياتها ويمنحها قوتها ، فأصبحت كأنها قوارير إذا هبت عليها الرياح صفرت لأنها مجوفة خالية وإذا سمعت باسم الفراق اصطكت مفاصلها وتقطعت علائقها من هول ماتتوقع من الخطب الفادح وإن أردت أن تتبينى ما أنا فيه من بلاء فانهضى تشاهدى ما وصفت لك مما يثير عطفك ويستدر حنانك وقد ضعفت حيلتى لأن فؤادى لايستطيع سلوا عنك وقد خلا قلبك من رحمة لمحب متيم أضناه الهوى وليس فى صحيفتى ما أستحق به هذا العذاب :

فوالله ما قصرتُ فيما أظنه   هواكِ ولكنىَّ محب مكفَّر

وقد أجاد المجنون فى وصف ضره وهزال جسمه من أثر الحب والفراق ، وقد قال الشـــعراء فى وصف النحافة وأطالوا ، ومن أروعهم تصويراً قول جميل :

ولم أر ليلى بعد موقف ساعة   ببطن منى ترمى جمار المحصب
ويبدى الحصى منها إذا قذفت به   من البرد أطراف البنان المخضب
فأصبحت من ليلى الغداة كناظر   من الصبح فى أعقاب نجم مغرب
ألا إنما غادرتِ يا أمَّ مالك   صدى أينما تذهب به الريح يذهب

أسعده الزمان فلف شمله بليلى فى منى حين كانت ترمى الجمار ، فتلاعبت بعقله حركاتها اللذيذة وأناملها المخضوبة ، فتراه ذاهل العقل مشترك اللب ، وماهى إلا ساعة من نهار حتى فرق بينهما السفر ، فراعه إبلهم مزمومة وجماعتهم مسرعة فأتبعهم بصره ولا يستطيع الدنو منهم لأن حولها حراساً شدادا ، فهو كالناظر إلى النجم دانيا لمغيب ، فكان متاع قليل من مفارق أورث حزنا

طويلا ، ووكل به شقاء لازما وأعقبه حسرة لا تدفع ولوعة لا ترد ، وأبقى شيئاً يبيح الأسماع ما يمنع العيون :

ألا إنما غادرت يا أم مالك صدى أينما تذهب به الريح يذهب

أترى فى هذا الكلام ساقطاً سوقياً أو غريباً وحشياً يمجه سمعك وينبو عنه ذوقك ؟ ألست ترى له صلة بالنفس وعلقاً بالقلب وبلوغاً للغرض ؟ مع القصد فى المعنى واللفظ ، وهو إن أسرف فى البيت الأخير فإن الهوى يخرجه من حد الإسراف إلى حد الاستطراف ويجعله فى باب النادر المفرد والبارع المستجاد ، وما أشوق الأدب إلى مثل هذه المبالغات التى يتولاها مبدع فيجيد صوغها فيكون لها موقع من القبول باهر ومدخل إلى النفوس ساحر ، فليبالغ المحبون وليصفوا ألم نفوسهم وما يتداخلها من هموم وأحزان ويعتريها من لواعج الشوق وتباريح الغرام . . إنك لتحس فى مثل هذه الأبيات وفى التى قبلها حرقة ومرارة ترق لها منها وتعطف عليهما من أجلها ، وما ذاك إلا لأنك حين تتلوها على نفسك تتمثل إنساناً شفه الشوق وأزهق مهجته العشق وانقاد للصبابة فلعبت بعقله الأهواء واختلفت بلبه الميول ، فأصبح عبداً ، فكره فى هواه وأمنيته فى رضاه .

الشـــاعر

رأس مدرسة من مدارس المحدثين :

هو أبو تمـام حبيب بن أوس الطائى ، يعد رأس الطبقة الثالثة من المحدثين ، وصاحب الطريقة التى تؤثر المعنى وتحتفل به وتتعمد الإكثار من البديع انتهت إليه زعامة الشعر فى عصره فلم يكن أحد من الشعراء يستطيع أن يجرى معه فى ميدان ، وحسبك أن البحترى سئل عن نفسه وعن أبى تمـام فقال : إنما أكلت العيش به .

نشـــأته :

ولد بقرية جاسم على ثمانية فراسخ من دمشق عام تسعين ومائة من الهجرة ، ثم انتقل إلى مصر صغيرا فكان يسق الماء بجامع عمرو وكان المسجد إذ ذاك معهدا تدرس فيه العلوم والآداب فعكف على العربية يرويها ويدرسها حتى حفظ الكثير من شعر العرب ، ونبغ فى قرض الشعر ، ثم خرج إلى بغداد فمدح المعتصم ووزيره ابن الزيات والحسن بن وهب صاحب ديوان الرسائل ، ثم ولاه الحسن بريد الموصل فأقام بها إلى أن مات سنة إحدى وثلاثين ومائتين من الهجرة .

القصـــيدة :

هى فى الرثاء ، وهو أوسع فنون الكلام مجالا وأحفل أبواب الأدب بالحكمة ، وأحرى أن تجد فيه الخبر النادر والمثل السـائر والموعظة البالغة ، والمرثى قائد عظيم طالمـا خرج إلى القتال حميداً ورجع مظفراً منصوراً ، ذلك القائد هو محمد بن حميد الطوسى من بنى نبهان قبيلة من طيء التى ينتسب إليها الشاعر .

خرج هـذا الشاعر لمحاربة بابك الخرمى رئيس الطائفة المنسوبة إليه الخارجة على الخلفاء ، والتى ملأت الأرض فساداً ، وامتدت ثورتها من عهد

المأمون إلى عهد المعتصم ، ولم يحالف الحظ القائد فى هذه المعركة فقتل سنة ٢١٤ هجرية فرثاه أبو تمام بهذه القصيدة .

تحليل القصيدة :

بدأ القصيدة فعظم من شأن الخطب ووصف العيون التى لا تفنى ماء شئونها بالبخل ، ونسبها إلى التقصير ، فقد مات عميد الناس فى كل نائبة وموضع آمال العفاة والبائسين ، وذكر أنه مات مجاهداً فسهل موته السبيل إلى غزو البلاد وأنه طالما رجع من الغزو مظفراً منصوراً فأطلق ألسنة الشعراء بالثناء عليه وترك وراءه عيوناً دامية تبكى قتلاها وتنعى موتاها ، وأن هذا المرثى قضى عمره بين يومين : يوم يقتل فيه الأعداء ويوم يحسن فيه إلى الفقراء :

فيومٌ لإلحاق الفقير بذى الغنى ويومٌ رقابٌ بُوكِرَتْ لِحَصادِ

ثم اعتذر عنه بأنه لم يقتل حتى أبلى بلاء حسنا ، وحتى تعطلت آلات القتال فتثلمت السيوف وتكسرت الرماح ، وكانت السبيل إلى النجاة ميسورة والهرب من الموت ممكناً ، ولكنه آثر جميل الذكر وحسن الأحدوثة ما بقى الدهر ، ورأى صبراً على الموت أكرم ، وأن وقوف ساعة فى ساحة الموت تعقب حمداً وتورث مجداً :

وإذا لم يكن من الموت بد فمن العجز أن تموت جبانا

لقد عاش البطل جليداً ، وغدا إلى المعركة حميداً ، وسقط فى ساحة المجد شهيداً ، فما أتى الليل إلا وهو ينعم مع الشهداء فى دار الخلود . . ثم أقبل على عشيرته الأقربين يواسيهم فذكر أن الرزء عام والمصيبة شاملة حتى إن الفضائل تندبه وتبكى عليه وإن كان الصبر غير مستطاع فقد ذهب بذهابه ومثله لا ينسى لأنه كان كريم النفس عظيم الخلق رضى العشرة يغضى حياء وتواضعاً .

ثم تعجب من الحرب كيف تقتل مسعرها ، ومن الفوارس كيف تنتهك محاميها وذكر أن آلات القتال فقدت من يحسن استعمالها ويظهر فى الحروب مزيتها ، وأن الكرم ذهب من الناس فقد قطعت أصوله . وذبلت أوراقه ،

ومص الثرى بقية الماء من العود فأصبح هشيما تذروه الرياح . ثم وصف العيش بعده بأنه مر لا يطاق ، والحياة بغيضة يهرب المرء منها ويتمنى الموت من أجلها ، وقد كانت فى أيامه كريمة سعيدة ينعم الناس فى ظلالها ويتساقون كؤوس السعادة فى جنباتها . لكنها الأيام لا تؤمن فجعتها ولا تدوم حبرتها . . ثم ذكر أن الفجيعة عمت العرب جميعاً فهم مأجورون فيه ومعزون به ولا تزال المنايا تختار من يعم رزؤه ويجل مصابه ، ثم سأل الغيث أن يتعهد قبره بالسقيا ، ولكنه عاد فأنكر ذلك على نفسه لأن فى القبر البحر الذى تنشأ عنه هذه الأمطار ، وسأل الله فى ختامها أن ينزل رحماته عليه وتأسّ بأن عادة الموت أن ينزل بالكرام ، ويكلف بكل شريف .

نقد وموازنة :

لقد أخذ نقاد الأدب على أبى تمام مآخذ كثيرة : منها رداءه مطلعها وأنه سرق جل معانيها ، وحذا حذو كثير من الشعراء فى خيالها . ذكروا أنه أخذ قوله :

كأن بنى نبهان يوم وفاته

من قول صفية الباهلية :

كنا كأنجم ليل بينها قمر

وقوله :

أمن بعد طى الحادثات محمدا

من قول أبى نواس : « طوى الموت ما بينى وبين محمد »

وقوله :

لئن عظمت فيه مصيبة طىء

من قول عبد الله بن أيوب :

جلت رزيته فعم مصابه

وقوله :

توفيت الآمال بعد محمد

من قول مكنف السلمي يرثي ذفافة :

روى الأغاني قال قال محمد بن موسى كنا عند دعبل فذكرنا أبا تمام فثلبه وقال : هو سروق للشعر ، ثم أخرج دفتراً فإذا فيه : قال مكنف السلمي يرثي ذفافة العبسي :

ألا أيها الناعي ذفافة ذا الندى ... تعست وشلت من أناملك العشر
إذا ما أبو العباس خلى مكانه ... فلا حملت أنثى ولا مسها طهر
ولا أمطرت أرضاً سماء ولا جرت ... نجوم ، ولا لذت لشاربها الخمر
كأن بني القعقاع يوم وفاته ... نجوم سماء خر من بينها البدر
توفيت الآمال بعـــد ذفافة ... وأصبح في شغل عن السفر السفر
يعزون عن ثاو تعزى به العلا ... ويبكي عليه المجد والبأس والشعر
وما كان إلا مال من قل ماله ... وذخرا لمن أمسى وليس له ذخر

وذلك إسراف منهم في النقد ، وتحامل لا يقوم في بعضه على أساس ، فإن هذه المعاني مشتركة بين الشعراء ، وليس أحد أولى بها من غيره ، ولا ننسى أن دعبلا كان منافساً لأبي تمام معاصراً له وبينهما من الخصومة ما يدعونا إلى الشك في خبره ، وأبو تمام شاعر وراوية سن للناس طريق اختيار الشعر وحفظ منه مالم يحفظه أحد ، فإذا جرى في شعره من معاني المتقدمين وأساليبهم وأخيلتهم فذلك راجع إلى كثرة محفوظه وانطباع الصور في شعوره ، لا إلى سرقة متعمدة ألجأه إليها جدب في تفكيره أو إملاق في لغته . . وأبو تمام الرجل الذي يخضع اللغة لمعانيه العميقة وأخيلته المبتكرة ويأتي بالنائي البعيد فيدنيه منك ويقربه إليك وقد تجد عسراً في بلوغ مرامه لكنه على كل حال لا تعوزه المادة ولا تشعر باستجدائه وقصور باعه لكن ذلك لا يعفيه من المؤاخذة ، فقد أخذ بيت صفية ونقله إلى شعره بمعناه وأكثر ألفاظه وقصر عن

اللحاق به مع احتذائه له وأخذه منه ، وكذلك أيضاً تقصيره عن سبقه من الشعراء فى قوله : رأيت الكريم الحر ليس له عمر .

قال طرفة :

أرى الموت يعتام الكرام ويصطفى   عقيلة مال الفاحش المتشدد

وقال الباهلى :

وقالوا ماجداً منكم قتلنا   كذاك الرمحُ يكْلَفُ بالكريم

وقال الخارجى : إن الشراة قصيرة الأعمار .

وقال هو فى قصيدة أخرى فبلغ الغاية :

إن نبتخل حدثان الموت أنفسكم   ويسلم الناس بين الحوض والعطن

فالماء ليس عجيباً أن أعذبه   يفنى ويمتد عمر الآجن الآسن

فرفع التمثيل من شأن المعنى وبوأه من النفوس موضعاً مرضياً ، واحتج لذلك احتجاجا مقبولا .

وكنت أود أن يتحدث فى قصائد الرثاء إلى الناس فى سهولة ويسر ، وأن يعدد مناقب المرثى ، دون احتفال بالصنعة أو إسراف فى التماس وجوه البديع ، وكان ينبغى أن يشغله الحزن عن توخيها وتوفير العناية عليها ، ويندر أن تجد بيتاً من أبياتها خالياً من صنعة ، ولكنها متينة رائعة تدل على مهارة فائقة وحذق عجيب .

انظر إلى هذه الاستعارات الجميلة : توفيت الآمال . فاضت العيون دما . ضحكت الأحاديث . مات مضرب سيفه . ثياب الموت . يبكى عليه البأس . استشهد الصبر . على الحادثات عتاداً . شجرات العرف . سق الغيث غيثاً . فى لحده البحر . يحيا به الثرى .

والطباق فى مثل : بكت ، وضحكت ، وطى ، ونشر ، وأبغض ، ويحب ، ألبست ، وعريت ، وبدو ، وحضر ، وحمر ، وخضر .

والجناس فى مثل : اثغر الثغر ، مضرب سيفه من الضرب . بواتر وبتر .

إلى غير ذلك من ضروب البديع الذى كان معنياً به ومتوافراً عليه ، وكان يخرجه أحياناً إلى التكلف : كاثغر الثغر مثلا ، أراد أن يجانس فوقع فى هذا الثقل ، ومثله من قصيدة أخرى له :

قرت بقران عين الدين وانشترت
بالأشترين عيون الشرك فاصطلما

وأختم الكلام عن هذه القصيدة بالوقوف عند أبيات منها والموازنة بينها وبين أخرى من معانيها :

قال أبو تمام :

وقد كان فوت الموت سهلا فرده
إليه الحفاظ المر والخلق الوعر
ونفس تعاف العار حتى كأنما
هو الكفر يوم الروع أو دونه الكفر

وقالت الحماسية :

أبوا أن يفروا والقنا فى نحورهم
وأن يرتقوا من خشية الموت سلما
ولو أنهم فروا لكانوا أعزة
ولكن رأوا صبرا على الموت أكرما

مما لا شك فيه أن أبا تمام أخذ منها وقصر عنها ، لأن محصول كلامه أن الفرار كان ممكناً ولكن كان يلزمه العار فأبت نفسه الدنية ، فردها إلى الموت .

ومحصول كلامها أنهم أبو الفرار والموت يهجم عليهم ويأخذ بنفوسهم وسلم النجاة بأيديهم والفرار لا عار فيه لأنهم أعذروا بل هو عزة وكرامة ،

[illegible] فرق بين من ثبت لأن الفرار عار ، وبين من صبر على الموت مع أن الموت لا عار فيه .

ومن ناحية الأسلوب فقد استعمل لغة الفقهاء فى الشعر حين قال : (هو الكفر أو دونه الكفر) ، وفيها طول . وكان يكفى أن يقول : ردته نفسه التى تأبى العار . . . وكلمة ردته تدل على أن نفسه همت بالفرار فردها عنه وكلمة يوم الروع حشو مع ما فى تكرار الراء والعين من الثقل .

والقصيدة فى جملتها من عيون قصائد الرثاء ، سمعها عبدالله بن طاهر فقال : « وددت أنى كنت المرثى بها » .

شاعرية أبي نواس في قصائد

من روائع شعره

أبو نواس الحسن بن هانىء (١٤٥ — ١٩٨ هـ) من شعراء الدولة العباسية ، نشأ فى البصرة ، ثم تحول إلى الكوفة ، وأخذ عن والبة بن الحباب ، وكان والبة شاعراً ماجناً شراباً للخمر وصافا لها ، ثم انتقل إلى بغداد . وفاق أبو نواس أهل عصره فى وصف الخمر ، وكان مستهتراً كأستاذه ، همه الانبعاث فى الشهوات وقرض الشعر فى أبواب الخلاعة ، ولقد أجاد فى جميع فنونه ، وهو من الشعراء القادرين على التصرف فى الشعر ، مع متانة الأسلوب وجزالة اللفظ وسلامة النظم ، ويعد من مفاخر العربية والمحسنين إليها . وتوفى سنة ١٩٨ هجرية .

ويغنينا فى دراسة شاعرية أبى نواس أن نعرض ثلاث قصائد من روائع شعره فى هذا المجال لنأخذ منها حكما عاما على شعره وشاعريته ، ولنستدل بها على مكانته فى الشعر بين المحدثين من شعراء عصره .

— ١ —

رائية أبي نواس المشهورة فى المدح

قال أبو نواس يمدح العباس بن عبيد الله بن أبى جعفر المنصور :

أيها المنتــاب من عفره لست من ليلى ولا سمره[١]

---

(١) المنتاب : القاصد المتردد عليك ، والعفر بضم فسكون وبضمتين : طول العهد ، والسمر : حديث الليل خاصة ، يتبرأ منه . . والمعنى : أيها الزائر بعد زمان طويل لست من سمارى فى ليلى .

لا أذود الطير عن شجر   قد بلوت المر من ثمره(١)
قد لبست الدهر لبس فتى   أخذ الآداب من غيره(٢)
فاتصل إن كنت متصلا   بقوى من أنت من وطره(٣)
خفت مأثور الحديث غداً   وغداً أدنى لمنتظره(٤)
خاب من أسرى إلى بلد   غير معلوم مدى سفره(٥)
وسدته ثنى ساعده   سنة حلت إلى شفره(٦)
فامض لا تمنن على يداً   منك المعروف من كدره(٧)
رب فتيان ربأتهم   مسقط العيوق من سحره(٨)

( ) يقول : لا أمنعك من الاتصال بهذه المرأة التي خانتني وستلق هـذا المصير ، والبيت من قبيل الاستعارة التمثيلية .

(٢) أي صاحبت الدهر حتى تعلمت من حوادثه ، وغير الدهر : أحداثه .

(٣) الوطر : الحاجة . والقوى : الأسباب والحبـــال ، أي اتصل بمن تحب الاتصال به غيرى فليس بيننا سبب .

(٤) المأثور : المروى . أي خفت ما يرويه الناس من الأحاديث السيئة في غد ، وإن غداً لقريب .

(٥) الخيبة : ضد النجاح . والإسراء : السير ليلا . والمدى : الغاية ، والمعنى : خاب من سار على غير هدى ومن لم ينظر في العواقب .

(٦) الشفر : منبت الشعر من الجفن ، والسنة : النوم الخفيف ، وهـذا تكميل لمـا قبله ، يصف السارى المسافر بأن النوم يحمله على أن يتوسـد ساعده المثنى .

(٧) المن : ذكر المنعم إحسانه ، وذلك مفسد للاحسان ، ومن كلام العرب : المنة تفسد الصنيعة .

(٨) ربأتهم : حرستهم مخافة أن يدهمهم العدو ، مسقط : وقت سقوط (العيوق) ، وهو نجم يتلو الثريا ، يظهر سحراً ، يفتخر بأنه يحرس إخوانه في الشدائد .

فاتقوا بي ما يريبهم   إن تقوى الشر من حذره(١)
وابن عم لا يكاشفنا   قد لبسناه على غمره(٢)
كمن الشنآن فيه لنا   ككمون النار في حجره(٣)
ورضاب بت أرشفه   ينقع الظمآن من خصره(٤)
علّنيه خوطُ إسحلةٍ   لان متناه لمهتصره(٥)
ثم أداني إلى ملك   يأمن الجاني إلى حجره(٦)
تأخذ الأيدي مظالمها   ثم تستذري إلى عصره(٧)

---

(١) يريبهم : يفزعهم ، يقول : اعتمدوا على في دفع مايحذرون فكنت عند ظنهم .

(٢) كاشفه بالعداوة : أظهره عليها ، والغمر ، الحقد ، يقول : أداري ابن عمي الذي يكمن لي العداوة والبغضاء وأعاشره وكأني لا أعلم بشيء من أمره .

(٣) كمن : استتر ، والشنآن : البغض ، أي توارت البغضاء في نفسه كتواري النار في الحجر .

(٤) الرضاب : الريق ، والظمآن : العطشان ، والخصر : البرد . وينقع : يروي .

(٥) علنيه : سقانيه مرة بعد أخرى ، والخوط : الغصن الناعم تشبه به المرأة ، والاسحلة : مفرد اسحل شجر عظيم ينبت بأعالي نجد ، والمهتصر جاذب الغصن ، يقول : سقاني هذا الريق امرأة لينة كأنها الغصن في تثنيها طيعة لجاذبها إليه .

(٦) الضمير المرفوع عائد إلى الحصان الذي قطع الطريق به إلى الممدوح . يقول : بلغني هذا الحصان ملكاً يحمي اللاجئين إليه ، والحجر : حضن الانسان .

(٧) تستذري : تلتجيء ، والعصر : الملجأ ، أي ينصف اللذين يقصدونه شاكين ، لأنه عادل وسلطان محكم .

كيف لايدنيك من أمل ... من رسول الله من نفره(١)
فاسلُ عن نَوْءٍ تؤمّلهُ ... حسبك العباسَ من مطره(٢)
مَلِكٌ قَلّ الشبيهُ له ... لم تقعْ عينٌ على خطره(٣)
لاتغطى عنه مكرمةٌ ... رُبَا وادٍ ولا خمره(٤)
سبق التفريطَ رائده ... وكفاه العين من أثره(٥)
وإذا مج القنا علقا ... وتراءى الموت فى صوره(٦) .

(١) النفر : الجماعة ، وهذا البيت معيب لأن حق رسول الله أن يضاف إليه لا أن يضاف إلى غيره . فكان الأنسب أن يقول : من هو من نفر رسول الله ، فيكتسب هذا الأمير الشرف بالإضافة إلى السيد الرسول الأعظم .

(٢) النوء : النجم ، وكان العرب يربطون بين المطر وظهور نجوم بعينها . والمعنى : لاتؤمل فى خصب يأتيك به مطر السماء ، فندى العباس خلف من كل مطر ، وغنى عن كل غيث .

(٣) الخطر : المثل ، يقال هذا خطر له أى مثله ، وقل هنا : معناه فقد وعدم ، أى لاشبيه لهذا الممدوح ولن تقع عين على نظير له .

(٤) لاتغطى : لاتتوارى ولا تستتر ، والربى ما ارتفع من الأرض واحدها ربوة ، والخمر : ماواراك من شجر وغيره ، والمعنى : أنه لايترك مكرمة إلا فعلها ولا صنيعة إلا أتمها وأحسنها .

(٥) التفريط : مصدر فرط رسوله : قدمه وأرسله ، والرائد : الرجل يرسله أهله يلتمس لهم منزلا خصبا ، يقول : إن العباس رائده ـ أى الرائد منه ـ يسبق الرسول ويعرف ببصيرته المستور ، ومعنى الشطر الثانى أنه لقوة بصيرته يعرف الأمور بذاتها فلا يحتاج إلى آثارها التى تعينه فى المعرفة .

(٦) مج : لفظ ورمى ، والقنا الرماح ، المفرد قناة ، العلق الدم ، وتراءى الموت الخ : أى ظهر الموت فى أشكاله المتباينة ، فطعين بالرمح ومضروب بالسيف وصريع .

راح في ثنيي مفـاضته　　أسدٌ يَدْمَى شَبَا ظُفُرِه (١)
تتأيّى الطير غدْوَتَه　　ثقةً بالشبع من جَزَرِه (٢)
وترى السادات مائلة　　لسليل الشمس من قمره (٣)
وكريم الخال من يمن　　وكريم العم من مضره (٤)
فهمُ شتّى ظنونهمُ　　حذَرَ المكنون من فكره (٥)

دراسة ونقد للقصيدة

يؤثر أبو نواس في هذه القصيدة الغريب ، وكأنه أراد أن يرضي أبا عبيدة والأصمعي وأضرابهما من اللذين يحفلون بغرابة اللفظ أو يظهر لهم أنه لا يقل عنهم علماً باللغة وحفظاً لها وهي على ذلك حافلة بالاستعارة الحسنة والأمثال السائرة والمعاني النادرة .

يبرز ذلك كله في أسلوب جيد ولفظ جزل ووزن راقص يصلح للغناء والتلحين .

---

(١) الثنيان : مثنى ثنى بكسر فسكون وهو ما كف من طرف الثوب . والمفاضة الدرع الواسعة . والشبا : جمع شباة وهي حد السيف أو السنان في طرفه ، يقول : إنه يعود من الحرب مدرعا كالأسد وقد احمرت ثيابه من دماء الأعداء .

(٢) تتأيى : تتعمد وتنتظر . والجزر : قطع اللحم .

(٣) سليل : وليد ، والمعنى المولود من أمه التي هي كالشمس عن أبيه الذي هو كالقمر ، وضميره قمره للممدوح أو لوالده .

(٤) الممدوح خاله يمني وعمه مضري .

(٥) شتى : متفرقة منوعة ، يقول : إن السادات متنوعو الأفكار عما يضمره هو بالنسبة لهم وما يقضي في شئونهم ، مخافة منه وإجلالا له .

وأحب أن أقف معك عند هذا البيت :

تتأيى الطير غدوته ثقة بالشبع من جزره

وأوازن بينه وبين قول النابغة :

إذا ماغزوا بالجيش حلق فوقهم عصائب طيرى تهتدى بعصائب
جوانحَ قد أيقنَّ أن قبيله إذا ما التقى الجمعان أول غالب

أراد كل واحد من الشاعرين أن يصف الممدوح بأنه قاهر لعدوه ظاهر عليه يتركه عند اللقاء مضرجا بالدماء، طعاما لآكلات اللحم من الطير. وأن الطير قد علمت ذلك فهى تتبعه فى غدوه إلى القتال واثقة أنها سترجع بطاناً من لحوم أعدائه الذين قتلهم. وقد عمد النابغة إلى وصف شجاعة الممدوح بأن الطير تعلم أن الظفر للممدوح على عدوه فذكر ذلك صريحاً وكنى عن طمعها فى اتساع رزقها عليها بصحبتها له فى غدوه إلى الحرب ، وعكس أبو نواس فنص على هذه الثقة ، ودل على قهره لمن ناواه بطريق الفحوى .

وأبو نواس وإن كان متبعاً فقد زاد على النابغة بفضل إيجازه وخفة وزنه وباختيار ألفاظه ، فكلمة تتأيى تدل على الترقب والانتظار وأنها مستشرفة لذلك متشوقة إليه ، وكلمة الطير أشمل من عصائب طير ، وكلمة ثقة بالشبع لا يقابلها فى كلام النابغة مايدل على معناها ، وكلمة جزره تدل على أن عدوه عند الحملة يصير بمنزلة الإبل تنحر والشياه تذبح قد استسلمت للقضاء المحتوم والقدر النازل ، وكلمة « أول غالب » فى كلام النابغة أضعفت المراد لأنه من الجائز أن يكون أول الحملة له وآخرها عليه ، وغاية القول أن النابغة وإن كان قد سبق فإن أبا نواس قد أحسن فى الإتباع وزاد .

ومما عيب على أبى نواس فى هذه القصيدة قوله :

كيف لا يدنيكَ من أملٍ مَنْ رسول اللهِ مِنْ نَفَرِهِ

يروى أن راوية أبى نواس قال عندما سمعه ينشد هذا البيت : إنه كلام

ردىء موضوع فى غير موضعه لأن سيدنا رسول الله أجدر أن يضاف إليه ولا يضاف هو إلى أحد ، فقال له أبو نواس : ويلك إنما أردت أن رسول الله من القبيل الذى هو منه ، كما قال حسان :

وما زال فى الإسلام من آل هاشم دعائم عز لاترام ومفخر
بهاليل منهم جعفر وابن أمه علىّ ومنهم أحمد المتخير

(٢)

ميمية ابى نواس فى مدح الأمين

قال أبو نواس يمدح الخليفة محمداً الأمين :

وإذا المطىّ بنا بلغن محمداً فظهورهن على الرجال حرام(١)
قربننا من خير من وطىء الحصى فلها علينا حرمة وذمام(٢)
رفع الحجاب لنا فلاح لناظر قمر تقطع دونه الأوهام(٣)
ملك إذا علقت يداك بحبله لايعتريك البؤس والإعدام(٤)

---

(١) المطى الدواب التى تركب أراد بها النوق . يريد أن المطايا التى يركبونها قاصدين أمير المؤمنين لا يركبها أحد إكراماً لها وجزاء بما فعلت .

(٢) الحرمة مايجب القيام به . وكذلك الذمام أراد أن حقوقا لهذه المطايا تلزمنا رعايتها والوفاء بها .

(٣) يريد بالقمر وجه ممدوحه الأمين . تقطع : بحذف إحدى التاءين . يقول الشاعر : إنه حين بدا الأمين رآه قمرا لا تستطيع الأوهام أن تقدر مبلغ حسنه وبهاء طلعته .

(٤) علقت : تعلقت واتصلت ، والبؤس : الفقر والإعدام كذلك . يصف كرم الممدوح بأن من يلوذ به لاتناله شدة ولايلحقه فقر .

فالبهو مشتمل ببدر خلافة — ليس الشباب بنوره الإسلام(١)
سبط البنان إذا احتبى بنجاده — فرع الجماجم والسماط قيام(٢)
إن الذى يرضى الإله بهديه — ملك تردى الملك وهو غلام(٣)
ملك إذا اعتسر الأمور مضى به — رأى يفل السيف وهو حسام(٤)
داوى به الله القلوب من العمى — حتى أفقن وما بهن سقام(٥)
أصبحت يابن زبيدة ابنة جعفر — أملا لعقد حباله استحكام(٦)
فسلمت للأمر الذى ترجى له — وتقاعست عن يومك الأيام(٧)

نقد وموازنة

البيتان الأول والثانى معناهما مطروق مشترك ، قال الشماخ فيه :

---

(١) يريد بالبهو هنا البيت ، ومشتمل : مزدان ، ومعنى الشطر الثانى أنه أعاد للدين سلطانه .

(٢) السبط : السهل ، الذى لاخشونة فيه ، والبنان أطراف الأصابع واحدتها بنانة . وسبط البنان : الكريم . والنجاد : حمائل السيف التى يتعلق بها . احتبى بنجاده : لبسه ، وفرع الجماجم : علاها . سماط القوم صفهم .

(٣) تردى : لبس الرداء والمراد أنه ولى الخلافة فتى .

(٤) اعتسرت الأمور اشتدت والتوت ، يفل السيف : يثلمه . والحسام : السيف القاطع ، يريد أن الأمور إذا صعب حلها كان له فيها رأى نافذ سديد .

(٥) عمى القلوب : زيغها . السقام : بفتح السين المرض .

(٦) زبيدة ام المؤمنين جاءت به من هارون الرشيد وهى بنت جعفر ابن المنصور ، الأمل هنا هو المقصود والمأمول . استحكام : قوة . يقول : صرت أملا يعلق الناس حاجاتهم بك فلا يخيب رجاؤهم ، وقوله (العقد) إلى آخر الجملة صفة لقوله أملا .

(٧) تقاعس : تأخر . يقول : إن أيامك خير الأيام .

إذا بلغتنى وحملت رحلى عرابة فاشرقى بدم الوتين

وقال ذو الرمة :

إذا ابن أبى موسى بلالا بلغته فقام بفأس بين وصليك جازر

وقال عبد الله بن رواحة :

إذا بلغتنى وحملت رحلى مسيرة أربع بعد الحساء
فشأنك فانعمى وخلاك ذم ولا أرجع إلى أهلى ورائى

وقال الفرزدق :

علام تلفتين وأنت تحتى وخير الناس كلهم أمامى
متى تردى الرصافة تستريحى من الأنساع والدبر الدوامى

وقد عاب الرواة ونقاد الكلام قول الشماخ وذى الرمة ، سمع عبد الملك قول الأول فقال : بئست المكافأة حملت رحله وبلغته بغيته فجعل مكافأتها نحرها وقد قال رسول الله للأنصارية التى نجت من الأسر على ناقته صلى الله عليه وسلم فنذرت أن تنحرها : لبئس ما جزيتها . وهما إلى جانب الخطأ فى المعنى رديئا الأسلوب يتخذهما النحاة مجالا لكثير من سخف التأويل ،

فأما عبد الله بن رواحة . فقد أحسن إليها مع استغنائه عنها ، دعا لها بأن تعيش ناعمة طليقة خالية من الذم لأنها بلغته ما يأمله من الاستشهاد فى سبيل الله .

ويقول الفرزدق مخاطباً ناقته : متى تناخى فى ساحة أمير المؤمنين تراحى من عناء الرحيل إلى غيره لأننا نصادف من نداه ما نعيش به أغنياء ، وزاد أبو نواس فأعتق ظهورها من الحمل وحماها من الركوب وجعل ذلك حقاً خليقاً بالرعاية ودينا واجب الأداء ، وكلمة الرجال فى بيته تسىء إلى الغرض لأنها تخصص العام وتقيد الإطلاق كما أن حملتنى وحملت رحلى فى الأبيات السابقة حشو جىء بها لإقامة الوزن . وكذلك كلمة زمام فى بيت أبى نواس ، وبيت ابن رواحة الأول فيه اطناب وكان يغنى عنه أن يقول إذا بلغتنى الأعداء

ولولا أن دعا لها بأن تنعم لكان قوله (فشأنك) دعاء عليها لأن التخلية على هذه الصورة إضاعة لها . ومع هذا الاحتمال فإن بيت ابن رواحة له تأثير في النفس قوي لأنه يصور لك نفساً مؤمنة بربها فانية في ذاته راغبة في القرب به مستعدة للقائه شاكرة لمن حمل من آمال على هذا اللقاء داعية له بالخير فيما بقي له من أيام .

وهنا يظهر لك منزلة الشعور إذا صدق ، وقيمة الشعر إذا عبر عن هذا الشعور .

وقصارى القول أن معاني أبي نواس في هذه القصيدة غير مبتكرة ، فقد درج الشعراء على تشبيه الجميل بالبدر ، والمدح بالطول، والثناء بالعدل وسداد الرأي، والوصف بالشجاعة والكرم ولم يزد فيها زيادة تذكر ، غير أنه أخرجها في أسلوب جيد ، فجاءت متينة الوصف محكمة التركيب ، وإن كان يثقل عليّ هذا الشطر (أصبحت يا ابن زبيدة ابنة جعفر) . كما أن قوله (وتقاعست عن يومك الأيام) يشبهه في الثقل ويزيد عليه بالغموض في معناه في رأيي .

سينية أبي نواس المشهورة
في وصف الخمر

— ١ —

قال أبو نواس في الخمر :

ودار ندامى عطلوها وأدلجوا ... بها أثر منهم جديد ودارسُ (١)
مساحب من جر الزقاق على الثرى ... وأضغاث ريحان : جنى ويابس (٢)
حبست بها صحبي وجددت عهدهم ... وإني على أمثال تلك لحابس (٣)
تدور علينا الراح في عسجدية ... حبتها بأنواع التصاوير فارس (٤)
قرارتها كسرى ، وفي جنباتها ... مهاً تدّريها بالقسيِّ الفوارس (٥)

(١) الندامى : جمع ندمان جليسك على الشراب . عطلوها أخلوها ، والإدلاج السير أول الليل ، والدارس البالي . يريد الشاعر داراً اجتمع فيها بصحب وشربوا فيها الخمر ثم تركوها وتركوا فيها آثاراً جديدة وقديمة بالية .

(٢) الزقاق جمع زق وعاء الخمر . الثرى التراب . الندى أراد الأرض ، والأضغاث جمع ضغث الحزمة من العشب ، والجنى الحديث العهد بالقطع . وهذا البيت بيان للأثر الذي تركوه من الخطوط على الأرض من جر الزقاق ومن حزم الرياحين اليابسة لطول العهد على قطعها والحديثة التي قطعت لوقتها .

(٣) يريد أنه ألزم من صحبه هـذه الدار حيث توفروا على اللهو والشراب وأعادوا العهد على مثل هذا العبث ، وهو حريص على أمثال هذه شديد الاهتمام بها .

(٤) الراح الخمر . والعسجدية منسوبة إلى العسجد أي الذهب ، والمراد أن الكأس مذهبة ، وحباها منحها . وفارس : الدولة المعروفة .

(٥) قرارتها أسفلها . والمها جمع مهاة البقرة الوحشية . وادرى الصيد ختله . والقسي جمع قوس . والفوارس جمع فارس راكب الفرس — والمعنى : أن الكأس

فللخمر ما زرت عليه جيوبهم ... وللماء ما دارت عليه القلانس(١)

دراسة للقصيدة :

أقام أبو نواس أياما فى رفقة كريمة عليه يتمتعون فى ظل عيش رخى، وحياة خالية من الهموم ، تدار عليهم الخمر فى كئوس ذهبية فأراك صورة الشرب يتساقون الكئوس ويتهادون بالرياحين وقد ذبل بعضها وبقى بعضها غضا جديداً كعهد الشاربين به ، وأراك الكئوس الفارسية وقد تأنق صانعوها فزينوها بصور تزيدها جمالا ، فهذه صورة كسرى فى قرارة الكاس وفى جوانبها فوارس تصطاد الوحش ، وأراك مقدار الخمر فى الكئوس وكمية الماء فيها .

وهذه القصيدة تصور لك ثورة أبى نواس على القديم فهو فيها لا يبكى طللا ولا يقف على رسم ، إنما يبكى داراً للهو والمجون قضى فيها أياما ثم تركها وفى نفسه حنين إليها وشوق إلى استعادة مثلها .

وينعى على المقلدين من الشعراء وصفهم لحياة البادية وهم يعيشون فى حياة حضرية بلغت الذروة فى الرقى الاجتماعى والثقافى .

شاعرية أبو نواس من القصائد الثلاث :

وشاعرية أبى نواس كما تبدو فى هذه القصيدة قوية فياضة متأججة الشعور مضطرمة العاطفة ، ملتهبة الإحساس ، والشاعر هنا مؤمن بالتجديد حريص

محلاة بصورة كسرى فى أسفلها ، أما جوانبها فحلاة بصور فرسان ينتهزون غفلة المها ليرموها بسهام أقواسهم .

(١) الجيب طوق القميص . والقلانس جمع قلنسوة ، يقول : إنهم كانوا يشربون الخمر ممزوجة ، يصبون الخمر حتى تبلغ أعناق صور الفوارس ثم يمزجونها بالماء حتى تعلو رؤسهم .

عليه، يسير على أسلوب القصيدة العربية ومنهجها في شعره في كل شيء، إلا في غرض قصيدته، الذي كان جله في وصف الخمر، والدعوة إلى ترك مساءلة الأطلال

وقد كان أبو نواس مفخرة من مفاخر العربية وآدابها، وكان شعره من أقوى مظاهر التجديد في الشعر العباسي، لذلك عد رأس مدرسة من مدارس المحدثين بعد بشار ومدرسته الشعرية.

وقد جمع أبو نواس في شعره خلاصة من معاني شعر المتقدمين من الجاهليين والإسلاميين، وأضاف إليها صورا جديدة من معانيه المبتكرة ومعاني الذين عاش بينهم من المحدثين الحضريين المثقفين بالحضارات والعلوم الموروثة عن أمم شتى، وبالحضارة الإسلامية العربية وعلومها وآدابها على ما بين هؤلاء المحدثين من تباين في الجد والهزل، وأشهر من حاكاه شاعرنا منهم وصب على قوالب معانيه: بشار بن برد. وقد كانت أكثر معاني أبي نواس المبتكرة وتشبيهاته البديعة في الخمريات التي فاق فيها كل من سبقه من أمثال الأعشى والأخطل والوليد بن يزيد فيما نسب إليه من الخمريات إن صدقا أو كذبا. ثم في الغزل بالمذكر، ولا غرابة في ذلك فعنه وعن شيطانه والبة شاع هذا النوع وذاع، ومن معانيه استمد شعراء المولدين بعده. على أن له في الأغراض الجدية معاني لم يحم حولها شاعر، كما أن له فيها وفي غيرها معاني مبتكرة.

والمشهور عنه في قصائده البليغة أنه كان يقولها طويلة ثم ينحي عليها بحذف الرديء والمكرر، وبالتهذيب والتثقيف حتى تصير كلها عيونا، فهو من أمثال زهير والحطيئة والأخطل، ولذلك كانت قصائده الجيدة قصيرة.

وكان إذا مدح أصدقاءه ومن له عليه دالة راعى أسلوب الحضريين في دماثته ولينه ورقة نسجه. ومهد للمديح بذم الديار والأطلال والنوق والجمال، ودعا إلى معاقرة الندام ومبادرة اللذات واستماع الأغاني ومباكرة الرياض ونحو ذلك، وهذه الطريقة ابتدعها أبو نواس أو كاد.

وكذلك كان يرقق القول في المقطعات والخمريات، ويسف إلى أن يقارب

العامة فى المجونيات ، ويكثر فيها من الألفاظ المولدة أو الدخيلة .

وكان أبو نواس فى مدائح الخلفاء وأهل الجد والتوقر من الوزراء والولاة والقواد يفخم الألفاظ ويتخيرها ويجيد رصفها ، ويكثر من الغريب فيها ، ويسلك غالباً مسلك القدماء فى تقديم النسيب على طريقة العرب ، ووصف الرحلة إلى الممدوح .

وكان فى طردياته أعرابيا فى شملة ، لا يصدق من يقرؤها أنها صادرة من حضرى خليع مثل أبى نواس .

ولم يكن المدح والرثاء أهم مقاصده من شعره وإن تكسب بهما ، ولكن مدحه على قلته بالإضافة إلى بقية شعره أبلغ شعره وأجوده وأرصنه ، وله فيه قصائد جارى فيها فحول الشعراء ، ولا يزالون يعارضونها إلى اليوم .

ومن العجيب أن مثل أبى نواس فى عبثه وتماجنه يفسح للزهديات من شعره باباً أسماه اشتمل على مقطعات ، منها ما هو غاية فى الباب ، وكانت جديرة أن تصدر عن أبى العتاهية ، والحق أنه لم يفتن هذا النوع إلا مكايدة لأبى العتاهية وتفوقاً عليه .

موازنة بين قصيدتين أمويتين فى النسيب

(١)

قال قيس بن الملوّح العامرى — وهو مجنون ليلى — :

ألا يا حَمَامَىْ بطن وَدَّانَ هِجْتُمَا	علىّ الهوى لمّا تغنيتما لِيا
فأبكيتمانى وسط أهلى ولم أكن	أبالى دموع العين لو كنت خاليا
ألا أيها الركب اليمانون عرّجوا	علينا فقد أضحى هوانا يمانيا
نسائلكُمُ هل سال نَعمانُ بعدنا	وحُبّ إلينا بطنُ نَعْمانَ واديا
أعُدّ الليالى ليلةً بعد ليلة	وقد عشت دهراً لا أُعدّ اللياليا
أرانى إذا صليتُ يممت نحوها	بوجهى وإن كان المصلّى ورائيا
ومابِىَ إشْرَاكٌ ولكنّ حبها	كعود الشجا أعيا الطبيب المداويا
إذا ما طواكِ الدهر يا أم مالك	فشأن المنايا القاضياتِ وشانيا
تمرُّ الليالى والشهور وتنقضى	وحبُّكِ ما يزدادُ إلا تماديا
خليلى إن دارت على أم مالك	صروفُ الليالى فابغِيا لىَ ناعيا
ولا تتركانى لا لخير معجّل	ولا لبقاء تنظران بقائيا
خليلىّ لا والله لا أملك الذى	قضى الله فى ليلى ولا ما قضى ليا
قضاها لغيرى وابتلانى بحبها	فهلا بشىء غير ليلى ابتلانيا
أمضروبةٌ ليلى على أن أزورها	ومتخذٌ ذنبا لها أن ترانيا

ولو كان واشٍ باليمامة دارُهُ ... وداري بأعلى حضر موتَ اهتدى ليا
وإني لأخشى أن أموتَ فُجاءةً ... وفي النفس حاجاتٌ إليكِ كماهيا
وإني ليُنسيني لقاؤكِ كلما ... لقيتكِ يوما أن أبثكِ مابيا
وقالوا به داء عياء أصابه ... وقد علمتْ نفسي مكان دوائيا

(٢)

وقال جميل بن عبد الله بن مَعْمَر العُذري[١] :

وما زلتمُ يا بَثْنَ حتى لوَ انني ... من الشوق أستبكى الحمام بكى ليا
إذا خدِرَت رجلي وقيل شفاؤها ... دعاء حبيب كنتِ أنت دعائيا[٢]
وما زادني النأي المفرق بعدكم ... سلوا ، ولا طول التلاقي تقاليا[٣]
ولا زادني الواشون إلا صبابة ... ولا كثرة الناهين إلا تماديا
وأنت التي إن شئت كدرت عيشتي ... وإن شئت بعد الله أنعمت باليا
وأنت التي ما من صديق ولا عدى ... يرى نِضْوَ ما أبقيتِ إلا رثى ليا[٤]
ألم تعلمي ياعذبة الريق أنني ... أظلُّ إذا لم ألق وجهك صاديا
لقد خفتُ أن ألقى المنية بغتةً ... وفي النفس حاجاتٌ إليك كما هيا

نقد — موازنة بين القصيدتين السابقتين :

كلا الشاعرين محبٌ ، وكلاهما قتيل الحب ، فنظم قصيدته في الغزل ، وفي القصيدتين معان مشتركة ، وفي كلتيهما معان منفردة .

---

(١) هو جميل بن عبدالله العذري : شاعر أموي فصيح ، يجمع بين جودة الشعر ، وجودة الرواية ، وهو صاحب بثينة وقتيل حبها ويعده أهل زمنه إمام المحبين . بل هو إمام الغزل العذري (٢) كان العرب إذا خدرت رجل أحدهم دعا لحبيبه أو على عدوه . (٣) التقالى : البغض (٤) النضو : المهزول .

فمما اشتركا فيه قولهما فى الحمام ، فأما قيس فقال :

ألا يا حمامَىْ بطن وَدّانَ هجتما عليّ الهوى لمــا تغنيتما ليا
فأبكيتمانى وسط أهلى ولم أكن أبالى دموع العين لو كنت خاليا

وقال جميل :

وما زلتمُ يا بَثْنَ حتى لو اننى من الشوق أستبكى الحمام بكى ليا

فقيس هاجه الحمام فأبكاه ، وجميل لو شاء هاج الحمام واستبكاه ، وشتان بين من يبكى للحمام ، ومن إذا أراد أبكاه ، فالأول معنى دارج ، والثـانى طريف مستحدث ، وهو إلى ذلك أسمح لفظاً ، وأحلى أيقاعاً .

وقال كلاهما فى ثبات الحب واضطرامه ، فقال قيس :

تمرّ الليالى والشهور وتنقضى وحبك لا يزداد إلا تماديا

وقال جميل :

وما زادنى النأى المفرقُ بعدكم سلوا ولا طول التلاقى تقاليا
ولا زادنى الواشون إلا صبابة ولا كثرة الناهين إلا تماديا

فصاحب ليلى لايزيده تطاول الزمن إلا تماديا فى الحب ، وصاحب بثينة لايزيده البعد سلوا ، ولا الفراق بغضا ، وشتان بين من يزداد على الأيام حباً ، ومن لايزداد على الفراق سلوا ، فجميل لم يوفق توفيق صـاحبه ، وإن كان قد وفق فى البيت الثانى ، فجاء على سَنَنِه .

أما الأسلوب ، فكلاهما قد بلغ فيه الإحسان والجودة .

وقد توارد الشاعران على أسلوب واحد فى هذين البيتين . فقال قيس :

وإنى لأخشى أن أموت فجاءة وفى النفس حاجات إليك كماهيا

وقال جميل :

لقد خفت أن ألقى المنية بغتة   وفى النفس حاجات إليك كما هيا

وكلاهما نزع عن غرض واحد ، وانتهى إلى غاية واحدة ، وربما كان الشطر الأول من قول جميل أكثر انصقالا من قول صاحبه .

ومما انفرد به قيس قوله :

وإنى ليثنينى لقاؤك كلما   لقيتك يوماً أن أبثك ما بيا

فقد سما بتصوير معناه سمواً لا يبلغه إلا قول جميل :

ألم تعلمى يا عذبة الريق أننى   أظل إذا لم ألق وجهك صاديا

ومن جميل ما انفرد به جميل ، قوله فى مناجاة صاحبته بثينة :

وأنت التى إن شئت كدرت عيشتى   وإن شئت بعد الله أنعمت باليا

وأنت التى ما من صديق ولا عدى   يرى نضو ما أبقيت إلا رثى ليا

على أن نعوت الفن ورصانته ، وسماحة الأسلوب وعذوبته ، أظهر فى قول جميل ، وإن امتاز قيس بالكشف عن فطرة المحب المضطرب النفس المحترق القلب ، من غير زخرف أو تمويه .

والشاعران من أئمة مذهب الغزل العذرى فى عصر بنى أمية ، وقد توفى المجنون عام ٦٧ هـ ، وجميل عام ٨٢ هـ ، ولهما فى النسيب العذرى روائع مأثورة . والنقاد يجمعون على أن جميلا هو إمام العذريين ، والسابق فى هذا المضمار .

تائية كثير المشهورة

كثير عزة شاعر أموى مشهور فى الغزل والنسيب ، ويعد من فحول الشعراء ومقدميهم فى العصر الأموى ، وتائيته مشهورة شهد لها النقاد ، وهى فى الغزل . وقد توفى عام ١٠٥ ﻫ .

قال كُثَيِّر عَزَّة :

خليلى هــذا ربع عزةَ فاعقِلاَ قَلُوصَيْكُمَا ثم ابكيا حَيْثُ حلّتِ (١)

وما كنت أدرى قبل عزة ما البكاء ولا موجعات القلب حتى تولت (٢)

فقد حلفت جَهْداً بما نحرت له قُرَيشٌ غداة المأزِمَيْنِ وصلّت (٣)

أُنَادِيكَ مَا حَجَّ الحَجِيجَ وَكَبَّرَتْ بِفَيْفَا غزَالٍ رُفْقَةٌ وَأَهَلّتِ (٤)

---

(١) الربع : الدار والقلوص الناقة الشابة . وعقل البعير قيده ـ يسأل رفيقيه أن يقفا معه ساعة فى منزل حبيبته وفاء لها وقياما بحقه من الدعاء والبكاء فيه لخلوه من ساكنيه ولأن له فى نفس الشاعر ذكريات ماضية .

(٢) ما كنت أعرف آلام الحب قبل الاتصال بها ولا تباريح الغرام حتى شقيت بفراقها والبعد عنها .

(٣) الجهد : الطاقة والمراد المبالغة . والنحر الذبح . والمأزمان مضيق بين جمع وعرفة وآخر بين مكة ومنى ، يقول : حلفت عزة بالذى تنحر له الذبائح وتقدم له القرابين لتقطعنى .

(٤) أناديك : أجالسك وهو جواب القسم حــذف منه لا مثل قوله تعالى « تالله تفتا تذكر يوسف » . والحجيج : جمع حاج ، وفيفا غزال : مكان بمكة ـ والرفقة : الأصحاب . وأهلت : رفعت صوتها بالتلبية والدعاء .

أى لا أجالسك أبداً ما قصــد الناس مكة للعبادة وتوجهوا إلى بيت الله زائرين معتمرين .

وكانت لقطع الحبل بيني وبينها كناذرةٍ نذراً فأوفت وحلّتِ [1]

فقلت لها يا عزُّ كلُّ مصيبةٍ إذا وطّنت يوماً لها النفس ذلت [2]

ولم يلقَ إنسانٌ من الحب ميْعةً تعُمُّ ولا غمّاء إلا تجلّتِ [3]

كأني أنادي صخرةً حين أعرضت من الصُّم لو تمشى بها العُصْمُ زلّتِ [4]

صفوحاً فما تلقاكَ إلا بخيلةً فمَنْ مَلّ منها ذلكَ الوصلَ ملّتِ [5]

---

(١) الحبل الوصل والعهد . والنذر : ما أوجبه المرء على نفسه . وحلت : خرجت من العهدة فيه .

والمعنى أن عزة فى قطيعته كأنها تقوم بواجب عليها فهى تفعل ذلك مبادرة إليه حريصة عليه .

(٢) وطنت النفس لكذا : مهدتها له وأعددتها لاحتماله . وذلت : سهلت ولانت .

والمعنى : « إن المصائب وإن عظمت إذا تلقاها المرء بالصبر عليها هان أمرها واحتمل عبؤها »

(٣) الميعة : الشدة ، الغماء : الكرب ، تجلت : زالت وانكشفت ، والبيت مكمل لسابقه — يقول : كل غمرات الحب تنكشف وكل آلام الغرام تزول ، فالنأى يسلى واليأس يريح .

(٤) الصم : جمع أصم وهو الصلب ، والعصم : الوعول جمع وعل وهو التيس الجبلى — يقول : قد أعرضت عنى لا تجيب ندائى كأنى أدعو صخرة صلبة ملساء لا تستقر عليها الوعول ، يصف إعراض عزة وعدم إصغائها وعطفها عليه فيشبهها بالصخرة فى أنها لا تسمع نداء ولا تجيب دعاء .

(٥) الصفوح : المعرضة الهاجرة يعنى أنها بخيلة بوصلها .

المعنى : أن عزة امرأة هاجرة نافرة ، لأن طبعها البخل فمن سئم منها هذا الخلق قاطعته وهذا البيت يصور لك طبع المرأة المعشوقة .

أَبَاحَتْ حِمًى لم يَرْعَهَ النّاسُ قَبْلَهَا ... وَحَلَّتْ تِلاعاً لم تكن قَبْلُ حلّت (١)

فَلَيْتَ قَلُوصِي عِنْدَ عَزَّةَ قُيِّدَتْ ... بِحَبْلٍ ضَعِيفٍ غُرَّ منها فضلّت (٢)

وَغُودِرَ في الحَيِّ المقيمين رَحْلُها ... وكان لها باغٍ سوايَ فبلّت (٣)

وَكُنْتُ كَذِي رِجْلَيْنِ رِجْلٍ صَحِيحَةٍ

وَرِجْلٍ رمى فِيهَا الزمانُ فَشَلّت

وكُنْتُ كَذَاتِ الظَّلْعِ لَمَّا تَحَامَلَتْ ... عَلَى ظَلْعِهَا بَعْدَ العِثَارِ اسْتَقَلّت (٤)

---

(١) الحمى : ما يحمى ويدفع عنه . والمراد قلب الشاعر الذى احتلته . ويرعاه الناس : يدخلون اليه . والتلاع : جمع تلعة وهى الأرض المرتفعة . والمعنى أنها غزت قلبا ممتنعا عن النساء لم تستطع امرأة قبلها غزوه ، والبيت استعارة تمثيلية .

(٢) غر : قطع . والمعنى : يتمنى كثير أن تضل ناقته حتى يطول مقامه عند عزة .

(٣) رحل الناقة : ما يوضع على ظهرها كالسرج . باغ : طالب . بلت : ذهبت : وهو من تمام البيت الأول .

(٤) شلت يبست . والظلع عيب فى المشى . تحاملت على ظلعها : تكلفت الناقة السير على رغمها . استقلت : استقام مشيها .

يقول : كنت فى إقبالهـا تارة وإدبارها أخرى وفى طمعى فيها ويأسى منها كرجل صحت منه رجل ومرضت أخرى فإن أراد الحركة بالصحيحة جذبته المريضة وهو تصوير لحاله فى حبه وأنه صار إلى حال لا يمر ولا يحلو . ومعنى البيت الثانى أن الأمل واليأس ظلا يختصمان إلى أن غلب اليأس منها فانصرف عنها فهو كظالعة حاولت مرارا أن تسير مع ظلعها حتى استقام لها السير . وهناك معنى آخر وهو أنه كان فى بقائه عندها كرجل أشل عاجز عن الحركة أو كناقة عرجاء تنهض بعسر ومشقة ، يتمنى ما يعطل سفره فيبقى عند محبوبته عزة .

أريدُ الثَّوَاءَ عندها وأظنُّها ... إذا ما أطلْنَا عندَها المكْثَ مَلّتِ (١)

فما أنصفَتْ أمّا النساءَ فبغَّضَتْ ... إليَّ وأما بالنَّوَالِ فضَنَّتِ (٢)

فإن تكنِ العُتْبَى فأهلاً ومرحبا ... وحُقَّتْ لها العُتْبَى لدينا وقلّتِ

وإن تكنِ الأخرى فإنَّ وراءنا ... مناديحَ لو سارَتْ بها العِيسُ كلّتِ (٣)

خليليَّ إن الحاجبيةَ طلّحتْ ... قَلوصَيْكُما وناقتي قد أكلّتِ (٤)

فوالله ثم الله ما حلَّ قبلها ... ولا بعدها من خُلّةٍ حيثُ حلّتِ (٥)

وما مرَّ من يوم عليَّ كيومها ... وإن عظمت أيامُ أخرى وجَلّتِ

وأضحت بأعلى شاهقٍ من فؤاده ... فلا القلب يسلاها ولا العين ملّتِ (٦)

---

(١) الثواء : الإقامة . يقول : إنها امرأة ملول وظني أنهـا لا تحتمل طول المقام عندها .

(٢) لقد بغضت بجمالها النساء إلى ، فلم يكن لغيرها موضع من قلبي ولا نصيب من حبي وقد بخلت بوصلها .

(٣) العتبى : الاسم من الإعتاب . المناديح : الأماكن الواسعة البعيدة . والعيس : الإبل البيض يخالط بياضها شقرة ، كلت أعيت من السير — والمعنى : إن كانت تنكر منى أمرا وتريد أن أنزع عنه فذلك لها وهو علينا يسير وإن كانت تريد القطيعة فالأرض واسعة والنساء غيرها كثير ، وكل غانية عزة .

(٤) طلحت : أكلت وأتعبت . والحاجبية لقب عزة يخاطب رفيقين فيقول : إن عزة أنهـكت ناقتيكما كما أتعبت ناقتى — يصور مبلغ ما يعانيه فى حب عزة وطلبها .

(٥) إنه لم يمر عليه فى حياته يوم هنيء كيوم وصالها . وإن كانت هناك أيام أخرى حافلة بالسرور ، ولك أن تقول : لم يمر يوم فى الآلام والأهوال كيوم عرفها فيه .

(٦) الشاهق : المرتفع . أى أصبحت عزة فى أعلى مكان من قلبه ، فلا القلب يستطيع السلو ، ولا العين تمل النظر إليها .

فيا عجبا للقلب كيف اعترافهُ ... وللنفس لما وطِّنت كيف ذلت [١]

وإني وتَهْيَامي بعزة بعدما ... تخليْتُ مما بيننا وتخلت [٢]

لَكَا لمرتجي ظِلّ الغَمامَةِ كلّما ... تبوأ منها للمقيل اضْمَحَلّتِ

كأني وإياها سحابة مُمحِلٍ ... رجاها فلما جاوزته استهلت [٣]

فإن سأل الواشون فيم هجرتها ... فقل نَفْسُ حُرٍّ سُلّيَتْ فَتَسَلّتِ [٤]

---

(١) اعترافه : صبره على آلام الحب ـ يتعجب الشاعر من صبره على ما يقاسيه من آلام ومن نفسه كيف استعذبت المذلة فى الغرام .

(٢) التهيام : الهيام وهو جنون العشق . تخلى من الشيء : تركه . الغمامة : السحابة أو البيضاء خاصة ، تبوأ المكان نزل فيه . المقيل : النوم نصف النهار ، اضمحلت : انقشعت ـ يشبه تعلقه بعزة بعد القطيعة باللاجيء إلى ظل سحاب ووجه الشبه الطمع فى غير مطمع .

(٣) الممحل : المجدب يعوزه المطر ، جاوزته : بعدت عنه . استهلت : أمطرت : يصور الشاعر نفسه مع صاحبته بصورة ممحل أو مجدب يرجو المطر من السحاب فيتجاوزه السحاب إلى غيره وهو أحوج ما يكون إليه . يصف فى هذا البيت فقره إليها .

(٤) الواشون : الساعون بالفساد ـ يقول : إن سأل الواشون عن سبب هذه القطيعة فقل لا شيء سوى العزة والكرامة

نقد للقصيدة

تعريف بالشاعر :

الشاعر هو أبو صخر الضمرى كثير بن عبد الرحمن الخزاعى ، أكثر الشعر فى عزة بنت حميد الضمرى فنسب إليها وعرف بها .

كان يتشيع ، يعتقد أن علياً وبنيه أحق الناس بالخلافة ، وكان مع تشيعه يفد إلى بنى أمية يمدحهم ويأخذ جوائزهم ، والرواة يحدثوننا أنه كان قصيراً دميماً ناقص العقل ويقرنونه الى جميل والمجنون وأضرابهما من شعراء الغزل المقدمين فيه .

القصيدة :

والقصيدة فى النسيب وهو باب له مكانة فى الأدب العربى ومنزلة سامية فى النفوس ، لأنه يتعلق بأسمى عاطفة إنسانية هى الحب .

ورواة الأدب يتحدثون عن هذه القصيدة فيرفعون من شأنها ويشيدون بكثير من أجلها ، ويعدونها من عيون الشعر الغزلى ، فيقولون تائية كثير كما يقولون رائية عمر وعينية قيس ، وأنا أقرأ هـذه القصيدة فلا تقع فى نفسى ولا أجد لها ما وجد هؤلاء الرواة ، بل أجد فيها صورة صادقة لكثير القصير الذى يطاول الطوال ، الضعيف الذى يباطش الأقوياء ، الدعى فى عشقه وتشيعه ومذهبه وكل ما يتصل به حتى أبيه الذى ينسب إليه وعشيرته التى يعتز بها .

قد يكون عذر هؤلاء أن مقاييس الجودة عندهم هى أن اللفظ مستعمل فيما وضع له وأن الأسلوب عربى جار على ما ألفته العرب فى طرائق تعبيرها وأن القافية لاعيب فيها ووزن الشعر صحيح مستقيم ، لكن ذلك لايكفى فى الحكم لها بالخلود والصدارة فى ديوان الشعر .

إنها لاتصور شعوراً بالحب صادقا ولا نفساً بنار العشق متحرقة ولا إنسانا

صافى الطبع مرهف الحس قوى العاطفة ينقلك إلى الجو الذى يعيش فيه ، فترثى له وتشفق عليه إن لم تشاركه فى آلامه التى يقاسيها .

إنها لا تصور نفس شاعر متيم قد استعبده الحب وأضناه الغرام ، إنما تدل على إنسان مدع للعشق ، يظهر لك حينا أنه متهالك فى هواه ويتراءى حينا آخر أنه جلد قوى لا يبالى بقطع أواصر المودة ، فهو مكافىء لمن يحب وصلا بوصل وهجرانا بهجران .

وقد يخدعك فتظن أنك أمام شاعر متبول ، يهذى فى إثر صاحبته ، فهو يرسل أنات محزونة ويخرج زفرات مكلومة وليس كذلك ، إنها الصيغة المحكمة والنسج المتين ، فيلتبس عليك صدق الشاعرية بصدق الشعور ، إن ما يبدو فى هذه القصيدة من سيماء الحب لا يرجع إلى عاطفة مشبوبة ولا إلى نار بين الجوانح مضطرمة ولا إلى موجدة تثور حينا وتختفى حينا ، إنما يرجع إلى تقليد لبعض الشعراء العذريين أمثال جميل والمجنون ، فإن شعر الغزل فى هذا العصر قد صار صناعة يتعاطاها من لم يعرف الهوى ولم يذق ظلم حبيب ولم يكتوِ بنار الحب .

وأحب أن أقف بك على بعض هنات ترجع إلى المعنى وأخرى إلى اللفظ .
يقول كثير :

فقلت لها يا عز كل مصيبة　　　إذا وطنت يوما لها النفس ذلت

نعم إن المصائب تهون إذا هيئت النفوس لقبولها ، فلو أنه قال هذا المعنى فى الاستهانة بنكبات الدهر أو توطين النفس على الموت فى الحروب أو الاستخفاف بكل ما يعترض الإنسان فى هذه الحياة من صعاب لكان معنى رائعاً ولكان قد وضعه فى موضعه اللائق به ، وبعبارة أخرى لو كان ذكره فى باب الشجاعة لكان شاعراً خليقاً بالتقدير ، ولكنه ذكره فى باب الغزل فى مقام يجمل فيه التذلل فى الهوى ويستعذب فيه الأنين والشكوى وإظهار أن كل ما فى الحياة من خطوب يمكن احتمالها والصبر عليها إلا مفارقة الأحباب فتلك النائبة العظمى التى لا تطاق .

وكل مصيبات الزمان وجدتها سوى فرقة الأحباب هينة الخطب

وبما يؤخذ عليه أيضاً فى هذه القصيدة قوله :

وإن تكن الأخرى فإن وراءنا منادح لو سارت بها العيس كلت

ونحوه بما يدل على عدم المبالاة بالهجر وقلة الاحتفال بإعراض الحبيب ، فإنه لو كان محبا صادق الصبابة عاشقا قوى العاطفة لكان حديث الفراق يروعه مخافة أن يكون فراق الأحبة مقرونا به ، يروى أن كثيرا لقى الأحوص فقال له لقد قلت فأحسنت فى كثيرٍ من شعرك ولكن خبرنى عن قولك :

فإن تصلى أصِلك وإن تعودى لهجر بعد وصل لا أبالى

أما والله لو كنت من فحول الشعراء لباليت ولو كسر أنفك ، هلا قلت كما قال نصيب :

بزينب ألمم قبل أن يرحل الركب وقل إن تملينا فما ملك القلب

والذى عابه على الأحوص وقع هو فى أسوأ منه ، فأين هو من فحول الشعراء الذين يصورون المرأة بأنها مطاوبة ممتنعة وأنهم لا يستطيعون هجرها والبعد عنها ولا يتصورون الحياة بدونها وإذا وجدوا فى نفوسهم شيئا من عوامل السلو أعانوا عليها وخاصموها حتى تنزل على حكم الهوى :

وإذا وجدت لها وساوس سلوة شفع الضمير إلى الفؤاد فسلها

بل ربما حدثتهم أنفسهم التى برح بها الشوق أنهم قادرون على السلو عنها والتسلى بأخرى سواها فإذا بدا ما يحبون وهت عزائمهم ونقضوا ما أبرموه :

لقد كنت آتيها وفى النفس هجرها بتاتا لأخرى الدهر ما طلع الفجر

فما هو إلا أن أراها فجاءة فأبهت لا عرف لدى ولا نكر

وأنسى الذى قد كنت فيه هجرتها كما قد تنسى لب شاربها الخمر

ويمنعنى من بعض إنكار ظلمها إذا ظلمت يوما وإن كان لى عذر

مخافةُ أنى قد علمت لأن بدا لى الهجر منها ما على هجرها صبر
وأنى لا أدرى إذا النفس أشرفت على هجرها ما يبلغن بى الهجر
فيا حبها زدنى جوى كل ليـلة ويا سلوة الأيام موعدك الحشر

وأحب أن أقف بك عند تلك الأمنية البدوية الساذجة :

فليت قلوصى عند عزة قيدت بحبل ضعيف غر منها فضلت

يود أن يقيم بجوار عزة فيشتهى أن تضل ناقته فى الصحراء ضلالا بعيدا ويكون فى إقامته عندها كرجل أشل يعجز عن الحركة والنهوض أو كناقة هرجاء لا يستقيم لها المسير إلا بعد عناء . وهى على سذاجتها وبداوتها خير من أمنية تصورها هذه الأبيات التى قالها كثير :

وددت وبيت الله أنك بكرة هجان وأنى مصعب ثم نهرب
كلانا به عر فمن يرنا يقـل على حسنها جرباء تعدى وأجرب
تكـون لذى مال كثير مغفل فلا هو يرعانا ولا نحن نُطلب
إذا ما وردنا منهلا صاح أهله علينا فما ننفك نرمى ونضرب

قد تمنى كثير من الشعراء مثل هذه الأمانى وكلها تغلب عليها بداوة المعنى وسذاجته ، وتطبع بطابع الأنانية وحب الذات ، فمن أسوئها قول الشاعر :

من أجلهـا أتمنى أن يلاقينى من نحو بلدتها ناع فينعاها
كيما أقول افتراق لا اجتماع له وتضمر النفس يأساً ثم تسلاها

ومن أحسنها :

تمنيت من حـــبى علية أننا على رمث فى البحر ليس لنا وفر
على دائم لا يعبر الفلك موجه ومن دوننا الأهوال واللجج الخضر
فنقضى هموم النفس فى غير رقبة ويغرق من نخشى نميمته البحر

ثم انظر إلى هذا البيت :

خليـــلى إن الحاجبية طلحت قلوصيـكما وناقتى قـد أكلت

ألست ترى اضطرابا فى الوزن منشؤه أنه أدخل القبض فى حشو الطويل فاختل النظم ونبا عنه السمع وهو فى الوقت نفسه سخيف المعنى ، أليس محصوله أننا تعبنا فى طلب هذه المرأة ، فأكلّ السامعين والقارئين بذكر القلوص والناقة وأكلت وطلحت ، مع ما فى إسناد هذين الفعلين إليها من فساد الذوق ورداءة الطبع .

وماهدفى فى هذه الدراسة أن أستقصى عيوبها . وإنما أومىء ببعضها ، لتستأنس فى دراستك أنت بها وتبنى عليها مايجرى مجراها ومع هـذا فإن القصيدة فيها محاسن استمالت المتقدمين فقدموها بها ، فهى تصور لك الغزل فى عهد بنى أمية وأنه صار فناً مستقلا يقصد إليه الشعراء ، وتقدم لك صورة حسية رائعة تصور منازل الأحباب مرّ بها عشاق معاميد فوقفوا يبكون زمانا موليا قضوه فيها ثم ولى بآمالهم وأحلامهم ولم تبق إلا ذكريات هـذا الماضى تصور لك حبيباً ظالما مسرفا فى ظلمه هاجراً قاسيا فى هجره لايسمع لشكاة ولا يرق لأنين ، تمثل الظن الكاذب والرجاء الخائب والحبيب الميؤوس منه ، فتراه بعينك وتلمسه بيديك فيخرج من حيز المعقول إلى دائرة المحسوس واضحا لا لبس فيه ولا غموض .

فى هذه القصيدة صور بيانية رائعة فقد أكثر فيها من التشبيه والتمثيل حتى ندّ البيت الخالى منها . إنك حين تقرأ هذه القصيدة وتتعرف الوجوه الفنية فيها تميل إلى رأى القائلين بأن الشعراء فى عصر بنى أمية كان فيهم من يتوخى ضروبا من البديع ويتعمد أن يجتمع له فى شعره فنون البيان .

إن كثيرا قد التزم فى القصيدة ما لا يلزم خلا بيتين منها هما :

فما أنصفت أمّا النساءَ فبغضت إلىّ وأمّا بالنوال فضنت

أصاب الردى من كان يهوى لها الردى وجن اللواتى قلن عزة جنت

وارصد فيها كثيراً واقرأ إن شئت :

أباحت حمى

فوالله ثم الله

وإنى وتهيامى

ثم هذا الطباق الذى تراه فى : شدت وحلت ، أكثرت وأقلت ، ثبتْ وزالّت ، إلى غير ذلك من الصور التى تتكاثر عليك إذا طلبتها .

ولم تمنعه شاعريته من الوقوع فيما يشبه أن يكون خطأ قد يرجع إلى الضرورة الشعرية كالتعبير بثم فى موضع الفاء فى قوله ثم أبكيا حيث حلت ، وكالحشو فى قوله لو تمشى بها العصم زلت ، وفى قوله : غداة المأزمين وقوله بفيها غزال ، وكالتهافت فى قوله : فوالله ثم الله .

والقصيدة على كل حال تعتبر من القصائد المشهورة فى الأدب العربى .

دالية الفرزدق ودراستها

قال الفرزدق الشاعر الأموى :

وهو أحد الشعراء الثلاثة ، الذين حملوا لواء الشعر فى العصر الأموى ، والفرزدق بخاصة أحيا ثلث اللغة العربية فى شعره ، واسمه همام بن غالب بن صعصعة ابن ناجية بن عقال من بنى مجاشع بن دارم التميمى وكنيته أبو فراس ؛ ويقال إن أن الأبيات للبرج التميمى ، وكان الحجاج قد وجهه لقتال الأزارقة فهرب إلى الشام وقال هذه الأبيات ، ونسبت إلى مالك بن الريب فى كتاب الكامل للمبرد :

إن تنصفونا يالَ مروان نقترب ... منكم وإلا فأذنوا ببعـــاد[1]

فإنَّ لنا عنكم مراحا ومذهبا ... بعيس إلى ريح الفلاة صوادى

مخيسة بزل تخايل فى البرى ... سوار على طول الفلاة غوادى[2]

---

(١) تنصفونا تعاملونا بالعدل . وأذنوا اعلموا من أذن بالشىء يأذن إذنا وأذنه بالفتح فيهما علم به — يقول : إن عدلتم فى معاملتنا أقمنا معكم وفى ولايتكم وعلى ولاء لكم ، وإن جرتم فاعلموا أنا قادرون على الخروج عليـــكم والبعد عنكم .

(٢) مراحا : مصدر ميمى من راح الرجل يروح ويريح روحا وريحا ذهب وتباعد . والعيس الإبل البيض يخالط بياضها شقرة والذكر أعيس والأنثى عيساء . والصوادى العطاش من صدى كتعب عطش . ومخيسة مروضة مذللة اسم مفعول من خيس الدابة راضها وذللها . وبزل بضمتين سكن للضرورة جمع بزول كصبور وصبر من بزل البعـــير طلع نابه فهو وهى بازل وبزول وذلك إذا بلغ التاسعة . والبرى جمع برة حلقة تجعل فى أنف البعير . والتخايل والاختيال المرح والنشاط . والسوارى السائرة بالليل من سرى يسرى . والغوادى السائرة بالنهار . والمعنى : إن خرجتم فى معاملتنا عن العـــدل ابتعدنا عنكم وخرجنا من ولايتكم إلى فلاة لم تنلها قدرتكم ولم يبلغها سلطانكم بإبل نجيبة تحن إلى الصحراء منقادة لأمرنا

وفى الأرض عن ذى الجور منأى ومذهب
وكل بلاد أوطنت كبلادى(١)

وماذا عسى الحجاج يبلغ جهده إذا نحن خلفنا حفير زياد(٢)

فباست أبى الحجاج واست عجوزه عتيدَ بُهْمٍ ترتعى بوهاد(٣)

موقوفة على إرادتنا قادرة قوية على قطع المسافات البعيدة ، مطيقة ، تواصل سرى الليل بسير النهار .

(١) المنأى مكان النأى وهو البعد والمذهب مكان الذهاب ، وأوطنت مبنى للمجهول يقال أوطنت الأرض ووطنتها توطينا واستوطنتها إذا اتخذتها وطنا تقيم فيه .

يقول فى الأرض أماكن فسيحة تنجيك من احتمال الضيم وكل بلاد أقمت بها وطاب لك العيش فيها هى كمسقط رأسك ومحل ولادتك :

تلقى بكل بلاد إن أقمت بها أهلا بأهل وجيرانا بجيران

كشف لك فى هذا البيت أن نفسه تطيب بالسفر وتسلو عن الأهل والبلد إذا لم تجد عدالة تعيش فى ظلها وما الإقامة فى دار يسودها الظلم .

(٢) الجهد الطاقة وخلفنا تركنا وراءنا . وحفير زياد نهر حفره زياد ابن أبيه . يقول : إذا فارقت مملكته وتباعدت عن سلطانه وجاوزت حدود عمله فلا قدرة له على .

(٣) الاست العجز ويراد به حلقة الدبر كما هنا وأصله سته بفتحتين . وعتيد مصغر عتود وهو مارعى وقوى من أولاد المعز وأتى عليه حول . والبهم أولاد المعز الصغار الواحد بهمة للذكر والأنثى .

وباسته متعلق بفعل محذوف وهى من شتائم العرب الفحشة وعتيد منصوب على الذم . والمعنى : أنه فى خسته ودناءته ورياسته لأمثاله أشبه بعتود مع بهم .

فلولا بنو مروان كان ابن يوسف كما كان عبداً من عبيد إياد
زمان هو العبد المعز بذله يراوح صبيان القرى ويغادى[1]

* * *

ومن هرب من الحجاج العديل بن الفرخ العجلى وكان قتل مولى له فلما طلبه الحجاج هرب ، وكان كلما حل ببلدة روعته عيون الحجاج فقال :

يخيفونى الحجاج حتى كأنما يحرك عظم فى الفؤاد مهيض
ودون يد الحجاج من ان تنالنى بساط لأيدى اليعملات عريض

فلم يلبث ان أتى به إلى الحجاج فقال له أنت القائل : ودون يد الحجاج ، فهل نجاك بساطك العريض فقال بل أنا القائل :

فلو كنت فى سلمى أجا وشعابها لكان لحجاج على دليل
بنى قبة الإسلام حتى كأنما أتى الناس من بعد الضلال رسول

---

(١) يقول : لولا عبد الملك بن مروان وبنوه لظل الحجاج معلم كتاب وهم يذكرون أن الحجاج كان معلما بالطائف وكان لقبه كليبا وفى ذلك يقول الشاعر :

أينسى كليب زمان الهزال وتعليمه سورة الكوثر
رغيف له فلكة ماترى وآخر كالقمر الأزهر

والعرب تحط من أقدار المعلمين وتضرب بهم المثل فى الضعف وتنهى عن مشاورتهم ، روى الجاحظ أنهم كانوا يقولون : لا ينبغى لعاقل أن يشاور أحداً من خمسة : الغزال والقطان والمعلم وراعى الضان والرجل الكثير المحادثة للنساء .

وتلك بقية من أميتهم حالت بينهم وبين فهم مركز المعلم فى الحياة ، فأنبياء الله ورسله وفلاسفة العالم وقادة الفكر فيه معلمون يخرجون الناس من ظلمات الجهل إلى نور العلم والمعرفة فلا يضرهم رأى صادر عن جهالة جهلاء وضلالة عمياء .

إذا جاركم الناس ألجأ حكمه إلى الله قاض بالكتاب عقول
خليل أمير المؤمنين وسيفه لكل إمام صاحب وخليل
به نصر الله الخليفة منهم وثبت ملكا كاد عنه يزول
نخلى عنه وتحمل دينه فى ماله ..

وقد أكثر الشعراء فى هذا المعنى من ذلك قول منصور النمرى :

هاك يدى ضاقت بى الأرض رحبها وإن كنت قد طوفت كل مكان
فلو كنت بالعنقاء أو بيسومها لخلتك إلا أن تصد ترانى

وقد فضل الأصمعى منصورا على النابغة فى قوله :

فإنك كالليل الذى هو مدركى وإن خلت أن المنتأى عنك واسع

فقال : أراد أن يشبهه بالليل فى الإدراك ، والليل والنهار يستويان فى ذلك فكان عليه أن يأتى بمالا قسيم له ، وقد أخطأ الأصمعى فيما ذهب إليه ، إذ لا شك أن النابغة أراد أن يصف سعة سلطان النعمان وطول يده وتمام قدرته وأن ملكه قد عم الآفاق فلا منجى للهارب منه إلا إليه ، فهو أشبه بالليل فى عموم الإدراك لكنه إدراك ساخط تبث فيه الحبائل وتفاجىء فيه الأهوال ، والتشبيه بالنهار لا يعطينا هذا المعنى ولو كان إدراكا ساراً لكان النهار أشبه به ، ألا ترى إلى قول الشاعر :

نعمة كالشمس لما طلعت بثت الإشراق فى كل بلد

لما أراد أن نعمته قد عمت البرية وشملت القريب والبعيد ولم يبق إنسان لم يستفد منها وينتعش بها وكانت مع عمومها سارة للنفوس محيية للآمال مزيلة للبؤس ، شبهها بالشمس التى تعم مؤنسة وتشمل مونقة معجبة ؛ ولو عكس فشبه

---

(١) البساط الأرض الواسعة ، واليعملات النوق المطبوعة على العمل واحدتها يعمل ويعملة ، وسلمى وأجأ جبلان لطىء ، والشعاب الطرق بين الجبال الواحد شعب ، ومعنى قوله « فلو كنت فى سلمى الخ » أن الهارب من الحجاج لا ينجو منه وأن له سلطانا يمتد ظله فى أرجاء الجزيرة العربية وعيونا فى كل نواحيها ترد الخارجين عليه وتقيد الهاربين منه .

بالليل لأحال وبلغ غاية الشناعة والقبح ، كذلك النابغة لو شبه بالنهار لا نتقض عليه معناه ، بل لو قال قائل إن بيت العديل خير من بيت النمرى لم يعد الصواب فقد اشتركا معا فى صدر البيت اشتراكا لا تمايز فيه وفضل العديل بسبقه .
وقوله « لكان لحجاج على دليل ، أتم من « لخلتك إلا أن تصد ترانى » لأن كل خائف مطلوب يخال عدوه يراه ويحسب الثنايا ترمى إليه بالمنايا مادام فى عدوه شىء من البأس والقدرة على الانتقام :

كأن فجاج الأرض وهى عريضة   على الخائف المطلوب كفة حابل
يؤتى إليه أن كل ثنيــة   تيممها ترمى إليــه بقاتل

وقول النمرى « إلا أن تصد » اعتراض بين الفعل ومفعوله أو تقديم لمستثنى أحدث شيئا من اللوثة فى الكلام مع الاستغناء عنه . وقد قال سلم الخاسر فى هذا المعنى :

فأنت كالدهر مبثوثا حبائله   والدهر لا ملجأ منه ولا هرب
ولو ملكت عنان الريح أصرفها   فى كل ناحية ما فاتك الطلب

وقال البحترى :

ولو أنهم ركبوا الكواكب لم يكن   ينجيهم من خوف بأسك مهرب

وقال على بن جبلة :

وما لامرىء حاولته منك مهرب   ولو رفعته فى السماء المطالع
بلى هارب لا يهتدى لمكانه   ظلام ولا ضوء من الصبح ساطع

قصيدة سعد بن ناشب الشاعر الأموى

قال سعد بن ناشب (١) :

سأغسل عنى العار بالسيف جالبا	على قضاء الله ما كان جالبا (٢)
وأذهل عن دارى وأجعل هدمها	لعرضى من باقى المذمة حاجبا (٣)
ويصغر فى عينى تلادى إذ انثنت	يمينى بإدراك الذى كنت طالبا (٤)
فإن تهدموا بالغدر دارى فإنها	تراث كريم لا يبالى العواقبا (٥)

(١) سعد بن ناشب من بنى تميم ومن شياطين العرب وفتاكهم ومن شعراء بنى أمية . قال الشعر فى باب الحماسة لموافقته لميوله وملاءمته لحياته .

وسبب هـــذا الشعر أنه أغار على قوم فقتل منهم وطلبه الوالى فلم يظفر به فهدم داره .

(٢) الغسل إزالة الوسخ ، والعار العيب ، والقضاء الحكم ، وجلب الشيء : ساقه وجاء به .

(٣) الذهل والذهول تركك الشى عامداً أو متغافلا عنه أو ناسيا له وقد ذهل عنه بالكسر والفتح يذهل بالفتح تركه والهدم القلع والتخريب والعرض موضع المدح والذم من الرجل ونفسه ومايعده من مفاخرآبائه . يريد لايحمل داره غرضه الذى يهتم به إنما همه المحافظة على عرضه وسلامته من الذم الباقى .

(٤) يصغر يهون ، والتلاد المال القديم ، وخصه بالذكر لأن النفس به أضن وعليه أحرص ، وانثنت ظفرت بمطلوبها من محو العار .

والمعنى : ويهون على مالى ويقل شأنه مادمت أصون به عرضى وأحفظ به شرفى وأبلغ به مرادى من الانتقام ممن هدم دارى فلا خير فى مال لا يقى صاحبه الذم ولا يدفع عنه المكروه .

(٥) التراث الميراث وأصله وراث من ورث . ولايبالى لايحفل . وعاقبة كل شىء : نهايته

أخى غمرات لا يريد على الذى ... يهم به من مفظع الأمر صاحباً(١)

إذا هم لم تردع عزيمة همه ... ولم يأت ما يأتى من الأمر هائبا(٢)

فيا لرزام رشحوا بى مقدما ... إلى الموت خواضاً إليه الكتائبا(٣)

إذا هم ألقى بين عينيه عزمه ... ونكب عن ذكر العواقب جانبا(٤)

يقول : إن تهدموا دارى فى غيبة من يدافع عنها فإنى سأدعها للوارث ولا يبقى عليها فكيف أحفل بها وأوثرها على جميل الذكر ، كل هذا استهانة بشأن المال الذى يتكالب عليه الناس ويبيعون به الدين ويفقدون من أجله الشرف والمروءة ويرتدون أثواب المذلة والمهانة حرصا عليه وصونا له .

(١) الغمرات الشدائد واحدتها غمرة ويهم به يعزم عليه ومفظع الأمر من أفظع الأمر اشتد وشنع وجاوز الحد . وإخاء الغمرات كناية عن ملازمتها . يقول : إنى قاسيت الشدائد حتى ألفتها واحتملت المكاره حتى أنست بها فصرت لا أحتاج فى اقتحامها إلى معين .

(٢) هم بالأمر عزم عليه ووطن نفسه على فعله . وتردع تكف وتزجر . وهائبا خائفا .

والمعنى : إذا هم بأمر لم تقف فى سبيله العقبات ولم تحل الحوائل بينه وبين ما يريد ، ومضى إلى غرضه غير هياب ولا متخوف سوء العواقب .

(٣) فيا لرزام : يريد فيآل رزام ، ورزام أبو حى من تميم ، ورشحوا بى : هيئوا وأعدوا بإعدادى رجلا مقدما إلى الموت ، والمراد بالرجل نفسه كأنه قال أعدونى . والترشيح تربية الشىء وتهيئته لما يراد منه . ومقدما من قدم اللازم بمعنى تقدم . والكتائب الجيوش المجتمعة واحدتها الكتيبة .

والمعنى يا بنى رزام أعدونى لأعدائكم أقتحم جيوشها وأبدد جموعها وأحرز لكم النصر عليها .

(٤) ألقى بين عينيه عزمه جعله نصب عينيه لا يغفل عنه ونكب : أمال . والمعنى : إذا عزم على شىء تجرد له ووفر عنايته به وصرف الشواغل عن نفسه ونفى الخواطر عن ذهنه فلم يفكر إلا فيه ولم يأخذ فى سواه حتى يتمه ويبلغ الغاية منه ضاربا صفحا عن كل ما يترتب عليه .

ولم يستشر فى رأيه غير نفسه ولم يرض إلا قائم السيف صاحبا[1]

تحليل ودراسة :

يبدو لك من قراءة هذه الأبيات أن الشاعر منقاد لطبيعته البدوية فهو ميال للانتقام كاره للنظام خارج على القانون ذاهل عن ماله وداره فى سبيل المحافظة على عرضه ، ذو عزيمة ماضية لا تعتريها حيرة ولا تثنيها عقبة ، شجاع يخوض الجيوش ويقتحم العقبات واثق بنفسه معتمد على بأسه يركب الهول وحيداً لا يصحبه إلا سيف صارم ، يرعى وده ويحفظ عهده فلا يخون فى شدة ولا ينبو عن ضريبة . مستبد برأيه ، يمضيه منفرداً فلا يحتاج إلى مشير يبصره بالصواب ويرشده إلى قصد السبيل لأن ذلك فى رأيه عجز تأباه كرامته وتنفر منه سجيته ، متوعد لأميره الذى هدم داره مصمم على أخذ ثاره ، مهما ركب فى طريقه من أهوال ولاقى من خطوب جسام .

فهو يمهل أمره ولا يهمله ، يتربص به الأيام على فرصة تمر فينتهزها وخصاصة تظهر فيهجم عليه منها . ولئن عجز الآن عن الانتقام فطالب الثأر لا ينام ، فالأيام تلد العجائب والصبر خير معين على إدراك الرغائب .

ومعانيها ترجع فى جملتها إلى الوصف بالشجاعة وقلة المبالاة وإمضاء العزم والاستبداد بالرأى وانتهاز الفرص للأخذ بالثأر ، وهى معان تلائم أشد الملاءمة باب الحماسة من أبواب الشعر العربى ، وألفاظها جزلة قوية ، وأسلوبها متين رصين خال من التكلف برىء من التعقيد تخللته وجوه بيانية جميلة : ففى البيت الأول استعارة مكنية فى كلمة العار وأخرى فى كلمة الكتائب فى البيت السابع وثالثة فى عزيمة همه فى البيت السادس ومجاز مرسل فى كلمة تراث فى البيت الرابع وتجريد فى (رشحوا بى) فى البيت السابع وكناية عن صفة فى كلمة (أخى غمرات) واستعارة تمثيلية فى قوله « ألق بين عينيه عزمه » .

---

(١) قائم السيف مقبضه ، يريد أنه مستبد برأيه لا يشاور فيه أحداً ولا يصاحب إلا سيفه فإنه نعم الصاحب لا يخذله ولا يخونه .

وإنى لمعجب بهذا التعبير الذى يدل على تمام التجرد للعزم وخلو النفس لإمضائه ، وما ذاك إلا لأنه أخرجه من معنى يدرك بالعقل إلى مرئى يشاهد بالعين ، وكأنه يستعجلك ويلح عليك فلا يدع لك فرصة تتريث فيها :

وقد تأخذ على هذا الشاعر أنه ترك الفكر فى العواقب فترك عظيما مما يتحلى به الرجال وهو الحزم ، والعرب تقول : رَوِّ تحزم فإذا تبينت فاعزم . ومن كلامهم : قبل الرماء تملأ الكنائن . ومن مديحهم :

وأوقف عند الأمر مالم يضح له   وأمضى إذا ماشك من كان ماضيا

فجمع له فى هذا البيت الحزم والعزم معا

فلا شك فيه أن الأقدام على الضرر وركوب الأمر على الخطر مما لا يحمده عاقل ومما ينكره الدين ، إنما المحمود أن تتريث حتى يضيء لك الرأى المستنير الطريق ويرشد الفكر المستبصر إلى أقرب المسالك وأحراها أن يأخذ بيدك إلى نجوة تعصمك من الزلل . لكن هذا الشاعر ليس ممن يستمع لصوت العقل ويستجيب لدعاء الدين حتى تصفه بالقصور . وليس بناقصه حظه من الإجادة أن تخالف الجمع على استحسانه لكن الذى يضيره ألا يعبر عن عواطفه التى تجيش فى نفسه وعن افكاره التى تجول فى خلده أو يحاول كبتها مجاراة لعرف قائم وتقليد مصطلح عليه . وشاعرنا هذا فاتك خارج على القانون والنظام محب أن يستقبل شمس الحرية باسما مستبشرا يخوض المنايا فى سبيلها ويقتحم الأهوال حتى يتمكن من الوصول إليها والإقامة فى ذراها .

فصفه إذا شئت بإضاعة الحزم وضلال الرأى والبعد عن الجادة . ولكن قل إن شعره حسن يعبر عن شخصيته تعبيرا جميلا .

من مجالس الأدب في العصرين

الأموى والعباسى

— ١ —

اجتمع الفرزدق وجميل وجرير ونصيب وكثير فى موسم(١) من المواسم ، فقال بعضهم لبعض : والله لقد اجتمعنا فى هذا الموسم ، وما ينبغى لنا أن نتفرق إلا وقد تتابع لنا فى الناس شىء نذكر به . فقال جرير : هل لكم فى سكينة(٢) بنت الحسين نقصدها فنسلم عليها . فلعل ذلك يكون سببا لبعض ما نريد ؟ فقالوا : امضوا بنا ، فمكثوا أياما ، ثم أذنت لهم ، فدخلوا عليها ، وقعدت لهم حيث تراهم ولا يرونها ، ثم أخرجت لهم وصيفة لها وضيئة ، قد روت الأشعار والأحاديث ، فأقرأها كل منهم السلام ، فقالت : أيكم الفرزدق ؟ فقال : هأنذا . قالت : أنت الذى يقول :

أبيت أمنى النفس أن سوف نلتقى ... وهل هو مقدور لنفسى لقاؤها ؟
فإن ألقها أو يجمع الدهر بيننا ... ففيها شفاء النفس منها وداؤها

قال : نعم ، قالت : قولك أحسن من منظرك . وأنت القائل :

ودعننى بيشاشة وتحية ... وتركننى بين الديار قتيلا
لم أستطع رد الجواب عليهم ... عند الوداع وما شفين غليلا
لو كنت أملكهم إذن لم يبرحوا ... حتى أودع قلبى المخبولا

قال : نعم : قالت أحسنت ، أحسن الله اليك ، وأنت القائل :

---

(١) المحاسن والمساوىء ص ٢٣٤ طبع ليبزج ، مصارع العشاق ص ٢٨٢ - الأغانى ١٦٩ ج ١٤ ، الموشح ص ١٥٩

(٢) هى سكينة بنت الحسين عليه السلام ، أديبة راوية ناقدة ، توفيت ، عام ١١٧ ه .

هما دلتاني من ثمانين قامة كما انقض باز أقتم الريش كاسره (١)
فلما استوت رجلاى فى الأرض نادتا : أحى فيرجى أم قتيل نحاذره ؟

قال : نعم . قالت : فما دعاك إلى إفشاء سرها وسرك ، هلا سترت عليها وعلى نفسك ؟ فضرب بيده على جبهته ، وقال : نعم ، فسوءة لى .

ثم دخلت على مولاتها وخرجت وقالت : أيكم جرير ؟ فقال : هأنذا : قالت : أنت القائل :

رزقنا به الصيد الغرير ولم نكن كمن نبله محرومة وحبائله
فيهات هيهات العقيق ومن به وهيهات حى بالعقيق نواصله

قال نعم ! قالت : أحسن الله إليك ، وأنت القائل :

كأن عيون المجتلين تعرضت وشمسا تجلى يوم دجن (٢) سحابها
إذا ذكرت للقلب كاد لذكرها يطير اليها واعتراه عذابها

قال : نعم : قالت : أحسنت ! وأنت القائل :

سرت الهموم فبتن غير نيام وأخو الهموم يروم كل مرام
ذم المنازل بعد منزلة اللوى والعيش بعد أولئك الأيام
طرقتك صائدة القلوب وليس ذا وقت الزيارة فارجعى بسلام
لو كان عهدك كالذى حدثتنى لو صلت ذاك فكنت غير ذمام
تجرى السواك على أغر كأنه برد تحدر من متون غمام

قال : نعم ! قالت : سوءة لك ! جعلتها صائدة القلوب ، حتى إذا أناخت جعلت دونها حجابا ! ألا قلت :

---

(١) كسر الطائر جناحيه : إذا ضم منهما شيئا ، وهو يريد الوقوع أو الانقضاض.

(٢) الدجن : المطر الكثير .

طرقتك صائدة القلوب فرحبا نفسى فداؤك فادخلى بسلام

قال : نعم ! فسوءة لى .

ودخلت على مولاتها وخرجت ، وقالت : أيكم كثير ؟ فقال : هأنذا ! فقالت : أنت القائل :

وأعجبنى يا عز منك خلائق حسان إذا عد الخلائق أربع

دنوك حتى يطمع الصب فى الصبا وقطعك أسباب الصبا حين تقطع

وأنك لاتدرى غريما مطلته أيشتد إن قاضاك أم يتضرع

وأنك إن واصلت أعلمت بالذى لديك فلم يوجد لك الدهر مطمع

قال : نعم ! قالت : أعطاك الله مناك ، وأنت القائل :

هنيئا مريئا غير داء مخامر لعزة من أعراضنا ما استحلت

فما أنا بالداعى لعزة فى الورى ولا شامت إن نعل عزة زلت

وكنت كذى رجلين : رجل صحيحة ورجل رمى فيها الزمان فشلت

قال : نعم ، قالت : أحسن الله اليك .

ثم دخلت على مولاتها وخرجت ، وقالت : أيكم نصيب ؟ فقال : هأنذا ؟ قالت أنت القائل :

ولولا أن يقال صبا نصيب لقلت : بنفسى النشأ [1] الصغار

قال : نعم ، قالت : أحسنت وكرمت ، إلا أنك صبوت إلى الصغار ، وتركت الناهضات بأحمالها .

ثم دخلت على مولاتها وخرجت ، وقالت : أيكم جميل ؟ قال : أنا ؟ قالت: أنت القائل :

لقد ذرفت عينى وطال سفوحها وأصبح من نفسى سقيما صحيحها

---

(١) النشأ : جمع ناشىء للمذكر والمؤنث ، وهو الحدث الذى جاوز حد الصغر .

فيا ليتنا كنا جميعا وإن نمت يجاور فى الموتى ضريحى ضريحها
أظل نهارى مستهاما ويلتقى مع الليل روحى فى المنام وروحها
فهل لى فى كتمان حبى راحة وهل تنفعنى بوحة لو أبوحها ؟

قال : نعم ! قالت : بارك الله عليك ! وأنت القائل :

خليلى فيما عشتما هل رأيتما قتيلا بكى من حب قاتله قبلى ؟
أبيت مع الهلاك ضيفا لأهلها وأهلى قريب موسعون ذوو فضل
فيارب إن تهلك بثينة لا أعش فواقاً[1] ولا أفرح بمالى ولا أهلى
ويارب إن وقيت شيئا فوقها حتوف المنايا رب واجمع بها شملى

قال : نعم ! قالت أحسنت ، أحسن الله إليك ، وأنت القائل :

ألا ليت شعرى هل أبيتن ليلة بوادى القرى إنى إذا لسعيد
لكل حديث عندهن بشاشة وكل قتيل بينهن شهيد
وياليت أيام الصبا كن رجعاً ودهراً تولى يابثين يعود
إذا قلت : مابى يا بثينة قاتلى من الحب قالت : ثابت ويزيد
وإن قلت : ردى بعض عقلى أعش به تناءت وقالت : ذاك منك بعيد
فما ذكر الخلان إلا ذكرتها ولا البخل إلا قلت سوف تجود
فلا أنا مردود بما جئت طالبا ولا حبها فيما يبيد يبيد
يموت الهوى منى إذا مالقيتها ويحيا إذا فارقتها ويزيد

قال : نعم ! قالت : لله أنت ، جعلت لحديثها ملاحة وبشاشة ، وجعلت قتيلها شهيداً ، وأنت القائل :

---

(١) فواقا : فترة .

ألا ليتنى أعمى أصم تقودنى   بثينة لايخفى على مكانهـــا

قال : نعم ! قالت : قد رضيت من الدنيا أن تقودك بثينة وأنت أعمى أصم ؟ قال نعم .

ثم دخلت على مولاتها وخرجت ، ومعها مدهن فيه غالية[1] ، ومنديل فيه كسوة ، وصرة فيها خمسمائة دينار ، فصبت الغالية على رأس جميل ، حتى سالت على لحيته ، ودفعت إليه الصرة والكسوة ، وقالت ابسط لنا العذر ، أنت أشعرهم ، وأمرت لأصحابه بمائة ، مائة .

(٢)

خرج[2] الفرزدق[3] حاجاً ، فلما قضى حجه عدل إلى المدينة ، فدخل إلى سكينة بنت الحسين ، فسلم ، فقالت له : يافرزدق ، من أشعر الناس ؟ قال : أنا ، قالت : كذبت ، أشعر منك الذي يقول :

بنفسى من تجنبهُ عزيز   علىّ ومن زيارته لمـــام

ومن أمسى وأصبح لاأراه   ويطرقنى إذا هجع النيـام

فقال : أما والله لو أذنت لى لأسمعتك أحسن منه . قالت : أقيموه ، فأخرج ، ثم عاد منها من الغد ، فدخل عليها ، فقالت يا فرزدق ، من أشعر

---

(١) الغالية : طيب .

(٢) الأغانى ص ٣٨ ج ٨ ، مصارع العشاق ص ٧٤ ، المحاسن والمساوىء ص ١٣٣ طبع ليبزج .

(٣) الفرزدق هو أبو فراس همام بن غالب ، نشأ بالبصرة وأخذه أبوه برواية الشعر فنظمه ونبغ فيه ، وتعرف بولاة البصرة ومدحهم وهجاهم ، ثم رحل إلى خلفاء بنى أمية بالشام ومدحهم ونال جوائزهم ، مات سنة ١١٠ هـ

الناس ؟ فقال أنا ، قالت كذبت ، صاحبك جرير أشعر منك حيث يقول :

لولا الحياء لعادنى استعبار ولزرت قبرك والحبيب يزار

كانت إذا هجر الضجيع فراشها[١] كتم الحديث وعفت الأسرار

لايلبث القرناء أن يتفرقوا ليل يكر عليهم ونهار

فقال : والله لئن أذنت لى لأسمعتك أحسن منه ، فأمرت به فأخرج .

ثم عاد إليها فى اليوم الثالث ، وحولها مولدات لها كأنهن التماثيل ، فنظر الفرزدق إلى واحدة منهن فأعجب بها ، وبهت ينظر إليها . فقالت له سكينة : يا فرزدق ، من أشعر الناس ؟ قال أنا ، قالت كذبت ، صاحبك أشعر منك حيث يقول :

إن العيون التى فى طرفها مرض قتلننا ثم لم يحيين قتلانا

يصرعن ذا اللب حتى لاحراك به وهن أضعف خلق الله إنسانا

فقال : لئن تركتنى لأسمعنك أحسن منه فأمرت بإخراجه فالتفت إليها وقال : يا بنت رسول الله ، إن لى عليك حقاً عظيما . قالت : وما هو ؟ قال : ضربت إليك آباط الابل من مكة إرادة التسليم عليك ، فكان جزائى من ذلك تكذيبى وطردى ، وتفضيل جرير على ، ومنعك إياى أن أنشدك شيئا من شعرى ، وبى ماقد عيل منه صبرى ، وهذه المنايا تغدو وتروح ، ولعلى لا أفارق المدينة حتى أموت ، فإذا أنا مت فمرى بى أن أدرج فى كفنى ثم أدفن فى ثياب هذه الجارية[٢] .

فضحكت سكينة وأمرت له بالجارية ، فخرج بها آخذا بريطتها[٣] ، ثم

---

(١) الضجيع : الزوج ، وهجرها أن يغيب عنها ، يصفها بالعفاف .

(٢) يشير إلى الجارية التى أعجبته (٣) الريطة : الملاءة .

قالت له يافرزق ، احتفظ بها وأحسن صحبتها ، فإني آثرتك بها على نفسي ، بارك الله لك فيها .

قال الفرزدق : فلم أزل والله أرى البركة بدعائها فى نفسى وأهلى ومالى .

(٣)

روى عن حماد الراوية المتوفى عام ١٥٦ ه قال : كان انقطاعى إلى يزيد ابن عبد الملك ، فكان هشام يجفونى لذلك فى أيام يزيد فلما مات يزيد ، وأفضت الخلافة إلى هشام خفته ، فمكثت فى بيتى سنة ، لا أخرج إلا لمن أثق به من إخوانى سراً .

فلما لم أسمع أحداً يذكرنى سنة أمنت فخرجت فصليت الجمعة ، ثم جلست عند باب الفيل . فاذا شرطيان قد وقفا على فقالا لى يا حماد ، أجب الأمير يوسف[1] بن عمر ، فقلت فى نفسى : من هذا كنت أحذر ، قلت للشرطيين هل لكما أن تدعانى آتى أهلى فأودعهم وداع من لاينصرف اليهم أبداً ثم أصير معكما اليه ؟ فقالا : ما الى ذلك من سبيل .

فاستسلمت فى أيديهما وصرت الى يوسف بن عمر وهو فى الإيوان[2] الأحمر فسلمت عليه فرد على السلام : ورمى الىّ كتابا فيه : « بسم الله الرحمن الرحيم . من عبد الله هشام أمير المؤمنين الى يوسف بن عمر ، أما بعد فإذا قرأت كتابى هـذا فابعث الى حماد الراوية من يأتيك به غير مروع

---

(١) لم يكن يوسف بن عمر واليا على العراق بعد ولاية هشام بسنة ، وإنما كان الوالى عليه خالد القسرى حتى سنة ١٢٠ ه ثم ولى يوسف بعده .
(٢) الايوان : البيت يبنى طولا .

ولا متمتع[(١)] ، وادفع إليه خمسمائة دينار وجملا مهريا[(٢)] يسير عليه اثنتى عشرة ليلة إلى دمشق » .

فأخذت الخمسمائة الدينار ونظرت فإذا جمل من حولى ، فوضعت رجلى فى الغرز[(٣)] ، وسرت اثنتى عشرة ليلة ، حتى وافيت باب هشام . فاستأذنت فأذن لى فدخلت عليه فى دار قوراء[(٤)] مفروشة بالرخام ، وهو فى مجلس مفروش بالرخام ، وبين كل رخامتين قضيب ذهب ، وحيطانه كذلك ، وهشام جالس على طنفسة حمراء ، وعليه ثياب خز حمر ، وقد تضمخ بالمسك والعنبر ، وبين يديه مسك مفتوت فى أوانى ذهب يقلبه بيده فتفوح روائحه فسلمت فرد على ، واستدنانى فدنوت حتى قبلت رجله ، وإذا جاريتان لم أر قبلهما مثلهما ، فى أذنى كل واحدة منهما حلقتان من ذهب ، فيهما لؤلؤتان تتوقدان .

فقال لى : كيف أنت يا حماد ؟ وكيف حالك ؟ فقلت بخير يا أمير المؤمنين ، قال : أتدرى فيم بعثت إليك ، لبيت خطر ببالى لم أدر من قاله . قلت : وما هو ؟ فقال :

فدعوا بالصبوح يوما فجاءت   قينة فى يمينها إبريق

قلت : هذا يقوله عدى بن زيد فى قصيدة له : قال : فأنشدنيها ، فأنشدته :

بكر العاذلون فى وضح الصبح   يقولون لى : ألا تستفيق

---

(١) غير متمتع : من غير أن يصيبه أذى يقلقه ويزعجه .
(٢) مهرة بن حمدان : أبو قبيلة وهم حى عظيم ، وإبل مهرية منسوبة إلى هذا الحى
(٣) الغرز : ركاب الرجل من جلد ، فإذا كان من خشب أو حديد فهو ركاب .
(٤) دار قوراء : واسعة .

ويلومون فيك يا بنة عبد الله   والقلب عنـــدكم موهوق[1]
لست أدرى إذ أكثروا العذل عندى
أعــدو يــلومنى أم صـــديق

فطرب ، ثم قال : أحسنت والله يا حماد ، أعد ؛ فأعـــدت فاستخفه الطرب حتى نزل عن فرشه ، فقال : سل حوائجك ، فقلت : كائنة ما كانت ؟ قال نعم ، قلت : إحدى الجاريتين ، فقال لى : هما جميعاً لك بما عليهما ومالهما .

ثم قال للأولى : اسقيه فسقتنى شربة سقطت معها فلم أعقل حتى أصبحت فإذا بالجاريتين عند رأسى وإذا عدة من الخدم مع كل منهم بدرة ، فقال لى أحدهم : أمير المؤمنين يقرأ عليك السلام ، ويقول لك : خذ هذه فانتفع بها فأخذتها والجاريتين وانصرفت :

(٤)

وقال بعض الرواة :

كنا فى دار أمير المؤمنين المهدى بعيسا باذ[2] ، وقد اجتمع فيها عدة من الرواة والعلماء بأيام العرب وآدابها وأشعارها ولغاتها ، إذ خرج بعض أصحاب الحاجب فدعا بالمفضل الضبى الراوية فدخل ، فمكث مليا ، ثم خرج إلينا ومعه حماد والمفضل[3] جميعاً ، وقد بان فى وجه حماد الانكسار والغم ، وفى وجه المفضل السرور والنشاط .

---

(١) الموهوق : المشدود بالوهق ؛ وهو الحبل . ويروى : موثوق .

(٢) عيسا باذ : محلة كانت شرقى بغداد ، بها بنى المهدى قصره الذى سماه قصر السلام .

(٣) هو المفضل بن محمد بن يعلى الضبى ؛ راوية عالم بالأدب من أهل الكوفة لزم المهدى ، وصنف له كتاب المفضليات ، توفى سنة ١٦٨ هـ

ثم خرج حسين الخادم بعدها ، فقال : يامعشر من حضر من أهل العلم ، إن أمير المؤمنين يعلمكم أنه قد وصل حماداً الشاعر بعشرين ألف درهم ، لجودة شعره ، وأبطل روايته لزيادته فى أشعار الناس ماليس منها ، ووصل المفضل بخمسين ألفا لصدقه وصحة روايته ، فمن أراد أن يسمع شعراً جيداً محدثاً فليسمع من حماد ، ومن أراد رواية صحيحة فليأخذها عن المفضل .

فسألنا عن السبب فأخبرنا أن المهدى قال للمفضل لما دعا به وحده : إنى رأيت زهير بن أبى سلمى افتتح قصيدته بأن قال :

دع ذا وعد القول فى هرم[1]

ولم يتقدم له قبل ذلك قول ، فما الذى أمر نفسه بتركه ؟ فقال له المفضل : ماسمعت يا أمير المؤمنين فى هذا شيئاً إلا أنى توهمته كان يفكر فى قول يقوله ، أو يروِّى فى أن يقول شعراً ، فعدل عنه إلى مدح هرم وقال : « دع ذا . . . » ، أو كان مفكراً فى شىء من شأنه فتركه وقال « دع ذا ... » أى دع ما أنت فيه من الفكر وعد القول فى هرم ، فأمسك عنه .

ثم دعا بحماد فسأله عن مثل ما سأل عنه المفضل فقال حماد : ليس هكذا قال زهير يا أمير المؤمنين ، قال : فكيف قال ؟ فأنشده :

لمن الديار بقنة[2] الحجر أقوين مذ حجج ومذ دهر

---

(١) هرم بن سنان ممدوح زهير .
(٢) القنة : أعلى الجبل ، والحجر : موضع باليمامة .

قفراً بمندفع النحائث[١] من ضفوى[٢] أولات الضال[٣] والسدر
دع ذا وعد القول في هرم خير الكهول وسيد الحضر

قال : فأطرق المهدى ساعة . ثم أقبل على حماد فقال له : قد بلغ أمير المؤمنين عنك خبر لابد من استحلافك عليه ، ثم استحلفه بأيمان البيعة وكل يمين محرجة ليصدقنه عن كل مايسأله عنه ، فحلف له بما توثق منه . ثم قال له : اصدقنى عن حال هذه الأبيات ومن أضافها إلى زهير ، فأقر له حينئذ أنه قائلها ، فأمر فيه ، وفى المفضل ، بما أمر به من شهرة أمرهما وكشفه .

---

(١) النحائث : آبار فى موضع معين . (اللسان مادة نحت) .
(٢) ضفوى : مكان دون المدينة .
(٣) الضال والسدر : نوعان من الشجر .

موازنة بين قطعتين من النثر

(١)

كتب عبد الحميد بن يحيى على لسان مروان بن محمد عهدا إلى ابنه عبد الله بن مروان حين وجهه إلى قتال الضحاك بن قيس الشيبانى :

استكثر من فوائد الخير ، فإنها تنشر المحمدة ، وتقيل العثرة ، واصبر على كظم الغيظ ، فإنه يورث الراحة ، ويؤمن الساحة ؛ وتعهد العامة بمعرفة دخائلهم ، وتبطن أحوالهم ، واستثارة دفائنهم ، حتى تكون منها على رأى عين ، ويقين خبرة ، فتنعش عديمهم ، وتجبر كسيرهم ، وتقوم أودهم ، وتعلم جاهلهم ، وتستصلح فاسدهم ، فإن ذلك من فعلك بهم يورثك العزة ، ويقدمك فى الفضل ، ويبقى لك لسان الصدق فى العامة ، ويحرز لك ثواب الآخرة ، ويرد عليك عواطفهم المستنفرة منك ، وقلوبهم المتنحية عنك . قس بين منازل أهل الفضل فى الدين والحجى والرأى والعقل والتدبير والصيت فى العامة ، وبين منازل أهل النقص فى طبقات الفضل وأحواله ، والخمول عند مباهاة الحسب ؛ وانظر بصحبة أيهم تنال من مودته الجميل ، ويستجمع لك أقاويل العامة على التفضيل ، وتبلغ درجة الشرف فى أحوالك المتصرفة بك ، فاعتمد عليهم مدخلا لهم فى أمرك ، وآثرهم بمجالستك لهم مستمعا منهم . وإياك وتضييعهم مفرطاً ، وإهمالهم مضيعا .

هــــذه جوامع خصال قد لخصها لك أمير المؤمنين مفسراً ، وجمع لك شواذها مؤلفا ، وأهداها إليك مرشدا ، فقف عند أوامرها ، وتناهَ عن زواجرها ، وتثبت فى مجامعها ، وخذ بوثائق عراها ، تسلم من معاطب الردى ،

وتنل أنفس الحظوظ ، ورغيب الشرف ، وتعل درج الذكر ، والله يسأل لك أمير المؤمنين حسن الارشاد ، وتتابع المزيد ، وبلوغ الأمل .. إلى آخر هذا العهد الطويل البليغ .

(٢)

ويذكرنا هذا العهد بعهد الإمام على بن أبي طالب الذى كتبه للأشتر النخعى حين ولاه أمر مصر ، قال الإمام على فيما قال :

اعلم يامالك أنى قد وجهتك إلى بلاد قد جرت عليها دول من قبلك من عدل وجور ، وأن الناس ينظرون فى أمورك فى مثل ما كنت تنظر فيه من أمور الولاة قبلك ، ويقولون فيك كما كنت تقول فيهم ، إنما يُستدل على الصالحين بما يُجرى الله لهم على ألسنة عباده ، فليكن أحب الذخائر إليك ذخيرة العمل الصالح ، فاملك هواك ، وشح بنفسك عما لا يحل لك ؛ فإن الشح بالنفس الإنصاف منها فيما أحببت وكرهت ؛ وأشعر قلبك الرحمة للرعية ، والمحبة لهم ، واللطف بهم ، ولا تكونن عليهم سبعا ضاريا تغتنم أكلهم ، فإنهم صنفان : إما أخ لك فى الدين ، وإما نظير لك فى الخلق ؛ يفرط منهم الزلل ، وتعرض لهم العلل ، ويؤتى على أيديهم فى العمد والخطأ ، فأعطهم من عفوك وصفحك مثل الذى تحب وترضى أن يعطيك الله من عفوه وصفحه ؛ فإنك فوقهم ، وولى الأمر عليك فوقك ، والله فوق من ولاك ، وقد استكفاك أمرهم ، وابتلاك بهم ، ولا تنصبن نفسك لحرب الله ؛ فأنه لا يدى[1] لك بنقمته ؛ ولا غنى بك عن عفوه ورحمته ؛ وليكن أحب الأمور إليك

---

(١) أى لا طاقة لك : مثنى يد .

أوسطها فى الحق ، وأعمها فى العدل ، وأجمعها لرضى الرعية ، فإن سخط العامة يجحف برضا الخاصة ، وإن سخط الخاصة يغتفر مع رضا العامة ، وليس أحد من الرعية أثقل على الوالى مئونة فى الرخاء ، وأقل معونة فى البلاء ، وأكره للانصاف ، وأسأل بالإلحاف ، وأقل شكرا عند الاعطاء ، وأبطأ عذرا عند المنع ، وأخف صبرا عند ملمات الدهر ، من أهل الخاصة . وإنما عمود الدين ، وجماع[1] المسلمين ، والعُدة من الاعداء ؛ العامة من الأمة . فليكن صغوك لهم ، وميلك معهم .

---

(١) جماع الشىء : مجتمع أصله .

موازنة بين هذين النصين

ونحن هنا نستطيع أن نوازن بين هذين العهدين فى إيجاز :

نلاحظ على أسلوب عبد الحميد الميل إلى الإسهاب والترسل ، أما أسلوب الإمام ففيه جنوح إلى الإيجاز مع البلاغة الطيعة المواتية ، وعبد الحميد يملل بلاغة كلامه بما حفظ من كلام الإمام فى أول نشأته ، ونلاحظ أن الإمام عليا كرم الله وجهه قد زود بهذا العهد قائده الأشتر النخعى حين ولاه مصر التى « جرت عليها بلاد قبله من عدل وجور » والتى كانت حديثة عهد بفتنة ذهبت بالخليفة المظلوم عثمان . فكان من الحق أن ينهج له القصد ويهايه السبيل . أما عبد الحميد فقد كتب العهد فيما زعموا إلى ولى العهد وهو ذاهب إلى الحرب ، وعجيب أن يزوّد القائد وهو غاد إلى القتال برسالة تقع فى قرابة خمسين صفحة من هذا الكتاب . وأكثره مما لا صلة للحرب به . وما رأينا أحدا من المؤرخين أثبت هذا العهد فى هذا المقام . وما دهدنا فى مثل هذا الموطن إلا الإيجاز ، وقد يكون عبد الحميد كتب هذا العهد ولا غرض له إلا أن يعارض عهد الإمام على كرم الله وجهه . لذلك لا تجد لهذا العهد رباطا يربطه ، ولا مدارا يدور عليه ، بل أكثره جمل مترادفة ، وموضوعات منتزعة ، لا تكاد تجمعها ألفة ، أو تصلها قرابة .

وانظر إليه حين يسوق إلى وإليه بعض النصائح التى لا يصلها غرض ولا تضمها وشيجة ، كيف ينوه بها فى قوله « هذه خصال . . . » ويسوق فى هذا التنويه عشرين جملة متتابعة .

أما الإمام على رضى الله عنه فقد دق فى ترسله دقة لا يصل إليها أهل الإيجاز ، وذهبت كل فقراته المتلاحقة بمعنى خاص لا يقوم به غيرها ، وانظر

إلى وصفه لأهل الخاصة كيف يقول فيه : « وليس أحد من الرعية أثقل على الوالى مؤونة فى الرخاء ، وأقل معونة فى البلاء ، وأكره للإنصاف ، وأسأل بالإلحاف . وأقل شكرا عند الإعطاء . وأبطأ عذرا عند المنع . وأضعف صبرا عند ملمات الدهر ، من أهل الخاصة » .

فهذه الجمل المتناسقة المتقابلة لم تقع على معنى واحد ، بل وقع كل منها على معنى خاص لابد منه .

ومهما كان فقد تأثر عبد الحميد ببلاغة الإمام على تأثراً كبيرا ظاهراً فى عهده هذا .

خطبة عبد الله بن الزبير فى مكة

فى رثاء أخيه مصعب لما بلغه قتله ٧١ هـ

الحمد لله الذى له الخلق والأمر وملك الدنيا والآخرة ، يؤتى الملك من يشاء ، ويعز من يشاء ، ويذل من يشاء .

أما بعد : فإنه لم يعز من كان الباطل معه ، وإن كان معه الأنام طرا ، ولم يذل من كان الحق معه وإن كان مفردا ضعيفا ، ألا وإنه قد أتانا خبر من العراق فساءنا وسرنا ، أتانا أن مصعبا قتل رحمة الله عليه ومغفرته ، فأما الذى أحزننا من ذلك فإن لفراق الحميم لذعة ولوعة ، يجدها حميمه عند المصيبة ، ثم يرعوى من بعد ذو الرأى والدين إلى جميل الصبر ، وكريم العزاء ، وأما الذى سرنا منه فإنا قد علمنا أن قتله شهادة له ، وأنه عز وجل جاعل لنا وله فى ذلك الخيرة إن شاء الله . . أسلمه الطغام[1] ، الصم الآذان أهل العراق ، وباعوه بأقل الثمن الذى كانوا يأخذون منه ، فإن يقتلوه فقد قتل أبوه وعمه وأخوه ، وكانوا الخيار الصالحين .

خطبة أبى حمزة الخارجى فى مكة

تمهيد :

دخل أبو حمزة الخارجى مكة سنة ١٣٠ هـ فصعد المنبر متوكئاً على قوس له عربية فحمد الله وأثنى عليه ثم قال : أيها الناس إن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان لا يتأخر ولا يتقدم إلا بإذن الله وأمره ووحيه ... ثم تحدث عن أبى بكر وعمر وعثمان وعلى ، ثم عن معاوية وعن ابنه يزيد ، ثم اقتص

«١» أى الأوغاد .

خلفاء بنى أمية خليفة خليفة ، فلما انتهى إلى عمر بن عبد العزيز أعرض عنه ولم يذكره ، ثم تحدث عن الشيعة ، ثم أقبل على أهل الحجاز فقال :

نصوص من الخطبة :

يا أهل الحجاز أتعيرونني بأصحابي وتزعمون أنهم شباب ، وهل كان أصحاب رسول الله إلا شبابا . أما والله إنى لعالم بتتابعكم فيما يضركم فى معادكم ، ولولا اشتغالى بغيركم ما تركت الأخذ فوق أيديكم .

شباب والله مكتهلون فى شبابهم ، غضيضة عن الشر أعينهم ، ثقيلة عن الباطل أرجلهم . أنضاء عبادة وأطلاح سهر ، فنظر الله إليهم فى جوف الليل منحنية أصلابهم على أجزاء القرآن ، كلما مر أحدهم بآية فيها ذكر الجنة بكى شوقا إليها ، وإذا مر بآية فيها ذكر النار شهق شهقة كأن زفير جهنم بين أذنيه ، موصول كلالهم بكلالهم ، كلال الليل بكلال النهار ، قد أكلت الأرض ركبهم وأيديهم وأنوفهم وجباههم واستقلوا ذلك فى جنب الله ، حتى إذا رأوا السهام قد فوقت ، والرماح قد أشرعت والسيوف قد انتضيت ، ورعدت الكتيبة بصواعق الموت وبرقت ، استخفوا بوعيد الكتيبة لوعيد الله ، ومضى الشاب منهم قدما ، حتى اختلفت رجلاه على عنق فرسه ، وتخضبت بالدماء محاسن وجهه ، فأسرعت إليه سباع الأرض ، وانحطت إليه طير السماء ، فكم من عين فى منقار طير طالما بكى صاحبها فى جوف الليل من خوف الله ، وكم من كف زالت عن معصمها طالما اعتمد عليها صاحبها فى جوف الليل بالسجود لله ، ثم قال (أوه أوه أوه) ، ثم بكى ونزل اه .

تعريف :

أبو حمزة الخارجى : أحد نساك الاباضية ، أتباع عبد الله بن إباض ، وهم فرقة من الخوارج ظهرت فى آخر دولة بنى أمية وقامت دولتهم باليمن فى جنوب الجزيرة واستولوا على الحجاز سنة ١٢٩ أيام مروان بن محمد ، وهم إلى

أهل السنة أقرب ولا زالت لهم بقية ببلاد المغرب وزنجبار حتى اليوم .

وأبو حمزة من خطباء الخوارج المشهود لهم بالفصاحة واللسن ، وفيه يقول مالك بن أنس الفقيه الأصبحي : خطبنا أبو حمزة على منبر رسول الله صلى الله عليه وسلم خطبة شك فيها المستبصر ، وردت المرتاب ، يريد بالمستبصر نفسه وما ذلك إلا لما أورده من جيد الكلام وسلامة الحجة وقويم البيان وسواء المحجة . وله خطب رائعة محكمة النسج قوية الأسر ، طالما عبقت فى حللها وخطرت فى مطارفها فهزت أعطاف الدنيا ، وملأت أسماع الزمن ، ومن ذلك خطبته فى وصف أصحابه التى يقول فيها : شباب والله مكتهلون فى شبابهم الخ(١) .

---

(١) اقتص أبو حمزة خلفاء بنى أمية خليفة خليفة : ذكر قصة كل منهم ذاما معددا .

الأخذ فوق أيديكم : الضرب عليها حتى تخضعوا وتذلوا .

المعاد : الرجوع كالعود ، والمعاد الاخرة .

اكتهل : صار كهلا والكهل من وخطه الشيب .

أنضاء عبادة : جمع نضو وهو المهزول من الإبل وغيرها وكذلك أطلاح جمع طلح ، يريد أن العبادة أنهكتهم حتى صاروا كالبعران المهازيل من شدة السهر فى وسط الليل وآخره .

شهق شهيقا وشهاقا وتشهاقا : تردد البكاء فى صدره .

وزفر زفيرا وزفرا : أخرج نفسه بعد مده إياه .

الكلال : التعب والإعياء .

علمان من أعلام الأدب العربى

زياد بن أبى سفيان

١ — ٥٣ هـ

أمير عربى ، وسياسى داهية ، وعبقرى ذائع الشهرة ، وكاتب وخطيب ، ومتكلم بليغ .

ميلاده ونسبه :

ولد زياد فى العام الأول من الهجرة ، ويحيط بنسبه غموض كثير ، فأمه سمية كانت أمة للحارث بن كلدة الثقفى طبيب العرب المشهور ، ويقال إن أحد زعماء الفرس قد وهبه إياها ، وانه زوجها لغلام رومى يسمى « عبيدا » كان من موالى ثقيف ، فولدت له زيادا ، ومن ثم قيل له : زياد بن سمية ، أو زياد ابن عبيد ، ولما استلحق معاوية زيادا بنسب أبيه عام ٤٤ هـ صار يسمى زياد ابن أبى سفيان . وكان أبو سفيان قد ادعاه فى الإسلام ، وقال : إن سمية اشتملت عليه وأنا على الشرك ، وإنى كنت أخشى سطوة عمر بن الخطاب ، وكثير من الباحثين يسمونه زياد بن أبيه .

نشأته وحياته وشخصيته :

نشأ زياد فى شباب الإسلام وعزته ، وسمع القرآن وحفظ الكثير من بلاغته ، ومن روائع البلاغة النبوية ، وتثقف بالثقافة العربية الذائعة فى بيئته ، ونشأ بليغا مفوها ، وكاتبا وخطيباً مجيداً .

واتخذه المغيرة بن شعبة حين ولى الكوفة كاتباً له ، وكذلك استكتبه أبو موسى الأشعرى لما ولى البصرة فى خلافة عمر ، وشاهد عمر ذكاء زياد

ودهاءه وسعة عقله ، فعزله وقال : خفت أن يحمل الناس فضـــل عقله ، ويروى عن عمر حين سئل عن ذلك أنه قال : لا لخيانة ولا لعجز وإنمـا كراهية أن يحمل الناس فضل عقله ، وكان عمرو بن العاص يقول عنه : لله هذا الغلام لوكان أبوه من قريش لساق العرب بعصاه ، وقد ولاه على عام ٣٩ هـ بلاد فارس فضبطها وحمى قلاعها وأعاد الأمن والسلام إلى ربوعها ، ويروى الطبرى أن فارس كانت قد امتنعت عن أداء الخراج وأن علياً استشار الناس فى رجل يوليه هـذه البلاد النائية ، فقـال له جارية بن قدامة : ألا أدلك يا أمير المؤمنين على رجل صليب الرأى عالم بالسياسة لما ولى ؟ قال : من هو ؟ قال : زياد ، قال على : هو لها ، وولاه عليها وعلى كرمان ، ووجهه فى أربعة آلاف فارس فدوخ بهم تلك البلاد ونشر الأمن فى ربوعها ، وكان أهل فارس يقولون : ما رأينا سيرة أشبه بسيرة كسرى أنوشروان من سيرة هذا العربى فى اللين والمداراة والعلم بما يأتى ، وظل زياد والياً عليها لعلى وللحسن بن على بعده ، فاغتم به معاوية ، وفكر فى أمره فأرسل إلى المغيرة بن شعبة فلما دخل قال : « لكل نبأ مستقر ولكل سر مستودع ، وأنت موضع سرى وغاية ثقتى » فقال المغيرة : يا أمير المؤمنين إن تستودعنى سرك تستودعه ناصحاً شفيقاً ورعا صديقا ، فما ذاك يا أمير المؤمنين ؟ قال : ذكرت زيادا واعتصامه بأرض فارس ومقامه بهـا وهو داهية العرب ومعه الأموال ، وقد تحصن بأرض فارس وقلاعها ، ويدبر الأمور ، فما يؤمننى أن يبايع لرجل من أهل هذا البيت ، فإذا هو قد أعادها جذعة ؟ قال المغيرة : أتأذن لى فى إتيانه ؟ قال : نعم ، فخرج إليه فلما دخل عليه وجده وهو قاعد فى بيت له مستقبل الشمس ، فقام إليه زياد ورحب به وسر بقدومه وكان له صديقاً ، فلما تفاوضا فى الحديث ، قال له المغيرة : أعلمت أن معاوية استخفه الوجل حتى إليك ، ولا نعلم أحدا يمد يده إلى هذا الأمر غير الحسن ، وقد بايع معاوية ، فخذ لنفسك قبل التوطين ، فيستغنى عنك معاوية ، قال : أشر على وارم الغرض الأقصى فإن المستشار مؤتمن . قال : أرى أن تصل حبلك بحبله وتسير إليه وتعير الناس

أذناً صماء وعيناً عمياء ، قال يا ابن شعبة : لقد قلت قولا لا يكون غرسه فى غير منبته ، لا أصل له يغذيه ، ولا ماء يسقيه ، كما قال زهير :

وهل ينبت الخطى إلا وشيجه   وتغرس إلا فى منابتها النخل

ثم قال : أرى ويقضى الله . وقدم زياد على معاوية ، ففرح بذلك وسر له وولاه البصرة وخراسان وسجستان ، ثم أضاف إليه الكوفة بعد موت المغيرة بن شعبة ، فصار والى البصريين ، وهو أول من جمعا له ؛ وكان يقيم بالبصرة ستة أشهر ، ويقيم مثلها بالكوفة ، وكان العراق فى فتن مظلمة ، فأقر فيه بسياسته الأمن والسلام والهــدوء ، ثم جمع معاوية له ولاية الهند والبحرين وعمان ، وطمع زياد فى ولاية الحجاز ، ولكن أجله قد حم فمات عام ٥٣ هـ ، ودفن بالثوية إلى جانب الكوفة .

وكان زياد يقول : لو ضاع حبل بينى وبين خراسان لعرفت آخذه ، وكان مكتوباً فى مجلسه أصول سياسته وهى : الشدة فى غير عنف ، واللين فى غير ضعف ، المحسن يجازى بإحسانه ، والمسيء يعاقب بإساءته .

بلاغته وخصائصها :

كان زياد بليغاً مفوها ، وخطيباً ساحرا ، وفصيحاً لايجاريه فى فصاحته أحد ، وحسبك فى وصف بلاغته ما رواه الجاحظ عن الشعبى قال : ماسمعت متكلماً على منبر قط فأحسن إلا أحببت أن يسكت خوفاً من أن يسيء إلا زيادا ، فإنه كلما أكثر كان أجود كلاما .

وقد نمى هذه البلاغة فى نفسه نشأته العربية فى ثقيف ، وذكاؤه ومواهبه وملكاته العربية ، وإحاطته علماً بلغات العرب وأساليبها ، وحياته فى عصر ازدهر فيه الأدب وفنونه ونبغ فيه أعلام الخطباء والأدباء والشعراء .

ويروى لزياد خطبته الطويلة المشهورة المسماة : بالبتراء ، التى لم يحمد الله تعالى فى أولها ، وقد قالها حين قدم البصرة والياً عليها من قبل معاوية ، وذلك

فى آخر ربيع الأول سنة ٤٥ هـ ، وتحتوى هذه الخطبة على روائع الكلم ، وبديع الحكم ، وبيان سياسته فى حكم العراق وما جاوره من بلاد فارس ، ولما انتهى منها ، قام إليه عبد الله بن الأهتم فقال : أشهد أيها الأمير لقد أوتيت الحكمة وفصل الخطاب ، فقال زياد : كذبت ، ذلك نبى الله داود ، فقال الأحنف : قد قلت فأحسنت أيها الأمير ، والثناء بعد البلاء ، والحمد بعد العطاء ، وإنا لن نثنى حتى نبتلى ، فقال زياد : صدقت ، وقام أبو بلال مرداس ابن أدية وهو من الخوارج : فقال : أنبأ الله بغير ما قلت ، قال الله تعالى : (وإبراهيم الذى وفى ، ألا تزر وازرة وزر أخرى ، وأن ليس للإنسان إلا ما سعى) ، فأوعدنا الله خيرا مما أوعدتنا يا زياد ، فقال زياد : إنا لن نصل إلى الحق فيك وفى أصحابك حتى نخوض فى الباطل خوضا . . وسنحلل هذه الخطبة تحليلا أدبيا .

خطبة مأثورة لزياد :

ومن خطابته ما روى أن زياد بلغه عن حجر بن عدى وجماعة من شيعة على بالكوفة أنهم يجتمعون ويسبون معاوية وعماله ، فجاء الكوفة وصعد المنبر وقال : أما بعد فإن غب البغى والغى وخيم ، إن هؤلاء تركوا فأشروا ، وأمنوا فاجترءوا على الله ، لئن لم تستقيموا لأداوينكم بدوائكم ، ولست بشىء إن لم أمنع الكوفة من حجر ، وأدعه نكالا لمن بعده ، ويل أمك يا حجر ، سقط العشاء بك على سرحان . . ثم قال لأهل الكوفة : تشجون بيد ، وتأسون بأخرى ، أبدانكم معى وقلوبكم مع حجر الأحمق ، هذا والله من رجسكم ، والله لتظهرن لى براءتكم أو لآتينكم بقوم أقيم بهم أودكم وصعركم ، فقالوا : معاذ الله أن يكون لنا رأى إلا طاعتك وما فيه رضاك ، قال : فليقم كل منكم فليدع من عند حجر من عشيرته وأهله ، ففعلوا وأقاموا أكثر أصحاب حجر عنه ، ثم بعث شرطته إلى حجر فجىء به ، فلما رآه زياد قال له : مرحبا أبا عبد الرحمن ، حرب أيام الحرب ، وحرب وقد سالم الناس ، على أهلها تجنى براقش[1] ، فقال حجر : ما خلعت طاعة ، ولا فارقت جماعة ،

(١) مثل عربى قديم ، وأصله أن كلبة نبحت فى حى من العرب فأرشدت

وإنى على بيعتى ، فأمر به إلى السجن ، وأحضر زياد جماعة شهدوا على حجر أنه جمع الجموع ، وأظهر شتم الخليفة ، ودعى إلى حرب أمير المؤمنين ، وأظهر أنه لا يصلح هذا الأمر إلا واحد من آل أبى طالب ، ووثب بالمصر وأخرج عامل أمير المؤمنين وأظهر مناقب أبى تراب ـ الإمام على ـ والترحم عليه ، والبراءة من عدوه وأهل حزبه ، وأن هؤلاء النفر الذين حبسوا معه هم رؤوس أصحابه ، على مثل رأيه ، وأرسل بحجر وأصحابه وبشهادة الناس على حجر إلى معاوية فى دمشق ، فلما قاربوا دمشق أمر معاوية بقتل ثمانية منهم وترك الباقى وهم ستة تبرأوا من على بن أبى طالب ، ولما بلغ عائشة خبر حجر أرسلت عبدالرحمن بن الحارث إلى معاوية فيه وفى أصحابه ، فقدم عليه وقد قتلهم ، فقال له عبد الرحمن : أين غاب عنك حلم أبى سفيان ؟ قال معاوية : حين غاب عنى مثلك من حلماء قومى وحملنى ابن سمية فاحتملت ، وقالت عائشة : لولا أنا لم نغير شيئاً إلا صارت بنا الأمور إلى ما هو أشد منه لغير نا قتل حجر ، وقالت هند بنت زيد الأنصارية ترثى حجراً وكانت تتشيع :

ترفع أيها القمر المنـــير	تبصر هل ترى حجرا يسير
يسير إلى معاوية بن حرب	ليقتله كما زعم الأمير
تجبرت الجبابر بعد حجر	وطاب لها الخورنق والسدير
فإن يهلك فكل زعيم قوم	من الدنيا إلى هلك يصير

دراسة لخطبة زياد البتراء[١] :

سيأتى ذكر هذه الخطبة فيما يلى ، والقارئ لها يراها بمثابة إعلان حكم عرفى فى العراق . . فأخذ الولى بالمولى ، والمقيم بالظاعن ، والمقبل بالمدبر ، والمطيع بالعاصى ، والصحيح فى جسمه السقيم ، أمر ليس جاريا

= أعداهم إلى مكانهم ، فباغتوهم ، وأعملوا فيهم السلاح .

(١) سميت كذلك لأنه لم يحمدالله فى بدئها . والبتراء : المقطوعة المشوهة .

على القانون الشرعى الذى يقصر المسئولية على المجرم ، وإنما ذلك شىء يلجأ إليه الطغاة ، وخاصة عند اضطراب الأمن ، لإرهاب الناس وتهديدهم ، وقد سن زياد فى خطبته عقوبات لم يسنها الإسلام ، فمن ذلك ماسنه للجرائم المحدثة كما قال : « من نقب عن بيت نقبنا عن قلبه ، ومن نبش قبراً دفناه فيه حياً » . ومن ذلك عقوبته للمدلج — أى السائر بالليل — ، وقوله من أحرق قوما أحرقناه . . كل ذلك من مظاهر الحكم العرفى الذى أعلنه زياد فى البصرة ، حتى صار يعاقب على الظنة ، ويأخذ بالشبهة ، ويقسو فى معاملة الخوارج والشيعة والناقمين عليه وعلى بنى أمية ، قسوته على المجرمين ، وقد خافه الناس خوفا شديداً ، فاستتب الأمن ، وهدأت أحوال العراق الثائرة ، وسكنت الفتن والثورات ، ودخل الناس فى طاعة بنى أمية رغباً ورهباً .

ومن ذلك ندرك بعض الخصائص الأدبية لخطبة زياد هذه ، التى تمثل نفسيته وروحه وشخصيته أتم تمثيل .

فهى مثلا قوية الأسلوب ، جزلة الألفاظ ، يعتمد زياد فيها على التأثير الخطابى ، وعلى السجع أحيانا ، وعلى قصر الفقرات ، وعلى أسلوب التهديد والوعيد الذى ملئت به الخطبة .

وفيها كذلك روح التأثر الأدبى ببلاغة القرآن الكريم واضحة ، ووحدة الخطبة ظاهرة ، فهى فى موضوع سياسى واحد متصل معروف ، وهى وثيقة أعلن بها زياد الحكم العرفى فى العراق ، ثم هى من أولها إلى آخرها تنصب على الغرض الذى قيلت من أجله ، فلا حشو ولا إغراب ولا حوشية ولا ابتذال وإنما هى البلاغة الطيعة ، والفصاحة السلسة ، التى تجرى كما يجرى الماء فى النهر : ليناً فى شدة ، وهدوءاً فى ثورة ، واطراداً فى تتابع ، دون التواء أو انقطاع أو استطراد أو عى أو ضعف . . وألفاظ الخطبة ذات تأثير صوتى قوى . وعلى الجملة فالخطبة صورة لسياسة زياد وسياسة الدولة حيال خصومها والعابثين بالأمن فيها ، فى أول عهد معاوية ، وبدء حكم الأمويين .

وعلى الجملة فقد كان زياد كما قيل فيه بحق وكما تمثله خطبته : من ذوى الأحلام الوافرة ، والأذهان الحاضرة ، واللسان المتدفق . كما كان من أقوى العمد التى قام عليها عرش بنى أمية . وكان على ثم معاوية يجدان فيه اليد المصرفة ، والرأى الجميع ، واللسان الذرب ، وأى أريب أديب داهية كان فى جلدته ، وقد اطمأن له الخليفتان : على ، ثم معاوية ، لأنه راض لهما الأمور ، وسدت به الثغور ، ولأنه أحكم لهما السياسة ، وقاد الناس بالحزم والشدة حينا ، وحينا آخر بالرفق والكياسة ، وقاتله الله من ملك فى ثياب عربى ، وحاكم فى زى بدوى .

ولولا استبداده ، وأنه سن للحجاج وللطغاة من بعده سياسة البطش والطغيان لكان من أعظم الشخصيات الإسلامية فى عصر بنى أمية .

نص خطبة زياد البتراء :

أما بعد ، فإن الجهالة الجهلاء(١) والضلالة العمياء(٢) ، والغى الموفى بأهله على النار . مافيه سفهاؤكم ويشتمل عليه حلماؤكم(٣) ، من الأمور العظام ، ينبت فيها الصغير ، ولا يتحاشى عنها الكبير ، كأنكم لم تقرءوا كتاب الله ولم تسمعوا ما أعد الله من الثواب الكريم لأهل طاعته ، والعذاب العظيم لأهل معصيته ، فى الزمن السرمدى(٤) الذى لا يزول ، أتكونون كمن طرفت عينيه الدنيا ، وسدت مسامعه الشهوات(٥) ، واختار الفانية على الباقية ولا تذكرون أنكم أحدثتم فى الإسلام الحدث الذى لم تسبقوا إليه ، من ترككم الضعيف يقهر ويؤخذ ماله ، ماهذه المواخير المنصوبة(٦) ، والضعيفة المسلوبة فى النهار المبصر ،

---

(١) جهالة جهلاء : شديدة مثل ليلاء .

(٢) الضلالة العمياء : التى لا هدى معها .

(٣) السفيه : سيء الخلق وضده الحليم .

(٤) السرمدى : الدائم .

(٥) كناية عن تمكن الشهوات من نفوسهم وانصرافهم الى متاع الدنيا .

(٦) المواخير : جمع ماخور . بيت الريبة والفحش .

والعدد غير قليل ؟ ألم يكن منكم نهاة تمنع الغواة عن دلج الليل(١) وغارة النهار ، قربتم القرابة ، وباعدتم الدين ، تعتذرون بغير العذر ، وتغضون على المختلس ، كل امرىء منكم يذب عن سفيهه ، صنيع من لا يخاف عاقبة ، ولا يرجو معاداً ، ما أنتم الحلماء ، ولقد اتبعتم السفهاء فلم يزل بكم ماترون من قيامكم دونهم(٢) . حتى انتهكوا حرم الإسلام ، ثم أطرقوا وراءكم كنوساً فى مكانس(٣) الريب . حرام على الطعام والشراب حتى أسويها بالأرض هدماً وإحراقاً . إنى رأيت آخر هذا الأمر لا يصلح إلا بما صلح به أوله : لين فى غير ضعف وشدة فى غير عنف . وإنى أقسم بالله لآخذن الولى بالمولى(٤) والمقيم بالظاعن ، والمقبل بالمدبر والمطيع بالعاصى ، والصحيح بالسقيم ؛ حتى يلقى الرجل منكم أخاه فيقول : انج سعد فقد هلك سعيد(٥) أو تستقيم قناتكم(٦) ! إن كذبة الأمير بلقاء مشهورة ؛ فإذا تعلقتم على بكذبة فقد حلت لكم معصيتى ، فإذا سمعتموها منى فاغتمزوها(٧) فى ، واعلموا أن عندى أمثالها . من نقب منكم عليه فأنا ضامن لما ذهب من ماله فإياى ودلج الليل ؛ فإنى لا أوتى بمدلج إلا سفكت دمه ، وقد أجلتكم فى ذلك بمقدار ما يأتى الخبر الكوفة ويرجع إليكم . وإياى ودعوى الجاهلية(٨) ، فإنى لا أجد أحداً دعا بها إلا قطعت لسانه

---

(١) دلج الليل : السير فيه . والمراد التلصص والفتك .

(٢) قيامكم دونهم : دفاعكم عنهم .

(٣) الكنوس : جمع كانس ، وهو الظبى يدخل فى كناسه أى مأواه . والمراد أنهم عكفوا على المعاصى .

(٤) الولى : السيد ، والمولى : العبد ، المراد أنه يأخذ السيد بذنب عبده . وكذا الباقى . (٥) مثل يضرب لتتابع الشر وأصله أن أخوين خرجا فى طلب إبل لهما فرجع سعد ولم يرجع سعيد

(٦) المراد حتى تستقيموا . وشبههم بالقناة وهى عود الرمح .

(٧) اغتمزوها فى : عدوها من عيوبى .

(٨) دعوى الجاهلية : كناية عن التناصر بتأثير العصبية سفها وجهالة ، وأصلها يالفلان استغاثة .

وقد أحدثتم أحداثاً لم تكن ، وقد أحدثنا لكل ذنب عقوبة ، فمن غرق قوما أغرقناه ! ومن أحرق قوما أحرقناه . ومن نقب بيتاً نقبناه عن قلبه ، ومن نبش قبراً دفناه فيه حيا . فكفوا عنى أيديكم وألسنتكم أكفف عنكم يدى ولسانى . ولا تظهر من أحدكم ريبة بخلاف ما عليه عامتكم إلا ضربت عنقه . وقد كانت بينى وبين أقوام إحن[1] فجعلت ذلك دبر[2] أذنى وتحت قدمى . فمن كان منكم محسناً فليزدد إحساناً ، ومن كان منكم مسيئاً فلينزع عن إساءته . إنى لو علمت أن أحدكم قد قتله السل من بغضى لم أكشف له قناعا ، ولم أهتك له ستراً حتى يبدى لى صفحته[3] ، فإذا فعل ذلك لم أناظره . فاستأنفوا أموركم ، وأعينوا على أنفسكم ، فرب مبتئس بقدومنا سيسر ، ومسرور بقدومنا سيبتئس . أيها الناس ! إنا أصبحنا لكم ساسة ، وعنكم ذادة[4] ، نسوسكم بسلطان الله الذى أعطانا ، ونذود عنكم بفىء[5] الله الذى خولنا ؛ فلنا عليكم السمع والطاعة فيما أحببنا ، ولكم علينا العدل فيما ولينا ؛ فاستوجبوا عدلنا وفيأنا بمناصحتكم لنا . واعلموا أنى مهما قصرت عنه فلن أقصر عن ثلاث : لست محتجباً عن طالب حاجة منكم ؛ ولو أتانى طارقا بليل ، ولا حابساً عطاء ولا رزقا عن إبانه[6] ، ولا مجمراً لكم[7] بعثاً . فادعوا الله بالصلاح لأئمتكم ؛ فإنهم ساستكم المؤدبون لكم وكهفكم الذى إليه تأوون .

---

(١) الإحن : جمع إحنة : الحقد .

(٢) أى خلفها : والمراد أنى طرحت ذلك .

(٣) صفحة الرجل : عرض وجهه . والمراد حتى يجهر بالعداوة .

(٤) ذادة : حماة ، جمع ذائد أى مدافع .

(٥) الفىء : مال الخراج أو الغنيمة ويطلق على الظل كناية عن الحمى .

إبان الشىء : أوانه .

(٧) تجمير الجند أو البعث حبسهم فى أرض العدو .

ابن المعتز الخليفة العباسى الشاعر

٢٤٧ — ٢٩٦ هـ

حياته :

ولد أبو العباس عبد الله بن المعتز فى شعبان سنة ٢٤٧ ، أو ٢٤٩ كما يقول ابن خلكان ، فى بيت الخلافة ، وولى والده المعتز بن المتوكل بن المعتصم بن الرشيد العرش عام ٢٥٢ هـ ، ومكث فيه ثلاث سنين قتل بعدها بيد الأتراك الذين كان بيدهم جميع أمور الدولة إبان هذه الفترة الحافلة ، وكان لنكبة والده أثر عميق فى حياته ونفسيته .

تلقى ثقافته فى الدين واللغة والأدب على شيوخ العربية وأئمتها ، الذين حفل بهم هذا العصر الزاخر بألوان العلوم والثقافات والآداب ، وكان من أساتذته المبرد المتوفى سنة ٢٨٥ هـ وثعلب المتوفى سنة ٢٩١ هـ وسواهما من فحول العلماء .

وظهرت شاعريته فى أول عهده بالشباب ، فامتلأت بها حياته ، كما انصرف عن مؤامرات السياسة إلى حياة العلم والأدب ، فكان البليغ الساحر والشاعر المجيد ، والناقد الواقف على خصائص الأدب والبيان ، وله مؤلفات كثيرة جيدة ، منها : كتاب البديع ، وفصول التماثيل ، وطبقات الشعراء ، وديوانه مطبوع فى جزأين فى مصر والشام .

عاصر ابن المعتز بعد وفاة والده أربعة من الخلفاء العباسيين ، هم : المهتدى (٢٥٥ — ٢٥٦) ، والمعتمد (٢٥٦ — ٢٧٩) ، والمعتضد (٢٧٩ — ٢٨٩) ، والمكتفى (٢٨٩ — ٢٩٥) ، وعاش بينهم معتزاً بشخصيته ، نبيل النفس ، عظيم الخلق ، يظهر انصرافه عن الخلافة ، وهو فى نفسه ناقم على الحياة التى ملكت سواه مقاليدها ، وقبض عليه عدة مرات أطلق بعدها سراحه ، ووضع موضع المراقبة ، وكان يقول فى شعره :

من يشترى حسبي بأمن خمول   من يشترى أدبى بحظ جهول ؟

ولما مات ابن عمه الخليفة العباسى المكتفى بالله عام ٢٩٥ هـ ، ولى الأتراك ابنه المقتدر العرش بعده ، وكان طفلا ، فثار الناس فى بغداد ، وانتهت هذه الثورة المسالمة بخلع المقتدر ، وتولية ابن المعتز الخلافة عام ٢٩٦ هـ ومكث فيها ليلة واحدة ، حيث قاوم حزب المقتدر هذه الثورة تؤيده القوة الحربية فى الدولة ، وقبض على ابن المعتز ، ووزيره محمد بن داود بن الجراح ، وقتلا عام ٢٩٦ هـ ، وبذلك انتهت حياة شاعر كبير ، من شعراء العربية المعدودين .

بيئتـــه :

عاش ابن المعتز فى بغداد وسر من رأى ، فى البيئة العامة التى امتاز بها القرن الثالث ، والتى حفلت بألوان الحضارة ، وشتى فنون العلوم والثقافات والآداب ، كما عاش فى بيئته الخاصة الحافلة بألوان الترف والنعيم والمجد ، فى قصور الخلفاء والأمراء ، وكان لذلك كله أثره الواضح فى شخصيته وشاعريته .

شاعريته وخصائصها :

١ ــ أرهفت نفسية ابن المعتز وحياته وبيئته وثقافته ، مشاعره ، ووجدانه وإحساسه ، فنشأ شاعراً بطبعه ، ماهم الشاعرية ، قوى الملكات .

ونظم الشعر يرضى به عواطفه ، ويصور فيه مشاعره ، وما يختلج فى صدره من آمال وآلام ، وما تزخر به حياته من مظاهر الترف والحضارة . فشعره صورة لحياته الخاصة أولا ، ولحياة الطبقة المترفة ثانياً ، وللاتجاهات العليا فى السياسة والاجتماع والآداب أخيراً ، وهو فوق ذلك صورة صادقة للفن الخالص ، الذى يؤمن بالفن للفن ، لا لأغراض الحياة وحاجاتها ، لأنه كان يحيا حياة فنية خالصة ، فلم يكن ينظم الشعر لمجد أو لمال أو لرضاء

خليفة ، إنما كان ينظمه لنفسه ، ليرضى به نفسه ووجدانه وذوقه .

٢ — وقد أجاد فى الشعر السياسى ، كما أجاد فى الفخر ، والإخوانيات ، والغزل . وخمرياته فيها دقة معان ، ورقة تصوير ، وكثر تشبيهات ، وفنه فيها يقف بجانب فن أبى نواس فى خمرياته .

وكذلك كان فى الصيد والطرد مجيداً مبدعا ، يقتفى فيه آثار امرىء القيس ، وأبى نواس . . . . والعتاب والشكوى من الفنون الشعرية التى تفوق فيها .

وكذلك بلغ ابن المعتز فى الوصف حد الجودة . الإبداع ، ورسم صورا صادقة لكل ما وقعت عليه عينه ، من مناظر الطبيعة ومظاهر الحضارة ، ووصفه وصف وجدانى ، له موسيقى عذبة ، وفيه رقة وسلاسة ، ومرح وطبع ودقة وعمق ، وابتداع فى الأسلوب وتجديد فى التشبيه والاستعارة ، وقد نمى ملكته فى نفسه دقة حسه ، ولطف شعره ، وامتلاء ذهنه بمشاهد الجمال ، وروائع الخيال ، وورنق الحضارة ، وأنه كان يقول الشعر إرضاء لنفسه ، وتصويراً لحسه ، مما صرفه إلى وصف الطبيعة ، ومجالس الأنس ، ومطارد الصيد .

أما المدح والهجاء والرثاء والزهد ، فكان نصيب ابن المعتز منها قليلا ، ترك الزهد لأبى العتاهية ، والرثاء لأبى تمام ، والهجاء لابن الرومى . والمدح للبحترى ، وعاش هو شاعر الترف والفن والجمال . وهو مشهور بجودة قطعه الشعرية كما يقول ابن رشيق[1] .

٣ — ومعانى ابن المعتز تتصل بنفسه وحسه وحياته ، وهو فيها دقيق الفكرة بعيد المنزع ، محكم التصوير ، مجدد مبتكر حينا ، ومقلد أحيانا أخرى .

---

(١) ١٦٣ جـ ١ العمدة .

٤ — وخياله الشعرى خيال واقعى . يستمد من صور الوجود وحقائقه وألوان الحياة الحسية ومظاهرها ، ما ينطق به من خيال ووصف وتصوير وخياله النشط يعنى بمحسات الأمور ؛ ومرئياتها المشاهدة دون أن يكلف نفسه الجرى وراء عالم المثل والمعنويات .

ويمتاز أسلوبه : بكثرة التشبيه وروعته ، وجودة التصوير ودقته ، وبالرونق والعذوبة . فى جزالة تشيع فى أعطافه حينا ، وسهولة ورقة يفيض بها شعره أحيانا ، مع جمال فى ترف البيان وألوان البديع ، مما حذا فيه حذو بشار ومسلم وأبى تمام . وتشيع فى أسلوبه الصياغة الفنية ، الممتلئة روحا وحياة وموسيقى ووضوحا ، فى قرب مأخذ ، وجودة قريحة ، وحدة خيال كما يقول :

والصبا ممتلىء حاجة وأمـــلا

منزلته الشعرية :

ابن المعتز أديب ساحر ، وشاعر ملهم ، وشخصية بارزة بين الشخصيات التى نبغت فى القرن الثالث الهجرى ، وهو أمير التشبيه فى الشـــعر العربى القديم والحديث .

يعد فى الطبقة الثالثة من المحدثين ، وهى الطبقة التى خلفت طبقة طبقة أبى نواس ، وطبقة بشار زعيم المحدثين .

ويعدون معه فى طبقته أبا تمام والبحترى ، وبعض النقاد يجعل ابن الرومى وابن المعتز طبقة رابعة من طبقات المحدثين ، ويجعل أبا تمام والبحترى حاملى راية الطبقة الثالثة فى المحدثين .

ويقول ابن رشيق : طبقة حبيب والبحترى وابن المعتز وابن الرومى طبقة متداركة ، وتلاحقوا ، وغطوا على من سواهم من الشعراء[1] » .

---

(١) ٨٣ جـ ١ العمدة .

ويقول : « وليس فى المولدين أشهر اسما من أبى نواس ثم حبيب والبحترى ثم تبعهما فى الاشتهار ابن الرومى وابن المعتز ، فطار اسم ابن المعتز حتى صار كأبى نواس فى المحدثين ، وامرىء القيس فى القدماء[1] » .

المدرسة الأدبية التى يمثلها ابن المعتز :

المدرسة الأدبية التى يمثلها ابن المعتز ، هى مدرسة المحدثين ، التى قاد زمامها أبو تمام والبحترى ، والتى امتازت بميزتين :

الأولى : هى التعمق فى المعانى واستنباطها ، مما يتجلى لك فى شعر أبى تمام وابن الرومى واضحاً ملموساً .

والثانية : هى الصناعة الشعرية المتأنقة ، التى تطلب ألوان الجمال فى الأداء ، وتعتمد على الترف البيانى فى الأسلوب ، من : جناس وطباق ، وتشبيه واستعارة وتمثيل ، وكانت العرب — كما يقول ابن رشيق — « لا تنظر فى أعطاف شعرها ، بأن تجنس أو تطابق أو تقابل ، أو تترك لفظة للفظة ، أو معنى لمعنى ، كما فعل المحدثون ، ولكن كان نظرها فى فصاحة الكلام وجزالته ، وبسط المعنى وإبرازه ، وإتقان بنية الشعر ، وما وقع فيه من هذا النوع فعن غير قصد ولا تعمل ، مما عرفوا وجه اختياره على غيره حتى صنع زهير الحوليات على وجه التثقيف والتنقيح ، وأول من فتق البديع للمحدثين بشار وابن هرمة ، ثم قلدهما فيه مسلم ، والعتابى ، والنمرى ، وأبو نواس ؛ واتبع هؤلاء أبو تمام والبحترى وابن المعتز . فانتهى علم البديع والصنعة إليه ، وختم به[2]

فابن المعتز إذاً هو الشاعر الذى انتهت إليه الصناعة الشعرية المتعمدة

---

(١) ٨٢ ج ١ العمدة .

(٢) ١٠٨ – ١١٠ ج ١ العمدة .

المتكلفة . فقد كان يحب الفن للفن ، وينظم الشعر ليلهو به ، وكان فى العباسيين كالوليد فى الأمويين ، وكان متكلفا مجيداً فى تكلفه ، بقدر ما كان الوليد مطبوعا مجيداً فى طبعه ، ويصف ابن رشيق صنعته فيقول : « وما أعلم شاعر أكمل ولا أعجب تصنيعا من ابن المعتز ، فإن صنعته خفية لطيفة ، لا تكاد تظهر فى بعض المواضع ، إلا للبصير بدقائق الشعر ، وهو عندى ألطف أصحابه شعراً ، وأكثرهم بديعاً وافتنانا ، وأقربهم أوزانا وقوافى ، ولا أدرى وراءه غاية لطالبها فى هذا الباب[1] .

ويقول الجرجانى فيه : وطريقة ابن المعتز طريقة أبى تمام ، ولم يكن من المطبوعين[2] ، وكان الجرجانى يؤثر المطبوع وما قاربه من المصنوع .

ويقول أبو الفرج فى وصف شعره وخصائصه : هو وإن كان فيه رقة الملوكية ، وغزل الظرفاء ، وهلهلة المحدثين ، فإن فيه أشياء كثيرة تجرى فى أساليب المجيدين ، ولا تقصر عن مدى السابقين ، وليس يمكن واصفا لصبوح فى مجالس اللهو بين ندامى وقيان وعلى ميادين من النور والبنفسج والرياحين إلى غير ، إلى غير ذلك أن يعدل بذلك عما يشبهه من الكلام البسيط الرقيق الذى يفهمه كل من حضر ، إلى جيد الكلام ووحشيه ، وإلى وصف البيد والمهامة ، والظبى والظليم ، والناقة والجمل ، والديار والقفار » . والأصفهانى يشير بذلك إلى أن أسلوب ابن المعتز فيه جيد كثير وإلى أن رقة أسلوبه غالباً ترجع إلى حياة الملك التى تستلزم الترف وإلى وصفه لألوان اللهو التى تستدعى رقة الأسلوب ، وإلى بعد نفسية الشاعر غالبا عن أغراض الشعر البدوى ، فرقة شعره ودقة تشبيهاته أثر من آثار البيئة فيه .

ويقول ابن شرف القيروانى فى رسالة الانتقاد : ابن المعتز ملك النظام

---

(١) ١٠٩ ج ١ العمدة .
(٢) ١٦٢ أسرار البلاغة .

له التشبيهات المثلية والاستعارات الشكليـــة ، والإشارات السحرية ، والافتخارات العلوية ، والغزل الرائق ، والعتاب الشائق ، ووصف الحسن الفائق .

فن ابن المعتز فى التشبيه :

طارت شهرة ابن المعتز الأدبية والفنية فى باب التشبيه ، وأتى فى ذلك بما سحر الناس وخلد فى صفحات الشعر والأدب . وسار المثل فى القديم والحديث بتشبيهات ابن المعتز لأنها أظهر سمة وأبلغ تعبير عن شاعريته وتصوير لفنه ، وفى الحق أننا لانجد التشبيه ملكة من الملكات الفنية عند شاعر من الشعراء كما نجده عند ابن المعتز ، ولانجد هذه الكثرة مع تلك الجودة عند أحد سواه . وكان ابن المعتز يقول : إذا قلت كأن ولم آت بعدها بالتشبيه ففض الله فمى[١] .

وجميع النقاد يعترفون لابن المعتز بمكانته الأدبية الكبيرة فى باب التشبيه يقول الباقلانى : وأنت تجد فى شعر ابن المعتز من التشبيه البديع الذى يشبه السحر وقد تتبع من هذا مالم يتتبع غيره ، واتفق له مالم يتفق لغيره من الشعراء[٢] ، ويقول الثعالبى : تشبيهات ابن المعتز يضرب بها المثل فى الحسن والجودة ، ويقال إذا رأيت كاف التشبيه فى شعره فقد جاءك الحسن والاحسان ، ولما كان غذى النعمة وربيب الخلافة ومنقطع القرين فى البراعة تهيأ له من حسن التشبيه مالم يتهيأ لغيره ممن لم يروا ما رآه ، ولم يستحدثوا ما استحدثه من نفائس الأشياء وطرائف الآلات[٣] .

---

(١) ١٤٩ ج ١ معاهد التنصيص . ٦٩٣ ج ١ دائرة المعارف للبستانى ، ومقـــدمة ديوان ابن المعتز المطبوع ببيروت وينسبها الرافعى لذى الرمة (٢٥ ج ٣ آداب العرب للرافعى) ، وهو غير صحيح .

(٢) ٢٠٧ إعجاز القرآن للباقلانى .

(٣) ١٨٢ ثمار القلوب فى المضاف والمنسوب

ويقول المطوعى : جل كلام ابن المعتز فى التشبيه عن أن يمثل بنظير تشبيه(١) : ويقول العباسى : هو أشعر الناس فى الأوصاف والتشبيهات(٢) ويقول ابن رشيق : قالت طائفة الشعراء ثلاثة : جاهلى ، إسلامى ، ومولد فالجاهلى امرؤ القيس ، والاسلامى ذو الرمة ، والمولد ابن المعتز ، قال ابن رشيق وهذا قول من يفضل البديع وبخاصة التشبيه على جميع فنون الشعر(٣) ، ويقول : لا بد لكل شاعر من طريقة تغلب عليه فينقاد إليها طبعه ، ويسهل عليه ولها كابن المعتز فى التشبيه(٤) ، ويقول الحصرى : وليس بعد ذى الرمة أكثر افتنانا وأكبر تصرفا فى التشبيه من ابن المعتز (٥) ، ويقول الدميرى : وهو صاحب التشبيهات التى أبدع فيها ولم يتقدمه من شق غباره (٦) . ويشيد بتشبيهاته كثير من الباحثين (٧) . وقد وضع عبد القاهر هذه التشبيهات موضع الدراسة والنقد وأشاد بها فى الأسرار . وتوضع تشبيهات ابن المعتز مع روائع الشعر العربى ، قال الخوارزمى : من روى حوليات زهير واعتذاريات النابغة وخمريات أبو نواس وزهديات أبى العتاهية ومراثى أبى تمام ومدائح البحترى وتشبيهات ابن المعتز ثم لم يخرج إلى الشعر فالموت أولى به . . ويقول بعض المحدثين : فتن الناس ابن المعتز بتشبيهاته كما أسكرهم أبو نواس بخمرياته(٨) .

---

(١) ١٧٤ ج ١ زهر الآداب .

(٢) ١٤٦ ج١ معاهد التنصيص .

(٣) ٨٢ ج ١ العمدة .

(٤) ٢٥٥ ج ١ العمدة .

(٥) ٢١٩ ج ١ زهر .

(٦) ٨٣ ج ١ دميرى .

(٧) ٢٢٢ ج ٢ شذرات ، ٢٧٠ الوسيط ، ٣٠٤ العصر العباسى السباعى بيومى ، ٢٤٩ رسائل البلغاء .

(٨) ويشيد بها كثير من علماء الأدب والبيان .

وقد قلده الشعراء فى فن التشبيه وساروا على نهجه فيه . فكان تميم بن المعز يحتذى حذو ابن المعتز فى التشبيهات ويقف بجانبه ويفرغ فيها على قالبه (١) . وكان العقيلى أبو الحسن على بن الحسين من أئمة المدرسة التى تعنى بالتشبيه وتجيده وهو من شعراء القرن الخامس وسلك مسلك أبى نواس وابن المعتز فى الخمر وتوليد المعانى (٢) . وكذلك احتذاه فى تشبيهاته : ابن وكيع الشاعر م ٣٩٣ (٣) هـ وأبو نواس والوأواء (٤) ، وابن خفاجة ، وسواهم .

ترجع بواعث هذه الملكة المصورة فى نفس ابن المعتز وأسباب تلك القدرة البارعة على تقدير الأشياء ، وعلى تشبيه بعضها ببعض إلى ذهنه الخصب ، وعقليته الناضجة ، وثقافته الواسعة ، وإلى إحساسه الدقيق ومشاعره المرهفة ، وهيامه الفنى بتذوق الجمال وتصوره وتصويره ، وإلى مظاهر الحضارة وترف الحياة التى عاش فيها ، وإلى مذهب الصنعة الشعرية الذى آثره ، ليدل بترف الأسلوب على ترف الخيال والفكر والحياة .

ويمكننا أن نصور التشبيه فى فن ابن المعتز ، تصويرا واضحا ، على نمط من التفصيل ، فنقول : إنه يمتاز بميزات كثيرة ، أهمها ما يأتى :

أولا : كثرة التشبيهات فى شعره كثرة هائلة ، حتى لا تخلو قصيدة من قصائده ، ولا قطعة من مقطوعاته ، من عدة تشبيهات نادرة ساحرة ، وكانت هذه الملكة القوية ظاهرة ملموسة فى فن ابن المعتز فى سائر شعره ، وشتى أغراضه ، وإن كثر ظهورها فى أوصافه وخمرياته وغزله وطرده ، وهو فى هذا يبذ جميع الشعراء ، الذين لم يكثر التشبيه فى شعرهم هذه الكثرة ، فقد

---

(١) ١٨٣ جـ ١ زهر .   (٢) ٢١٤ جـ ١ ظهر الاسلام .
(٣) راجع ١٥٢ المثل السائر .
(٤) شاعر مطبوع منسجم الألفاظ عذاب العبارة حسن الاستعارة جيد التشبيه (١٤٦ جـ ٢ فوات الوفيات) .

« عكف ابن المعتز على التشبيه وأفرغ فيه جهده ، وراح يوشى به شعره ، ويطرز به قصائده ، ويظهر فيه براعة معدومة النظير » .

ثانيا : تشبيهات ابن المعتز تشبيهات حسية يعنى فيها بتصوير المحسات ، باخراجها فى مظاهر حسية يستمدها من بيئته ، هو يصور مظاهر الطبيعة وشتى ألوان الحضارة المادية ، فى صورها سحرها وجمالها الفنى الرائع . وقلما يعنى بتصوير الوجدانيات والعقليات . لأن خياله لم يؤثر أن يتجاوز نطاق الحياة المادى ومجالها الحسى إلى دائرة التخيل والتصوير للحقائق المجردة البعيدة عن مظاهر الإحساس فى الحياة ، وفاضت صنعته ـ كما يقول بعض المحدثين (١) ـ بأصباغ الزخرف الحسى ، الذى لم يغص فى بحار الفلسفة . وهى مع ذلك تفيض رقة ، وتسيل عذوبة ، وتمثل الحضارة المترفة فى أروع صورها وأجلها . بما يفيض بالخيال الرائع ، ويبرز مكامن هذه الحياة المترفة التى نشأ فيها وخالطها ابن المعتز ، بما فيها من مداهن التبر ، وأوانى الفضة وصحاف الذهب المحلاة بأنواع الجواهر الكريمة ، واللآلى النادرة حتى ليخيل إلى القارىء أن هذا الصبغ ـ مع عذوبته وعدم بلوغه حد التكلف ـ قد استحال على يد ابن المعتز ، إلى صبغ آخر جديد وذلك هو سر تفرده فى هذا اللون » . ثم هذه التشبيهات الحسية يدور أكثرها على الأشياء المدركة بحاسة البصر ، أكثر من سواها من المحسات ؛ ولابن المعتز فن مستقل فى تصوير الألوان خاصة من بين سائر المبصرات ، يبلغ فيه غاية الجودة والإحسان ، وسيأتى كثير من مثل ذلك فى شعره وتشبيهاته . وكان ابن المعتز إذا اضطر إلى تشبيهات عقلية ، استمد صورها من المظاهر الحسية فى غالب الأحايين ، فيقول :

ردت إلى التقى نفسى فقرت كما رد الحسام إلى القراب

أو يقول :

اصبر على مضض الحسود فان صبرك قاتله

---

(١) ٨٧ و ٨٠ الصبغ البديعى فى اللغة العربية ـ مخطوطة .

فالنـار تأكل بعضهـا   إن لم تجـد ما تأكله

أو يقول :

لا تجمعوا بالله ويحـكمو   غلظ الوعيد ، ورقة الوعد

ثالثا : وابن المعتز فى تشبيهه مصور بارع ، ينقل لك بريشته على صفحة شعره البديع صورة مطابقة كل المطابقة لما يصوره من أشياء ، هو فنى فى تصويره ، وغنى بخياله المصور ، وذهنه الخصب ، الذى يقدر الأشياء ، ويقدر الصور بمقدارها ، ثم يخرجها تشبيها شعريا يمثل أصله فى كل خصائصه التى أرادها الشاعر . وصوره من أجلها ، ثم هو لم يحب أن يمثل عواطفه فى تشبيهاته ، لئلا تخرج عن حقائق الأمور التى تمثلها أمام العقل ، وفى رؤية البصر ، ثم هو يظهر لك أصباغ صوره كلها دون أن يمزجها بعضها ببعض ، أو يلونها بلون خاص .

رابعا : وظاهرة أخرى فى تشبيهات ابن المعتز هى دقة التصوير التى امتاز بها وبلغ فيها منتهى الإجادة وتقدم بها على كثير من الشعراء الوصافين . كان يوضح الشبه بين الشيئين توضيحا بالغا مهما اختلفا فى الجنس وتباعدا فى الجنس وتباعدا فى الخيال ، وكثيرا ما كان يجمع أعناق المتنافرات فى ربقة ، ويعقد بين المتباينات معاقد النسب والألفة ، مما يدل على دقة الفكر ولطف النظر ونفاذ الخاطر ، ومما يعطيه الناقد فى كثير منه منزلة الحاذق الصانع ، والمصور الملهم الذى سبق إلى اختراع نوع من الصنعة حتى صار إماما فيه ، وأمسى من بعده عيالا عليه ، وتبعا له .

فالبنفسج زهر غض يرف ، تبصر فيه زرقة أوراقه وحمرة ساقه ، يشبهه ابن المعـتز لا بزهر مثله ولا بنبات آخر شبيه به ، ولـكن يشبهه بلهب نار لا يستطيع سوى الحاذق أن يتخذ منه له مثالا ، ثم لم يكتف بذلك ، بل دق فى التصوير ، ونظر نظرة خاصية غريبة ، فشبهه بزرقة النار ، أول ما تشتعل فى الكبريت ، فبلغ غاية التصوير ، وملك زمام الإجادة ، حين يقول :

ولازوردية تزهـو بزرقتها ... بين الرياض على حمر اليواقيت
كأنها فوق قامات ضعفن بها ... أوائل النار فى أطراف كبريت

والصبح حين يظهر فى حواشى الظلمة ويدفع الليل دفعا يشبهه ابن المعتز بأشخاص الغربان . ولكنه يجعل الغربان بيض قوادم الريش ، ثم يجعل الغربان ذاهبة فى الفضاء ، طائرة فى جو السماء . يدفعها الخوف لا الرجاء ، فيبدع فى ذلك كله غاية الابداع حين يقول :

كأنا وضوء الصبح يستعجل الدجى ... نطير غرابا ذا قوادم جون[1]

فيجيد الشبه والتصوير . وتمام التدقيق والسحر فى هذا التشبيه ، فى أن جعل ضوء الصبح ، لقوة ظهوره ، ودفعه لظلام الليل ، كأنه يحفز الدجى ويستعجلها ، ولا يرضى منها بأن تتمهل فى حركتها . ثم صور ذلك كله فى قوله : « نطير غرابا » دون أن يقول غراب أو غراب يطير ، وذلك لأن الغراب وكل طائر إذا كان هادئا واقفا فى مكانه فأزعج وأخيف وأطير منه كان ذلك أسرع لطيرانه ، ومسيره إلى حيث لا تراه العيون ، وليس كذلك إذا طار عن اختيار ، لأنه يجوز أن يصير إلى مكان قريب من مكانه الأول .

والشمس فى تموج شعاعها وفى إشراقها واستدارتها يشبهها ابن المعتز بتموج نور المرآة ، ولا يقنع بذلك بل يجعل المرآة فى كف الأشل فيقول : « والشمس كالمرآة فى كف الأشل » . ويصور أشعة الشمس فى تلألؤها وإشراقها ووقوع أشعتها على الأرض بالذهب المصبوب على الأرض فيقول فى إجادة :

وشارق يضحك من غير عجب ... كأنه صب على الأرض ذهب

خامساً : وابن المعتز يسبغ على صوره فى التشبيه ظل حياته المترفة

---

(١) الجون : الأبيض والأسود من الاضداد ، والمراد به هنا الأسود

المفعمة بألوان النعيم . فيشبه الآذريونة بكؤوس الذهب التى يحفظ فيها الطيب وفيها بقية منه ، ويشبه النرجس بكؤوس الدر التى فى حشوها العقيق . ويشبه العنب بمخازن البلور . . إلى آخر هذه الأوصاف التى استمدها الشاعر من حياته وبيئته .

أثر حياة ابن المعتز وبيئته فى شعره :

شعر ابن المعتز صور أدبية جميلة تمثل حياته المترفة أتم تمثيل ، ففيه صور كثيرة مستمدة من الأزهار والورد والجواهر الكريمة وحياة الملوك ومظاهرها المختلفة .

فهو مثلا يصف العنب فيشبهه بمخازن البلور ، حين يقول فى ابتداع وتجديد :

كأنه مخازن البلور — لم يبق منه وهج الحرور

إلا ضياء فى ظروف نور

ويصف الهلال أول ظهوره ، حيث يرى قوسا من بياض ، محاطا بالظلام ، فيشبهه بزورق من فضة ، قد أثقلته حمولة من عنبر ، والعنبر أسود والزورق حين يكون مثقلا بما يحمل لا يبدو منه فوق سطح الماء إلا جزء صغير أشبه ما يكون بالقوس .

ثم جعل ابن المعتز الزورق من فضة ، ليكون الجزء البادى منه فوق سطح الماء أبيض متلألئا شبيها بالقوس الفضى الصغير الذى ينير من القمر حين يكون هلالا ، ومن هنا جاءت روعة هذه الصورة وطرافتها ، وذلك حيث يقول ابن المعتز فى وصف الهلال :

انظر إليه كزورق من فضة — قد أثقلته حمولة من عنبر

ويصف الهلال أيضا فيصوره بصورة منجل من فضة يحصد من زهر الدجى نرجسا ، والنرجس هنا يشير إلى الظلام الليل ، والمنجل شبيه بقوس

الهلال ، والفضة تشير إلى ضوء الهلال ، والمنجل لايستعمل إلا فى الحصد ، ولذلك تمم ابن المعتز هذه الصورة الجميلة حين جعل المنجل يحصد من زهور الظلام النرجس وحده ، أى يحصد ما يمثل الظلام فى الكون ، فيقول ابن المعتز فى إجادة بارعة فى وصف الهلال :

كمنجل قد صيغ من فضـــة　　　يحصد من زهر الدجى نرجسا

ومن من الشعراء يستطيع أن يصور هذه الصور الرفيعة ؟ إن الشاعر المحروم لايمكن أن يتحدث عن الفضة والذهب والبلور والزهور فى شعره مثلما تحدث عنها ابن المعتز ، وقد سبق بيت ابن المعتز الذى يصور فيه أشعة الشمس وقد أرسلت على الأرض بالذهب المصبوب عليها : وهو :

وشارق يضحك من غير عجب　　　كأنه صب على الأرض ذهب

ويقول ابن المعتز يصور لهب النار المرتفع من الموقد بأشجار الذهب :

وموقدات بتن يضرمن اللهب
يشبعنه من فحم ومن حطب
يرفعن نيرانا كأشجار الذهب

وهذه الصورة رائعة لا حد لجمالها ، وهى جديدة التصوير .

موازنات أدبية :

١ — يقول البحترى فى وصفه العناق :

ولم أنس ليلتنا فى العنـــا　　　ق لف الصبا بقضيب قضيبا

أخذه ابن المعتز وزاد عليه فى المعنى وفى جودة التصوير ، ودقـــة التعبير فقال :

فلو ترانا فى قميص الدجى　　　حسبتنا فى جسد واحـــد

وهنا نرى ابن المعتز يرق فى الأسلوب والتعبير والوصف ، ويجيد فى التصوير إجادة بارعة .

٢ — وقال كثير :

أخذنا بأطراف الأحاديث بيننا وسالت بأعناق المطى الأباطح

أخذه ابن المعتز فقال :

سالت عليه شعاب الحى حين دعا أنصاره بوجوه كالدنانير

فقوله : « سالت عليه شعاب الحى » يقابل الشطر الثانى كله من بيت كثير . فهو أوجز ، على أن « سالت عليه شعاب الحى » أبلغ فى التصوير من قول كثير .

٣ — وقال أبو نواس فى الراح :

كأن صغرى وكبرى من فقاقعها حصباء در على أرض من الذهب

أخذه ابن المعتز فأجاد حين يقول :

من كميت كأنها أرض تبر فى نواحيه لؤلؤ مغروس

فنجد ابن المعتز يعقد الصورة تعقيداً فنيا واضحا ، ويرسمها بإجادة دون أن تهتز اللوحة التى رسمها ، ونجده مع ذلك مجدداً ، وإن كان لأبى نواس شرف السبق وبساطة الأداء .

٤ — والعامة تشبه الورد بالخد والخد بالورد . وهو من المبتذل ، إلا إذا أضيفت إليه زيادة تنقله من العامى إلى الخاصى ، أوضم إليه معنى يشفع به ، كما قال على بن الجهم :

عشية حيانى بورد كأنه خدود أضيفت بعضهن إلى بعض

وهذا من قصيدة ، مدح بها إبراهيم بن المهدى ، ولما سمع إبراهيم منه هذا البيت ، زحف حتى صار فى ثلثى الفراش ، وقال : يافتى شبهوا الخدود بالورود

وأنت شبهت الورود بالخدود[١] . على أن فى بيت ابن الجهم زيادة تبعده عن الابتذال . وهو إضافة بعضهن إلى بعض .

وقال ابن المعتز فى هذا المعنى ، يصور بياض الورد وما فى جوانبه من احمرار :

بياض فى جوانبه احمرار كما احمرت من الخجل الخدود

فأبدع فى التصوير والتشبيه . قال القاضى الجرجانى فى وساطته : ولو اتفق له أن يقول حمرة فى جوانبها بياض لكان قد طبق المفصل ووافق شبه الخجل[٢] ، قال عبد القاهر إلا أنه لعله وجد الأمر كذلك فى الورد ، فشبه على طريق العكس ، فقال هذا البياض حوله الحمرة كهذه الحمرة حولها البياض فى وجنة الخجل[٣] ، ويقول ابن رشيق : البيت من سوء المقابلة وإن عده القاضى الجرجانى غلطا فى التشبيه[٤] .

٥ — وقال أبو نواس فى الراح :

إذا عب فيها شارب القوم خلته يقبل فى داج من الليل كوكبا

أخذه ابن الضحاك وأحسن :

كأنما نصب كاسه قمر يكرع فى بعض أنجم الفلك

وقال ابن الرومى فيه ، وكان أحسن منهما :

فكأنها وكأن شاربها قمر يقبل عارض الشمس

وقال ابن المعتز فزاد عليهم جميعا :

وكأنه وكأن الكأس فى فمه هلال أول شهر غاب فى شفق

---

(١) ١٥٨ جـ ٢ زهر الآداب .

(٢) ١٥١ وساطة .

(٣) ١٧٢ أسرار .

(٤) ١٧ جـ ٢ العمدة .

وهو أحسن ما وصف به كأس على فم :

٦ — ولما كان ابن الرومى هو أقرب شاعر إلى ابن المعتز من طبقته ، فسنوازن هنا فى إيجاز بين قصيدتين للشاعرين فى موضوع واحد ، لنرى من هذه الموازنة مدى فن كل من الشاعرين ، ولكن هذه الموازنة لا تعطينا حكما حاسما على شاعرية أيهما ، لأنه كثيراً ما يأتى أحد الشاعرين بمعان فى موضوع القصيدة لا يأتى بها الآخر ، ومع ذلك فأنا أعرض هاتين القطعتين ، اللتين اخترتهما من شعر الشاعرين لتقاربهما فى الخيال ، ووحدتهما فى الموضوع ، فوق وحدتهما فى الوزن . قال ابن الرومى من قصيدة فى وصف مجلس الراح :

شمس من الحسن فى معصفرة ضاهت بلون لها معصفرها
فى وجنات تحمر من خجل كأن ورد الربيع حمرها
يسعى إليها بكأسه رشأ أشه الله وذكرها
فى كفه كالشهاب لاح على ظلماء ليل دجته فنورها
إن برزت للهواء غبرها أو قرعت بالمزاج كدرها

ويقول ابن المعتز فى مجلس الراح أيضاً من قصيدة :

ومجلس جل أن نشبهه جن به مزهر ومزمار
وزانه من بنى العباد رشا بالجيد والمقلتين سحار
قد ركبت كفه مشعشعة إبريقها فى الكأس هدار
يلمع فيها من كل ناحية كوكب نوره اليك نظار
فظلت فى يوم لذة عجب وافى به للسعود مقدار
وقابل الشمس فيه بدر دجى يأخذ من نورها ويمتار

١ — ففى هاتين القطعتين وصف للساقى والراح ، وفى قطعة ابن الرومى زيادة وصف القينة التى تغنى فى مجلس الراح .

٢ — وصف ابن الرومى الساقى بالأنوثة ، ووصفه ابن المعتز بالسحر .

٣ ـ شبه ابن الرومى نور الراح فى الكأس ، بالشهاب فى ظلام الليل ، أما ابن المعتز فقد شبه الكأس بالبدر ، والراح بالشمس . وجعل الكأس يأخذ من نورها ويمتار .

٤ ـ وصف ابن الرومى الراح بأنها أصفى من الماء وألطف من الهواء ، ووصفها ابن المعتز بكوكب نور متوقد .

٥ ـ ألفاظ ابن المعتز موسيقية . وأعذب من ألفاظ ابن الرومى .

٦ ـ وابن الرومى فى جملة الأمر يركب الصور ويمزج التشبيهات ولكن ابن المعتز يقف عند حدود التصوير ، لا يتعمد لمزج تلك الأصباغ بعضها ببعض ، بل يزجيها مجتمعة دون اتحاد أو امتزاج .

٧ ـ وابن الرومى يفوته أحيانا ماهو أبلغ فى الوصف . وأروع فى أداء الغرض ، من حيث لا يفوت ذلك ابن المعتز ، كما رأينا فى وصف ابن الرومى للساقى بالأنوثة ، ووصف ابن المعتز له بالسحر .

وابن المعتز يتفوق على ابن الرومى تفوقا ظاهرا حين يصف مظاهر الترف والملوكية فى حياته . . ويروى أن لائما لام ابن الرومى ، وقال له : لم لا تشبه تشبيهات ابن المعتز وأنت أشعر منه ؟ فقال : ألا تنشدنى شيئا من قوله ، الذى استعجزتنى عن مثله ؟ فأنشده قوله فى الهلال :

انظر اليه كزورق من فضة   قد أثقلته حمولة من عنبر

فقال له زدنى ، فأنشده قوله فى الآذريون (وهو زهر أصفر فى وسطه خمل أسود وليس بطيب الرائحة) :

كأن آذريونها   والشمس فيها كالية

مداهن من ذهب   فيها بقايا غالية

فصاح : واغوثاه لا يكلف الله نفسا إلا وسعها ، ذلك إنما يصف ماعون

بيته ، لأنه ابن خليفة ، وأنا أى شىء أصف ؟ ولكن انظر إذا وصفت ما أعرف ، أين يقع قولى من الناس ، هل لأحد قط مثل قولى فى قوس الغمام :

يطرزها قوس السحاب بأخضر   على أحمر فى أصفر إثر مبيض
كأذيال خود أقبلت فى غلائل   مصبغة والبعض أقصر من بعض

وقولى فى صانع الرقاق :

ما أنس لا أنس خبازا مررت به   يدحو الرقاقة مثل اللمح بالبصر
ما بين رؤيتها فى كفه كرة   وبين رؤيتها قوراء كالقمر
إلا بمقدار ما تنداح دائرة   فى لجة الماء يلقى فيه بالحجر

وقولى فى قالى الزلابية :

رأيته سحرا يقلى زلابية   فى رقة القشر والتجويف كالقصب
يلقى العجين لجينا من أنامله   فيستحيل شبابيكا من الذهب

نقد لشعر ابن المعتز

١ ـ يأخذ بعض الكتاب على ابن المعتز أنه لا يزيد فى صوره الفنية على أن يعطيك نسخة لما يرسم لك ، دون أن يعبر فى تصويره عن خلجات نفسه ومشاعره ، فهو حين يشبه الهلال « بزورق من فضة أثقلته حمولة من عنبر » لا يزيد على أن يعطيك نسخة من صورة الهلال ، لا علاقة بينها وبين إحساسه ، ومع ذلك فلم يحسن فى نقل نسخة تامة الشبه بالهلال ، ويكفى أن تتصور الهلال فى خيالك ثم تتصور بجانبه زورق ابن المعتز ، لتدرك الفارق الكبير ، وتعلم مقدار ما شوه ابن المعتز من منظر الهلال الجميل . وكذلك تصويره للهلال بمنجل الفضة الذى يحصد من زهر الدجى نرجسا ، فضلا عن أنه لا تشابه بين الهلال والمنجل إلا فى الشكل الخارجى ولا صلة بينهما فى الطبيعة إلا صلة النظرة البصرية . فضلا عن ذلك راح ابن المعتز يصنع المنجل من الفضة ، يجعله ثم يحصد النرجس ، وليكن لهذا النرجس زهر ، وليكن هذا الزهر

نابتا فى الدجى . وليس وراء ذلك كله شيء من العاطفة والاحساس أو إدراك
شيء من خفايا الجمال ، وأسرار العاطفة .

وهذا ما لا يقوم على أساس ، ويتلخص فيما يلى :

١ ـ أن البيتين السابقين لا يصوران الهلال تمام التصوير .

٢ ـ أن التشبيه عند ابن المعتز فن خالص ولكن لا حياة فيه .

٣ ـ أنه فى تشبيهه بعيد الغور ، بعيد عن الوضوح .

١ ـ وردنا على الأول هو أن ادعاء عدم تصوير البيتين للهلال تصويرا
تاما مغالطة ، ويناقض الناقد نفسه فيه ، ولما شبه موجو الشاعر الفرنسى
الهلال بمنجل من ذهب راع أعلام الأدب الفرنسى ، فكيف يراعون لو كانوا
يعلمون بما أتى به ابن المعتز .

٢ ـ وردنا على الثانى هو أن فن ابن المعتز فى التشبيه لا يخلو كله من
التعبير عن عواطفه وشعوره ، وربما خلا من ذلك إنما كان الشاعر فيه يساير
الفن الخالص ، الذى يبرز الصور البديعة من خطوطها المرسومة ، وأى ضير
على الفنان فى ذلك ، وقد اتفق النقاد جميعا على أن الفن تصوير ، وعاطفة تلون
هذا التصوير بلونها الخاص ، فالأمر لا يدل على أن الفن وحده مهما سار فى
طريقه بعيدا عن العاطفة ، فهو وحده مظهر يستثير العاطفة والوجدان .

٣ ـ وردنا على الثالث هو أن نظرية الوضوح والخفاء فى الأدب ،
لا تزال محل بحث النقاد الآن ، ولم يتفق عليها بعد اثنان ، فالجاحظ حين كان
ينادى بالوضوح والإفهام ، ويرى أن البليغ من الكلام ما كان معناه إلى قلبك أسبق
من لفظه إلى سمعك ، إنما كان يدعو إلى أن يعنى المتكلم فى تهذيب اللفظ
وترتيبه ، وصيانته من كل ما أخل بالدلالة ، ووقف دون الإبانة ، ولم ير أن
خير الكلام العامى المرذول . والقاضى الجرجانى لم يحاسب المتنبى فى وساطته
على عمقه فى التفكير والتصوير ، لأن ذلك سمة عامة فى شعر المحدثين ،
وعبد القاهر فى أسراره يقسم الغموض إلى ما سببه التعقيد فى الأداء فيرده ،
وإلى ما سببه الدقة فى المعنى فيشيد به ، ويرى أن المعانى الشريفة لابد فيها من

بناء ثان على أول ، ورد تال إلى سابق ، ورأى بعض الباحثين من المحدثين : أن الغموض فى فن المتنبي هو سر عبقريته الشاعرة ، التى ارتفعت به إلى مقام الخالدين من الشعراء .

٢ ومن رديء الشعر قول ابن الشعراء :

أرى ليلا من الشعر على شمس من الناس

فالجمع بين بين الليل والناس رديء ، وقد وقع هنا باردا كما يقول أبو هلال(١) :

٢ — ويأخذ بعض النقاد على ابن المعتز قوله فى وصف كتاب قد شكلت حروفه :

بشكل يرفع الإشكال عنه كأن سطوره أغصان شوك

لأنه مدح الكتاب بجعل سطوره شوكا ، وإن كان لاحظ الشبه التام فى صورته ، لكنه بالذم اشبه(٢) .

ويمكن أن يقال إن ابن المعتز إنما لاحظ الشكل فى الشبه دون ما سواه

نماذج لشعر ابن المعتز

١ — من شعره فى الغزل :

قف خليلى نسأل لشرة(٣) دارا أو محلا منها خلاء قفارا
ألبستنى سقما أقام وسارت واستجابت قلبى اليها فطارا
لى حبيب مكذب بالأمانى جعل الدهر موعدا وانتظارا
أيها الركب بلغوها سلامى واتقوا أخذ طرفها السحارا

---

(١) ٢٤٩ الصناعتين .

(٢) ٢٥٢ طراز المجالس .

(٣) اسم محبوبة كان يتغزل بها الشاعر ، ويتلاعب باسمها كثيرا فينطق به : شر ، وشريرة .

٣ — وله في وصف الخمر :

يامن يفندني في اللهو والطرب، دع ما تراه وخذ رأيي فحسبك بي
أفي المدامة تلحاني وتعذلني لقد جذبت جموحا غير منجذب
وقد يبا كرني الساقي فأشربها راحا تريح من الأحزان والكرب
ماز الـ يقيمه روح الدين مبزله(١) حتى تغلغل سلك الدر في الثقب
وأمطر الكأس ماء من أبارقه وأنبت الدر في أرض من الذهب
وسبح القوم لما أن رأوا عجبا نورا من الماء في نار من العنب
لم يبق فيها البلا شيئا سوى شبح يقيمه الظن بين الصدق والكذب

٤ — وقال في الفخر :

أيها السائلي عن الحسب الأطـ ـيب ، ما فوقه الخلق مزيد
نحن آل الرسول والعترة الحق وأهل القربى فماذا تريد ؟
ولنا ما أضاء صبح عليه وأتته رايات ليل سود
وملكنا رق الإمامة ميرا ثا ، فمن ذا عنا بفخر يحيد ؟

٥ — وله كذلك في الفخر والشكوى :

خليلي إن الدهر ما تريانه فصبرا ، وإلا أي شيء سوى الصبر ؟
سألتكما بالله ما تعلمانني ولا تكتما شيئا فعندكما خبري
أأرفع نيران القرى لعفاتها وأضرب يوم الروع في ثغرة النحر ؟
وأسأل نيلا لا يعاد بمثله فيفتحه بشر ويختمه عذري ؟
ويارب يوم لا يزول ظلامه مددت إلى المظلوم فيه يد النصر
فسبحان ربي ما القوي أرى لهم كوامن أضغان عقاربها تسري
إذا ما اجتمعنا في الندى تضاءلوا كما خفيت مرضى الكواكب في الفجر
بنو العم لا بل هم بنو الغم والأذى وأعوان دهري إن تظلمت من دهري

تم الكتاب بحمد الله وعونه

---

(١) المبزل : المثقب الذي يثقب به ختم الدن ، والمصفاة أيضا .

فهرست الكتاب

